الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
سلسلة الجوائز
١٠٤

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

قصص

جان - ماري جوستاف لوكليزيو

موندو

ترجمة: إيمان رياح

www.ibtesama.com

الكاتب:

• چان ـ ماری چوستاف لوكليزيو روائی فرنسی.

• ولد "لوكليزيو" فی مدينة نيس الفرنسية عام ١٩٤٠. هاجر والده الطبيب من إنجلترا إلى نيجيريا، وأمضى سنوات فی إفريقيا. وهكذا عاش "لوكليزيو" جزءًا من طفولته فی نيجيريا.

• حصل على درجة الماچستير فی الأدب والفلسفة من جامعة أكس رين بروفينس. وعمل بالتدريس في جامعة بودابست بتايلاند عام ١٩٦٦.

• منذ عام ١٩٧٣ قسم إقامته بين فرنسا وأمريكا كما أمضى عدة سنوات في بنما. وكان لرحلاته كبير الأثر على مجمل أعماله الروائية التى غالبا ما تتناول الصراع بين الثقافات المختلفة والجانب المظلم عن سيطرة الغرب على العالم.

• نشر أولى رواياته "المحضر" عام ١٩٦٣. فحازت واحدة من أعرق الجوائز الأدبية الفرنسية "رينودو" واكتسب بعدها شهرة واسعة.

• من أشهر أعماله الروائية "الحمى" عام ١٩٦٥. و "الطوفان" عام ١٩٦٨.
و "العمالقة" عام ١٩٧٥. و "صحراء" عام ١٩٨٠. و "الباحث عن الذهب" عام ١٩٨٣.
و"الإفريقی" عام ٢٠٠٤.
و"متلازمة الجوع" عام ٢٠٠٨.

• ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية، وحصد العديد من الجوائز الأدبية المهمة مثل: جائزة الأكاديمية الفرنسية وجائزة جان جيو نو الكبرى. وجائزة أمير موناكو. قبل أن تتوج جوائزه جائزة نوبل فی الآداب لعام ٢٠٠٨.

الجائزة:

جائزة نوبل فی الآداب
أكبر جائزة فی العالم، وأعلى مرتبة من جميع التقديرات. تمنح فی فروعها المختلفة كل عام فی العاشر من ديسمبر، وهو تاريخ وفاة صاحبها الصناعی السويدی ومخترع الديناميت "ألفريد نوبل" الذی أسسها عام ١٨٩٥. كدعوة لتحقيق السلام فی العالم. ومنذ عام ١٩٠١ أصبح العالم كله ينتظر توزيع الجائزة على الأدباء والعلماء ودعاة السلام الذين يقومون بإنجازات أدبية وعلمية وخدمات اجتماعية نبيلة تهدف إلى رقی الإنسانية وتطورها.
وجائزة نوبل فی الآداب هی أرفع جائزة أدبية فی العالم. وهی تمنح لقمم الإبداع فی فروعه المختلفة: "رواية، شعر، مسرح" وأول من حصل عليها من العالم العربی الكاتب المصری "نجيب محفوظ" عام ١٩٨٨.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

موندو

وقصص أخرى

www.ibtesama.com

رئيس مجلس الإدارة	د. أحمد مجاهد
رئيس التحرير	د. سهير المصادفة
مدير التحرير	محمود عبده
سكرتير التحرير	وردة عبد الحليم
التصميم الجرافيكى	د. مدحت متولى
الإخراج الفنى	صبرى عبد الواحد
	على أبو الخير

لوكليندیو.
موندو وقصص أخري/ تأليف: لوكليندیو؛
ترجمة: إيمان رياح. ـ القاهرة : الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ٢٠١١.
٣٩٢ ص؛ ٢٢ سم.
تدمك ٥ ٩٣٦ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ قصص.
أ ـ رياح، إيمان. (مترجم)
رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٨٤٧/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -936 -5
ديوى ٨٠٨,٨٣

www.ibtesama.com

موندو

وقصص أخرى

جان - ماری جوستاف لوكليزيو

ترجمة : إيمان رياح

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٢

www.ibtesama.com

• الكتاب: موندو وقصص أخرى
Mondo et autres histoires

• تأليف: چان - مارى چوستاف لوكليزيو
J.M.G.Le Clezio

• ترجمة: إيمان رياح

• يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من الناشر الأصلى للهيئة المصرية العامة للكتاب.

• جميع حقوق الإصدار باللغة العربية محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب فى مصر والخارج.

• جميع الحقوق الأخرى محفوظة للناشر الأصلى:
©Editions Gallimard 1978

• الطبعة الأولى ٢٠١٢.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

www.ibtesama.com

"ماذا يا هذا! أتقيم فى بغداد، ولا تدرى أن هنا منزل السيد السندباد البحرى، ذلك الرحالة الشهير الذى جاب كل البحار التى تضيئها الشمس؟"

حكاية السندباد البحرى

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

مُونــدُو

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

لم يكن أحد ليستطيع القول من أين أتى مُوندُو. كان قد وصل إلى هنا ذات يوم، بالصدفة، إلى مدينتنا، دون أن نلاحظه، ثم اعتدنا عليه. كان صبيًا فى العاشرة من عمره، بوجه مستدير وهادئ، وعينين سوداوين جميلتين مائلتين قليلاً. لكن شعره كان أكثر ما يشد الانتباه إليه، شعر أسمر ـ رمادى يتغير لونه بحسب الضوء، ويبدو رماديًا تقريبًا مع حلول الليل.

لم نكن نعرف شيئًا عن عائلته، ولا بيته. ربما لم تكن لديه عائلة ولا بيت. ودائمًا، حين لا نتوقعه، حين لا يخطر ببالنا، فإنه يظهر عند تقاطع شارعين، قرب الشاطئ، أو فى ساحة السوق. كان يمشى وحيدًا، بسيماء صارمة وهو ينظر حوله. يلبس دائمًا الثياب نفسها، بنطلونًا أزرق من الدنيم، وحذاءً رياضيًا، وقميصًا أخضر متسعًا قليلاً عليه.

حين يصل إليك، ينظر إليك مباشرةً، يبتسم، وتتحول عيناه الضيقتان إلى فتحتين ملتمعتين. كانت تلك طريقته فى إلقاء التحية. وحين كان يعجبه شخصٌ ما، يستوقفه ويسأله ببساطة:

www.ibtesama.com

"هل تريد أن تتبنَّانى؟"

وقبل أن يفيق الناس من مفاجأتهم، يكون قد ابتعد.

ماذا جاء يفعل هنا، فى هذه المدينة؟ ربما وصل إلى هنا بعد سفر طويل فى عنبر سفينة شحن، أو فى آخر عربة لقطار نقل بضائع سار أمدًا طويلاً عبر البلاد، يومًا بعد يوم، ليلةً بعد ليلة. وربما قرر التوقف هنا، حين رأى الشمس والبحر، والڤيلات البيضاء وحدائق النخيل. المؤكد، أنه أتى من مكان بعيد للغاية، من الجانب الآخر للجبال، من الجانب الآخر للبحر. وبمجرد رؤيته، أدركنا أنه لم يكن من هنا، وأنه قد رأى بلدانًا كثيرة. كانت لديه تلك النظرة السوداء الملتمعة، والبشرة النحاسية، وتلك المشية الخفيفة، الصامتة، الخرقاء قليلاً، شأن الكلاب. كانت لديه ـ بالأخص ـ أناقةٌ وثقة بالنفس لا يمتلكها عادة الأطفال فى هذه السن، وكان يحب طرح أسئلة غريبة تشبه الأحاجى؛ رغم أنه لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة.

حين وصل إلى هنا، إلى مدينتنا، كان ذلك قبل فصل الصيف. لكن الجو كان بالغ الحرارة، وكل مساء كان هناك العديد من الحرائق فى التلال. وفى الصباح، كانت السماء زرقاء بلا تغير، ممدودة، ملساء، بلا سحب. كانت الرياح تهب من البحر، رياح جافة وساخنة تجفف الأرض وتشعل النيران. كان يوم السوق الأسبوعية. وصل مُوندُو إلى الساحة، وبدأ يجول بين

www.ibtesama.com

شاحنات المزارعين الزرقاء الصغيرة. وجد عملاً على الفور، لأن المزارعين يحتاجون دائمًا للمساعدة فى تفريغ صناديقهم.

كان مُوندُو يعمل على شاحنة، وحين ينتهى، يُعطونه بعض القطع النقدية فيذهب للعمل على شاحنة أخرى. كان أهل السوق يعرفونه جيدًا. يأتى إلى الساحة فى ساعة مبكرة، ليضمن تشغيله، وعندما تصل الشاحنات الزرقاء، كان الناس ما إن يروه حتى يصرخوا باسمه:

"مُوندُو! يا مُوندُو".

عندما تغلق السوق، كان مُوندُو يحب كثيرًا اللملمة. يتسلل بين طاولات عرض البضائع، ويلملم ما سقط على الأرض، من تفاح، وبرتقال، وتمر. كان هناك أطفال آخرون يبحثون، وأيضًا عجائز يملأون أكياسهم بأوراق الخس والبطاطا. كان الباعة يحبون مُوندُو، فلا يقولوا له أى شىء. وأحيانًا، كانت بائعة الفواكه البدينة تعطيه تفاحًا أو موزًا من طاولتها. وكان ثمة صخب كبير فى الساحة، والزنابير تحلق فوق أكوام التمر والزبيب.

كان مُوندُو يبقى فى الساحة إلى أن تغادر الشاحنات الزرقاء. ينتظر عامل النظافة، صديقه. وهو رجل طويل نحيف يلبس زيًّا رياضيًا كحليًّا. كان مُوندُو يحب كثيرًا رؤيته وهو يعمل، لكنه لم يكن يكلمه أبدًا. كان العامل يوجه خرطوم الماء إلى النفايات

www.ibtesama.com

ويدفعها إلى الركض أمامه كالحيوانات، وكانت سحابة من قطرات الماء الصغيرة تصَّاعد فى الهواء. كان اندفاع المياه على قارعة الطريق يُصدر صوت عاصفة ورعد، ثم تظهر أقواس قزح خفيفة فوق السيارات المتوقفة. لهذا السبب كان مُوندُو صديق عامل النظافة. كان يحب القطرات الرفيعة التى كانت تتطاير وتسقط ثانيةً كالمطر فوق هياكل السيارات وزجاجها الواقى. وكان عامل النظافة، هو أيضًا، يحب مُوندُو، لكنه لم يكن يكلمه. والحقيقة، أنهما لم يكونا ليسمعا بعضهما بسبب ضجيج خرطوم الرش. كان مُوندُو ينظر إلى الخرطوم الأسود الطويل وهو ينتفض كالثعبان. وكان يهفو إلى أن يجرب الرش، هو أيضًا، لكنه لم يكن ليجرؤ على أن يطلب من العامل أن يعيره خرطوم الرش. فضلاً عن ذلك، ربما لم يكن ليستطيع البقاء واقفًا، لأن دفقات الماء كانت بالغة القوة.

كان مُوندُو يبقى فى الساحة حتى ينتهى عامل النظافة من الرش. كانت القطرات الرفيعة تسقط على وجهه وتبلل شعره، وكانت كضباب ندى يشعره بالانتعاش. بعد الانتهاء من عمله، كان العامل يفك خرطومه وينتقل إلى مكان آخر. عندئذ كان أناس يصلون وينظرون إلى قارعة الطريق المبللة وهم يقولون:

"غريب! هل أمطرت؟"

بعد ذلك، كان مُوندُو يذهب لرؤية البحر، أو التلال التى تحترق، أو يذهب بحثًا عن أصدقائه الآخرين.

www.ibtesama.com

في ذلك الوقت، لم يكن يسكن فى أى مكان. كان ينام فى مخابئ، بالقرب من الشاطئ، أو أبعد قليلاً، وسط الصخور البيضاء عند مخرج المدينة. كانت مخابئ جيدة حيث لم يكن أحد ليستطيع العثور عليه. لم تكن الشرطة وموظفو الإسعاف الاجتماعية يحبون أن يعيش الأطفال هكذا، أحرارًا، يأكلون أى شىء وينامون فى أى مكان. لكن مُوندُو كان ذكيًا، إذ كان يعلم الأوقات التى يبحثون فيها عنه فلم يكن يظهر.

وعندما لم يكن ثمة خطر، كان يتجول طوال اليوم فى المدينة، وهو يتأمل ما يحدث فيها. كان يحب كثيرًا التجول بلا هدف، والدوران عند ناصية شارع، ثم أخرى، واتباع طريق مختصر، والتوقف قليلاً فى الحديقة، ثم المغادرة. وحين يرى شخصًا ما أعجبه، يتجه نحوه، ويقول له بهدوء:

"صباح الخير. ألا تريد أن تتبنَّانى؟"

كان بعض الناس يودون ذلك فعلاً، لأن مُوندُو كان يبدو طيبًا، بوجهه المستدير وعينيه اللامعتين. لكن الأمر كان صعبًا. لم يكن باستطاعة الناس تبنيه هكذا، وعلى الفور. كانوا يبدأون بطرح الأسئلة عليه، سنه، اسمه، عنوانه، أين والداه، ولم يكن مُوندُو يحب هذه الأسئلة. كان يجيب:

"لا أعرف، لا أعرف".

ويذهب راكضًا.

كان مُوندُو قد عثر على العديد من الأصدقاء، بمجرد مشيه فى الشوارع. لكنه لم يكن يتحدث مع

www.ibtesama.com

الجميع. لم يكونوا أصدقاء يتحدث معهم، أو يلعب معهم. كانوا أصدقاء يحييهم لدى مروره، بسرعة، بغمزة عين، أو بإشارة يد، من بعيد، من الجانب الآخر للشارع. كانوا أيضا أصدقاء يأكل عندهم، مثل السيدة الخبازة التى كانت تعطيه كل يوم قطعة خبز. كان لها وجه عجوز متورد، متناسق للغاية وبالغ النعومة كوجه تمثال إيطالى. وكانت تلبس الأسود دائمًا وشعرها الأبيض المضفور معقوص. حتى اسمها كان إيطاليًا، كانت تُدعى إيدا، وكان مُوندُو يحب كثيرًا الدخول إلى محلها. أحيانًا كان يعمل لديها، يقوم بتوصيل الخبز إلى تجار المنطقة. ولدى عودته، كانت تقطع قطعة سميكة من رغيف دائرى وتعطيها له، مغلفةً فى ورق شفاف. لم يطلب منها مُوندُو أبدًا أن تتبناه، ربما لأنه كان يحبها كثيرًا وذلك ما كان يخجله.

كان مُوندُو يسير ببطء باتجاه البحر وهو يأكل قطعة الخبز. كان يقطعها إلى أجزاء صغيرة، كى تبقى معه مدة أطول، ويمشى وهو يأكل بلا استعجال. يقال إنه فى ذلك الوقت كان يعيش بالأساس على الخبز، رغم ذلك كان يحتفظ ببعض الفتات ليعطيه لأصدقائه النوارس.

كان هناك العديد من الشوارع، والساحات، وحديقة عامة، قبل أن تصل رائحة البحر. كانت تصل فى الرياح دفعةً واحدةً، مع الوشيش الرتيب للأمواج.

فى نهاية الحديقة، كان هناك كشك للجرائد. كان مُوندُو يتوقف عنده ويختار كتابًا مصورًا. كان يتردد

www.ibtesama.com

فى الاختيار بين العديد من قصص أكيم، وفى النهاية يشترى قصة لِكيت كارسون. كان مُوندُو يختار كيت كارسون بسبب الرسم الذى كان يمثله مرتديًا سترته الجلدية الشهيرة. بعد ذلك كان يبحث عن دكة ليطالع كتابه. لم يكن الأمر سهلاً، لأنه كان ينبغى أن يكون على الدكة شخصٌ ما يمكنه قراءة كلمات قصة كيت كارسون. قبيل الساعة الثانية عشرة، كان الموعد المناسب، لأنه فى هذا التوقيت كان يتواجد دائمًا، تقريبًا، متقاعدو البريد الذين يدخنون سجائرهم فى ضجر. وعندما كان مُوندُو يعثر على أحدهم، كان يجلس بجواره على الدكة، وينظر إلى الرسوم وهو يستمع إلى القصة. كان هندى أحمر يقف مكتوف اليدين أمام كيت كارسون ويقول:

"مرت عشرة شهور وشعبى فقد صبره. سندخل الحرب مثل أسلافنا!"

رفع كيت كارسون يده.

"لا تصغ إلى غضبك، يا حصان مجنون. فقريبًا سيتم إنصافكم".

"لقد فات الأوان"، قال حصان مجنون. "انظر!" كان يشير إلى المحاربين المحتشدين أسفل التل.

"لقد انتظر شعبى طويلاً. ستبدأ الحرب، وستموتون، وأنت أيضًا ستموت، يا كيت كارسون!".

أطاع المحاربون أمر حصان مجنون، لكن كيت كارسون أوقعهم بضربة يد وفر فوق حصانه. كان

www.ibtesama.com

يلتفت ويصرخ لحصان مجنون: "سأعود، وسيتم إنصافك!".

عندما ينتهى من الاستماع لقصة كيت كارسون، كان مُوندُو يستعيد الكتاب ويشكر المتقاعد.

"إلى اللقاء!"، يقول المتقاعد.

"إلى اللقاء!"، يقول مُوندُو.

سار مُوندُو بسرعة حتى الرصيف الذى كان يمتد إلى وسط البحر. نظر مُوندُو برهةً إلى البحر، وهو يضم جفنيه حتى لا تبهره انعكاسات الشمس. كانت السماء شديدة الزرقة، بلا غيوم، والأمواج الصغيرة تتلألأ.

نزل مُوندُو السلالم الصغيرة المؤدية إلى حاجز الأمواج. كان يحب كثيرًا ذلك المكان. كان السد الحجرى طويلاً جدًا، تحده قوالب كبيرة من الأسمنت مستطيلة الشكل. فى نهاية الرصيف، كان هناك الفنار. كانت الطيور البحرية تنزلق فى الرياح، تحلق، تحوم ببطء، مطلقة أنات أطفال. تطير فوق مُوندُو، تلامس رأسه وتناديه. وكان مُوندُو يرمى فتات الخبز إلى أعلى ما يستطيع، فتلتقطها الطيور البحرية فى طيرانها.

كان مُوندُو يحب أن يتمشى هنا، على حاجز الأمواج. كان يقفز من قالب إلى آخر، وهو ينظر إلى البحر. يشعر بالرياح وهى تضغط على خده الأيمن، وتشد شعره جانبًا. وعلى الرغم من هبوب الرياح،

www.ibtesama.com

كانت الشمس حامية جدًا. والأمواج تضرب قاعدة قوالب الأسمنت مفجرةً الرذاذ فى الضوء.

أحيانًا، كان مُوندُو يتوقف لينظر إلى الساحل. كان بعيدًا، ويبدو كشريط أسمر تتناثر عليه متوازيات من سطوح بيضاء. أعلى المنازل، كانت التلال رمادية وخضراء. وكان دخان الحرائق يصّاعد فى بعض الأماكن، مُشكِّلاً بقعة غريبة فى السماء. لكن النيران لم تكن تُرى.

"لابد أن أذهب إلى هناك"، قال مُوندُو. كان يفكر بألسنة النار الكبيرة الحمراء التى تلتهم الشجيرات وغابات البلوط. فكر أيضًا بشاحنات رجال المطافئ المتوقفة فى الدروب، لأنه كان يحب كثيرًا الشاحنات الحمراء.

إلى الغرب، كان ثمة أيضًا شىءٌ كالحريق على البحر، لكنه لم يكن سوى انعكاس الشمس. بقى مُوندُو ساكنًا وهو يشعر بالشعلات الصغيرة لانعكاسات الشمس تتراقص فوق جفنيه، ثم واصل طريقه، وهو يقفز فوق حاجز الأمواج.

كان مُوندُو يعرف جيدًا كل قوالب الأسمنت، كانت تبدو كحيوانات كبيرة نائمة، نصفها فى الماء، وتدفئ ظهورها العريضة فى الشمس. كانت تحمل رموزًا غريبة محفورة على ظهورها، وبقعًا سمراء، وحمراء، وأصدافًا ملتصقة بالأسمنت. عند قاعدة حاجز الأمواج، حيث يضرب البحر، كان الطحلب

www.ibtesama.com

البحرى الأخضر يبدو كالسجاد، وثمة حشود من المحار ذات الأصداف البيضاء. كان مُوندُو يعرف تحديدًا أحد قوالب الأسمنت، فى آخر الرصيف تقريبًا. هناك يذهب دائمًا للجلوس، وهو المفضل لديه. كان قالبًا مائلاً قليلاً، قليلاً فحسب، وكان الأسمنت المصنوع منه قديمًا، وبالغ النعومة. كان مُوندُو يجلس فوقه، يتربع، ويكلمه قليلاً، بصوت خفيض، ليقول له صباح الخير. أحيانًا، كان يروى له قصصًا ليرفه عنه، لأنه كان بلا شك ضجرًا قليلاً، من بقائه هناك طوال الوقت، دون أن يتمكن من الذهاب. لهذا السبب كان يكلمه عن الأسفار، والبواخر، وبالتأكيد عن البحر، وعن تلك الحيتان الكبيرة التى تنتقل ببطء من قُطب إلى آخر. لم يكن حاجز الأمواج يقول شيئًا، ولا يتحرك، لكنه كان يحب كثيرًا القصص التى يحكيها له مُوندُو. مؤكد أنه كان شديد النعومة لهذا السبب.

كان مُوندُو يجلس وقتًا طويلاً فوق حاجز الأمواج الذى يحبه، وهو ينظر إلى الانعكاسات المتلألئة فوق البحر، ويستمع إلى هدير الأمواج. وعندما تصبح الشمس أكثر حرارة، مع نهاية الظهيرة، كان يستلقى متكورًا، وخده على الأسمنت الدافئ، وينام قليلاً.

فى إحدى تلك الظهيرات تعرف على الصياد جيوردان. كان مُوندُو قد سمع عبر الأسمنت وقع خطى أحدهم يمشى على حاجز الأمواج. نهض، مستعدًا للاختباء، لكنه رأى ذلك الرجل فى

www.ibtesama.com

الخمسينيات حاملاً عصا صيد طويلة على كتفه، فلم يخف منه. ذهب الرجل إلى المكعب المجاور وأشار بحركة ودية بيده.

"ماذا تفعل هنا؟"

كان قد جلس فوق حاجز الأمواج، وأخرج من جرابه المصنوع من القماش المشمَّع شتى أنواع الخيوط والصنارات. حين بدأ الصيد، جاء مُوندُو إلى جانبه، فوق حاجز الأمواج، وراح ينظر إلى الصياد وهو يُعد صناراته. أراه الصياد كيفية تركيب الطعم، ثم كيف يُرمى، ببطء فى البداية، ثم أكثر فأكثر قوة كلما فُك الخيط. أعار عصا الصيد لمُوندُو، كى يتعلم تدوير البكرة بحركة مستمرة، وهو يؤرجح قليلاً العصا من اليسار إلى اليمين.

كان مُوندُو يحب الصياد جيوردان، لأنه لم يكن يسأله عن أى شىء. كان وجهه مُحمرًا من الشمس، مغضنًا بتجاعيد عميقة، وعيناه الصغيرتان شديدتا الخضرة مدهشتين.

كان يصيد لوقت طويل على حاجز الأمواج، إلى أن تقترب الشمس من الأفق. لم يكن جيوردان يتكلم كثيرًا، بلا شك كى لا يخيف الأسماك، لكنه يضحك كل مرة يأتى فيها بصيد. كان يفصل فك السمكة بحركات واضحة ودقيقة، ثم يضع غنيمته فى جرابه المصنوع من القماش المشمع. أحيانًا كان مُوندُو يذهب ليجلب له سلطعونات رمادية يركبها كطعم فى

www.ibtesama.com

صنارته. كان ينزل عند أسفل حاجز الأمواج، ويترصدها بين باقات الطحالب. بعد انسحاب الموجة، كانت السلطعونات الرمادية تخرج، فيمسكها مُوندُو بيده. يكسرها الصياد جيوردان على مكعب الأسمنت ويقطعها بسكين صغير صدئ.

ذات يوم، غير بعيد فى البحر، شاهدا سفينة شحن سوداء تنساب بلا صوت.

"ما اسمها؟"، سأل مُوندُو.

وضع الصياد جيوردان يده أمام وجهه وقطب عينيه.

"إريتريا"، قال؛ ثم تعجب قليلاً:

"نظرك ضعيف"

"ليس هذا"، قال مُوندُو. "أنا لا أعرف القراءة".

"حقاً؟"، قال جيوردان.

نظرا طويلاً إلى السفينة المارة.

"ماذا يعنى اسم السفينة؟"، سأل مُوندُو.

"إريتريا؟ اسم بلد، على الساحل الأفريقى، على البحر الأحمر".

"اسم جميل"، قال مُوندُو. "مؤكدٌ أنه بلد جميل".

فكر مُوندُو لبرهة.

"والبحر هناك اسمه البحر الأحمر؟"

ضحك الصياد جيوردان:

www.ibtesama.com

"أنت تعتقد أن البحر هناك أحمر فعلاً؟"

"لا أدرى"، قال مُوندُو.

"عندما تغرب الشمس، يصبح البحر أحمر، هذا صحيح. لكنه يُدعى هكذا نسبة إلى الناس الذين كانوا يسكنون هناك فى الماضى".

نظر مُوندُو إلى السفينة التى كانت تبتعد.

"مؤكد أنها ذاهبة إلى هناك، إلى أفريقيا".

"إنها بعيدة"، قال الصياد جيوردان. "الجو حار جدًا هناك، فهناك الكثير من الشمس والساحل كالصحراء".

"هل هناك نخيل؟"

"نعم، وشواطئ رملية طويلة جدًا. فى النهار، يكون البحر شديد الزرقة، والعديد من سفن الصيد الصغيرة ذات أشرعة على شكل أجنحة، تُبحر على طول الساحل، من قرية إلى أخرى".

"إذن يستطيعون الجلوس على الشاطئ ورؤية السفن تمر؟ يجلسون فى الظل، ويحكون لبعضهم البعض قصصًا وهم ينظرون إلى السفن فى البحر؟"

"الرجال يعملون، يُعدون الشباك، يسكبون صفائح من الزنك على هياكل السفن الجانحة فى الرمال. أما الأطفال، فيأتون بأغصان جافة ويشعلون نيرانًا على الشاطئ لتسخين القار الذى يستخدم لسد تشققات السفينة".

www.ibtesama.com

لم يعد الصياد جيوردان ينظر إلى صنارته. كان ينظر بعيدًا، نحو الأفق، كما لو كان يحاول فعلاً رؤية كل ذلك.

"هل هناك أسماك قرش فى البحر الأحمر؟"

"نعم، هناك دائمًا واحدة أو اثنتان تتبعان السفن، لكنهم اعتادوا عليها، فلا يعيرونها اهتمامًا".

"أليست مؤذية؟"

"حسنًا، أسماك القرش كالثعالب، تبحث دائمًا عن الفضلات التى تسقط فى الماء، عن شىء ما تسرقه. لكنها ليست مؤذية".

"لا شك أن البحر الأحمر كبير"، قال مُوندُو.

"نعم، إنه كبير جدًا... ثمة مدن كثيرة على السواحل، وموانئ تحمل أسماء عجيبة... بَلول، برزالى، ديبا... ماساوا، مدينة كبيرة بيضاء تمامًا. تذهب السفن بعيدًا على طول الساحل، وتبحر أيامًا وليالى، باتجاه الشمال، حتى رأس كزار، أو تتجه نحو الجُزر، إلى "دلاك كِبير"، فى أرخبيل نورا، بل تصل أحيانًا حتى جزر فرسان، على الجانب الآخر للبحر.

كان مُوندُو يحب كثيرًا الجُزر.

"أوه نعم، هناك الكثير من الجُزر، جُزر بصخور حمراء وشواطئ رملية، وعلى الجُزر ثمة أشجار النخيل!"

www.ibtesama.com

"فى موسم الأمطار، هناك عواصف، وتهب الرياح بقوة إلى حد أنها تقتلع أشجار النخيل وأسطح المنازل".

"وهل تغرق السفن؟"

"كلا، يحتمى الناس ببيوتهم، ولا يخرج أحد إلى البحر".

"لكن ذلك لا يستمر طويلاً".

"على جزيرة صغيرة، ثمة صياد مع أسرته. يعيشون فى بيت من سعف النخيل، على الشاطئ. الابن البكر للصياد كبير، قد يكون فى عمرك. يذهب فى القارب مع أبيه، ويرمى الشباك فى البحر. حين يسحبها، يجدها ممتلئة بالأسماك. إنه يحب كثيرًا الخروج فى القارب مع أبيه. وهو قوى ويعرف كيف يتحكم جيدًا فى الشراع كى يستوعب الرياح. وحين يكون الجو جميلاً والبحر هادئًا، يصطحب الصياد أسرته كلها لزيارة أقارب وأصدقاء فى الجزر المجاورة، ويعودون فى المساء".

"يتقدم القارب من تلقاء نفسه، بلا ضوضاء. والبحر الأحمر مُحمرٌّ تمامًا لأنه غروب الشمس".

فيما كانا يتحدثان، قامت السفينة إريتريا بدورة كبيرة فى البحر. عاد القارب المرشد وهو يتأرجح فوق آثار السفينة، التى أطلقت صفارة قصيرة لتقول إلى اللقاء.

www.ibtesama.com

"متى ستذهب إلى هناك، أنت أيضًا؟"؛ سأل مُوندُو.

"إلى أفريقيا، على البحر الأحمر؟" ضحك الصياد جيوردان. "لا أستطيع الذهاب، يجب أن أبقى هنا، على الرصيف".

"لماذا؟"

كان يبحث عن إجابة.

"لأن... لأننى بحار بلا سفينة".

ثم عاد للنظر ثانيةً إلى عصا الصيد.

حين اقتربت الشمس من الأفق، وضع الصياد جيوردان عصاه على بلاط الاسمنت، وأخرج من جيب سترته سندويتشا. أعطى نصفه لمُوندُو وأكلا معًا، وهما ينظران إلى انعكاسات الشمس على البحر.

غادر مُوندُو قبل حلول الليل، ليبحث عن مخبأ ينام فيه.

"إلى اللقاء!"؛ قال مُوندُو.

"إلى اللقاء!"؛ قال جيوردان. وحين ابتعد مُوندُو قليلاً صاح:

"عُد لرؤيتي! سأعلمك القراءة. ليست صعبة".

ظل يصيد إلى أن حل الظلام تمامًا، وبدأ الفنار يطلق إشاراته المنتظمة، كل أربع ثوان.

كان كل ذلك جميلاً، لكن كان لابد من الحذر من شاحنة السياباكان. فكل صباح، عند طلوع النهار،

www.ibtesama.com

تسير الشاحنة الرمادية ذات النوافذ المسيجة فى شوارع المدينة ببطء، بلا ضجيج، قرب الأرصفة. تجوب الشوارع التى لا تزال نائمة ومضببة، بحثًا عن الكلاب والأطفال الضالين.

كان مُوندُو قد لمحها ذات يوم، بعد مغادرته مخبأه على الشاطئ بقليل وهو يجتاز الحديقة. توقفت الشاحنة على بُعد بضعة أمتار أمامه، وبالكاد كان لديه من الوقت ما يسمح له بالاختباء خلف بضع شجيرات. رأى الباب الخلفى للشاحنة ينفتح، ثم خرج رجلان يلبسان بذلتين رياضيتين رماديتين. كانا يحملان كيسين كبيرين من الكتان وحبالاً. بدآ بالبحث فى ممرات الحديقة، وسمع مُوندُو كلامهما وهما يمران قُرب الدغل.

"لقد ذهب من هنا".

"هل رأيته؟"

"نعم، لابد أنه لم يبتعد كثيرًا".

ابتعد الرجلان المرتديان الرمادى، كلٌّ منهما فى اتجاه، وبقى مُوندُو ساكنًا خلف الدغل، بلا نَفَس تقريبًا. بعد لحظات، سُمعت صرخة مبحوحة غريبة سرعان ما اختنقت، ثم حل الصمت من جديد. عندما عاد الرجلان، لاحظ مُوندُو أنهما كانا يحملان شيئًا ما فى أحد الأكياس. شحنا الكيس فى مؤخرة الشاحنة، ثم سمع مُوندُو من جديد صرخات حادة كانت تؤلم الآذان. كان كلبًا محبوسًا فى الكيس.

www.ibtesama.com

غادرت الشاحنة الرمادية بلا استعجال، واختفت خلف أشجار الحديقة. شخصٌ كان يمر من هناك قال لمُوندُو إنها شاحنة السياباكان الذين يخطفون الكلاب التى لاصاحب لها؛ ثم نظر إلى مُوندُو بإمعان، وأضاف، ليخيفه، إن الشاحنة تأخذ أحيانًا أيضًا الأطفال الذين يتسكعون بدلاً من الذهاب إلى المدرسة. منذ ذلك اليوم، أصبح مُوندُو يراقب طوال الوقت، على الجوانب، وخلفه، حتى يضمن أن يرى الشاحنة الرمادية وهى قادمة.

فى أوقات خروج التلاميذ من المدرسة، أو أيام العطلات، كان مُوندُو يعلم أن الوضع آمن. كان لابد من الحذر حين يكون هناك القليل من الناس فى الشوارع، فى الصباح الباكر أو مع حلول الليل. ربما لهذا السبب، كان مُوندُو يركض بانحراف طفيف، مثل الكلاب.

فى ذلك الوقت كان قد تعرف على الغجرى، والقوزاقى وصديقهما العجوز دادى. كانت أسماء أطلقناها عليهما هنا فى مدينتنا، لأننا لم نكن نعرف اسميهما الحقيقيين. فالغجرى لم يكن غجريًا، لكنه سُمى هكذا بسبب لون بشرته المُسمَر، وشعره شديد السواد ومظهره الجانبى الشبيه بالصقر؛ لكنه بلا شك لُقب بهذا الاسم لأنه كان يسكن سيارة هوتشكيس قديمة سوداء مركونة فى الساحة ويكسب قوته بالقيام بعروض لخفة اليد. أما القوزاقى، فكان رجلاً غريبًا، من النوع المُنغولى، يلبس دائمًا قبعة كبيرة

www.ibtesama.com

من الفراء يبدو بها كالدب. كان يعزف على الأكوردیون أمام شرفات المقاهی، لیلاً بالتحدید، لأنه فی النهار یکون ثملاً تمامًا.

لكن مُوندُو كان يفضل العجوز دادی. ذات يوم كان يمشى على طول الشاطئ، فرآه جالسًا على الأرض فوق ورقة جريدة. كان الرجل العجوز يتدفأ فی الشمس بلا مبالاة بالناس الذين كانوا يمرون أمامه. أثارت فضول مُوندُو حقيبة صفراء من الكارتون المقوَّى مليئة بالثقوب كان قد وضعها العجوز دادی بجانبه على الأرض فوق ورقة جريدة أخرى. كان دادی یبدو حنونًا وهادئًا، فلم یخف منه مُوندُو قَط. اقترب ليرى الحقيبة الصفراء، وسأل دادی:

"ماذا يوجد فی حقيبتك؟"

فتح الرجل عينيه قليلاً. ودون أن يقول شيئًا، وضع الحقيبة فوق ركبتيه ووارب الغطاء. كان يبتسم بطريقة غامضة وهو يدخل يده تحت الغطاء، ثم أخرج زوج يمام.

"إنهما جميلتان جدًا"، قال مُوندُو. "ما اسماهما؟"

كان دادی يربت على ريش الطائرين، ثم قربهما من خديه.

"هو، اسمه بيلو، وهی، زُوی".

كان يمسك باليمامتين بين يديه، ويربت عليهما برقة شديدة بوجهه. نظر إلى البعيد، بعينيه النديتين والفاتحتين اللتين لا تريان جيدًا.

www.ibtesama.com

ربت مُوندُو برفق على رأسى اليمامتين. أبهرهما نور الشمس، فأرادتا الدخول إلى حقيبتهما. كلمهما دادى بصوت خفيض لتهدئتهما، ثم أعادهما تحت الغطاء من جديد.

"جميلتان جدًا"، كرر مُوندُو. ثم رحل، فيما أغمض الرجل عينيه وواصل نومه جالسًا على جريدته.

حين حل الليل، ذهب مُوندُو لرؤية دادى فى الساحة. كان يعمل مع الغجرى والقوزاقى فى العرض الذى كان يقدَّم للجمهور، ويجلس بعيدًا قليلاً مع حقيبته الصفراء فيما كان الغجرى يعزف على البانجو والقوزاقى يصيح بصوته الجهير لاجتذاب المارة. كان الغجرى يعزف بسرعة، وهو ينظر إلى أصابعه تتحرك، ويغنى. ووجهه الداكن يلتمع فى ضوء الفوانيس.

جلس مُوندُو فى الصف الأول للمتفرجين، وحيًا دادى. بدأ الغجرى العرض. واقفًا أمام المتفرجين، أخرج مناديل من كل الألوان من قبضة يده المغلقة، بسرعة مذهلة. كانت المناديل الخفيفة تسَّاقط على الأرض، وكان على مُوندُو أن يجمعها أولاً بأول. كان هذا عمله. ثم يُخرج الغجرى شتى أنواع الأشياء الغريبة من يده، أقلامًا، صورًا، كرات بنج ـ بونج، وحتى سجائر مشتعلة كان يوزعها على الناس. كان يقوم بذلك بسرعة فائقة إلى حد أنه لم يكن ثمة مجال لرؤية يديه تتحركان. كان الناس يضحكون ويصفقون، وبدأت القطع النقدية تسَّاقط على الأرض.

www.ibtesama.com

"أيها الصغير، ساعدنا فى جمع النقود". قال القوزاقى.

أخذ الغجرى بيديه بيضة، غلفها بمنديل أحمر، ثم توقف لبرهة.

"إنتـ.... ـباه!"

ضرب كفيه الواحد على الآخر، وعندما فتح المنديل، كانت البيضة قد اختفت. كان الناس يصفقون أكثر فأكثر، ومُوندُو يجمع قطعًا نقدية أخرى يضعها فى علبة حديدية.

عندما لم تعد هناك قطع نقدية أخرى، جلس مُوندُو على عقبيه ونظر من جديد إلى يدَى الغجرى. كانتا تتحركان بسرعة، كما لو كانتا منفصلتين. كان الغجرى يُخرج بيضًا آخر من يده المضمومة، ثم يجعله يختفى بين يديه فجأة. وكلما كانت بيضة على وشك الاختفاء، كان ينظر إلى مُوندُو ويغمز له.

"هوب! هوب!"

لكن أجمل مِا كان الغجرى يجيد فعله، أنه عندما يأخذ بيضتين شاهقتى البياض كانتا تأتيان إلى يديه من حيث لا ندرى؛ فيلفهما فى منديلين كبيرين أحمر وأصفر، ثم يرفع ذراعيه فى الهواء ويبقى ساكنًا للحظات. والجميع ينظر إليه وهو يحبس أنفاسه.

"انتـ.... باه!"

www.ibtesama.com

كان الغجرى يخفض ذراعيه وهو يفرد المنديلين، فتخرج يمامتان بيضاوان من المنديلين وتحلقان فوق رأسه قبل أن تحطا على كتفى العجوز دادى.

كان الناس يصيحون:

"أوه!"

ويصفقون بحرارة ويلقون مطرًا كثيفًا من النقود.

حين انتهى العرض، ذهب الغجرى لشراء سندويتشات وبيرة، فيما ذهب الجميع للجلوس على دَرج الهوتشكيس السوداء القديمة.

"لقد ساعدتنى كثيرًا، أيها الصغير"، قال الغجرى لموندُو. شرب القوزاقى البيرة وصاح بصوت عال:

"أهذا ابنك، يا غجرى؟"

"لا، إنه صديقى مُوندُو".

"إذن، فى صحتك، يا صديقى مُوندُو!"

كان ثملاً قليلاً.

"هل تجيد عزف الموسيقى؟"

"لا يا سيدى"، قال مُوندُو.

انفجر القوزاقى بالضحك.

"لا يا سيدى! لا يا سيدى!"؛ كان يكرر ذلك وهو يصيح، لكن مُوندُو لم يفهم ما الذى كان يضحكه.

بعد ذلك، تناول القوزاقى أوكورديونه الصغير وبدأ يعزف. لم تكن موسيقى حقيقية ما كان يعزفه،

www.ibtesama.com

إنما تتابع أصوات غريبة ورتيبة، تعلو وتنخفض، تارةً بسرعة، وأخرى ببطء. كان القوزاقى يعزف وهو يضرب برجله على الأرض، ويغنى بصوته الجهير وهو يكرر المقاطع اللفظية نفسها طوال الوقت.

"أى، أى، يايا، يايا، أيايا، يايا، أيايا، يايا، أى، أى!"؛ كان يغنى ويعزف على الأكورديون، وهو يتمايل، وفكر مُوندُو أنه يبدو فعلاً كدب كبير.

كان المارة يتوقفون برهةً للنظر إليه، يضحكون قليلاً ثم يواصلون طريقهم.

فيما بعد، حين أعتم الليل تمامًا، توقف القوزاقى عن العزف، وجلس فوق دَرج الهوتشكيس بجانب الغجرى. أشعلا سيجارتى تبغ أسود قوى الرائحة وبدآ يتحدثان وهما يشربان قنينات أخرى من البيرة. كانا يتحدثان عن أشياء بعيدة لم يكن مُوندُو يفهمها جيدًا، ذكريات حروب وأسفار. أحيانًا، كان العجوز دادى يتكلم أيضًا، فينصت مُوندُو لكلامه لأنه كان عن الطيور، واليمام والحمام الزاجل. كان دادى يروى، بصوته الرخيم، اللاهث قليلاً، قصص تلك الطيور التى كانت تطير فوق الريف لوقت طويل، حين تنساب من تحتها الأرض بأنهارها المتعرجة، والأشجار الصغيرة المغروسة على طول الطرقات كأنها أشرطة سوداء، والمنازل ذات الأسطح الحمراء والرمادية، والمزارع المحاطة بحقول من كل الألوان، والمروج، والتلال، والجبال التى تبدو كأكوام من الحجارة. حكى

www.ibtesama.com

الرجل العجوز أيضًا كيف أن الطيور تعود دائمًا إلى منازلها، من خلال قراءة المشهد الطبيعى كما لو كانت تقرأ خريطة، أو من خلال الإبحار بالنجوم، مثل البحارة أو الطيارين. كانت منازل الطيور شبيهة بأبراج، لكن بلا أبواب، فقط نوافذ ضيقة مباشرةً تحت السقف. وعندما يصبح الجو حارًا، كان يُسمع هديلها الذى يصَّاعد من الأبراج، فيُعرف أن الطيور قد عادت.

كان مُوندُو يسمع صوت دادى، وينظر إلى شعلة السجائر التى تلتمع فى الليل. حول الساحة، كانت السيارات تسير مصدرةً ضوضاء لطيفة كالماء، وأضواء المنازل تنطفئ الواحد تلو الآخر. كان الوقت متأخرًا للغاية، وأحس مُوندُو بنظره يتشوش لأنه موعد النوم. أرسله الغجرى لينام على المقعد الخلفى للهوتشكيس، وهناك قضى ليلته. عاد العجوز دادى إلى بيته، لكن الغجرى والقوزاقى لم يناما. بقيا جالسين على دَرج السيارة، حتى الصباح، هكذا، يشربان، ويدخنان، ويتحدثان.

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

كان مُوندُو يحب كثيرًا أن يقوم بذلك: أن يجلس على الشاطئ، وذراعاه حول ركبتيه، ينظر إلى الشمس وهى تبزغ. عند الساعة الرابعة وخمسين دقيقة كانت السماء صافية ورمادية، مع بعض سحب البخار فوق البحر فقط. لم تظهر الشمس بسرعة، لكن مُوندُو كان يشعر بقدومها، من الجانب الآخر للأفق، عندما تصعد ببطء كشعلة تتقد. فى البداية، كانت تظهر هالة شاحبة تبدأ فى توسيع بقعتها فى الهواء، وكنا نشعر فى أعماق أنفسنا بتلك الهزهزة الغريبة التى تجعل الأفق يختلج، كما لو كان هناك مجهود يُبذل. عندئذ يظهر القرص فوق الماء، ويرمى حزمة من الضوء فى العيون، ويبدو البحر والأرض بنفس اللون. بعد ذلك بلحظات تأتى الألوان الأولى، والظلال الأولى. لكن مصابيح المدينة تبقى مشتعلة، بأضوائها الشاحبة والمتعَبة، لأنه لم يتم التأكد تمامًا من أن النهار كان يبدأ.

كان مُوندُو ينظر إلى الشمس التى تصعد فوق البحر. ويغنى لنفسه، وهو يمايل رأسه وجذعه، كان

www.ibtesama.com

يكرر أنشودة القوزاقى: "أيايا، يايا، ياايايا، يايا...."

لم يكن هناك أحد على الشاطئ، فقط بضعة نوارس كانت تطفو على البحر. كان الماء بالغ الشفافية، رماديًا، أزرق ووورديًا، والحجارة شديدة البياض.

كان مُوندُو يفكر بالنهار الذى كان يطلع أيضًا فى البحر، للأسماك والسلطعونات. أفربما كان كل شىء يصبح ورديًا وصافيًا، فى عمق البحر، كما على سطح الأرض؟ تستيقظ الأسماك وتتحرك ببطء تحت سمائها الشبيهة بالمرآة، سعيدة وسط آلاف الشموس التى تتراقص، وتصعد أحصنة البحر على طول سيقان الطحالب لترى النور الجديد بشكل أفضل. حتى الأصداف تنفتح قليلاً لتسمح للنور بالدخول. كان مُوندُو يفكر كثيرًا بها، وينظر إلى الأمواج البطيئة التى كانت تسقط على أحجار الشاطئ مشعلةً للشَرر.

عندما ارتفعت الشمس قليلاً، وقف مُوندُو، لأنه أحس بالبرد. خلع ثيابه. كان ماء البحر أكثر عذوبة ودفئًا من الهواء، فغطس مُوندُو حتى رقبته. أحنى وجهه، وفتح عينيه لرؤية القاع. كان يسمع الصرير الرهيف للأمواج التى كانت تتدفق، وكان ذلك يُصدر موسيقى لا نعرفها على الأرض.

بقى مُوندُو طويلاً فى الماء، إلى أن أصبحت أصابعه بيضاء وبدأت ساقاه فى الارتعاش. عندئذ

www.ibtesama.com

عاد للجلوس على الشاطئ، ظهره مسنود على جدار الطريق، وانتظر، مغمض العينين، أن تلف حرارة الشمس جسده.

فوق المدينة، كانت التلال تبدو أقرب. كان النور الجميل يضيء الأشجار والواجهات البيضاء للفيلات. فقال مُوندُو من جديد:

"لابد أن أذهب لأرى هذا".

ثم ارتدى ملابسه وغادر الشاطئ.

كان يوم عيد، فلم يكن يخشى السياباكان. ففى أيام الأعياد، كان يمكن للكلاب والأطفال أن يتسكعوا بحرية فى الشوارع.

المشكلة، أن كل شىء كان مغلقًا. لم يأت المزارعون لبيع خضرهم، وكانت الستائر الحديدية للمخابز مسدلة. كان مُوندُو جائعًا. وهو يمر أمام محل مثلجات اسمه "كرة الثلج"، اشترى مثلجات بالفانيليا، أكلها وهو يمشى فى الشوارع.

الآن، كانت الشمس تضىء الأرصفة تمامًا. لكن الناس لم يظهروا. لابد أنهم كانوا متعبين. أحيانًا، كان هناك مَن يأتى، فيحييه مُوندُو، لكنه كان ينظر إليه باستغراب لأن شعره ورموشه كانوا بيضًا بالملح ووجهه مُسمرًا من الشمس. ربما كان الناس يظنونه متسولاً.

كان مُوندُو ينظر إلى واجهات المحلات وهو يلحس المثلجات. فى عمق إحدى الواجهات- حيث كان الضوء مشتعلاً- كان هناك سرير كبير من الخشب

www.ibtesama.com

الأحمر، عليه ملاءة ووسادة مطبوعة بالورود، كما لو كان أحدهم سيستلقى عليها وينام. أبعد قليلاً، كانت هناك واجهة مليئة بمواقد الطبخ شديدة البياض، وشواية فيها دجاجة من الكارتون كانت تدور ببطء. كان كل ذلك غريبًا. تحت باب أحد المحلات، عثر مُوندُو على صحيفة مصورة، فجلس على دكة ليطالعها.

كانت الصحيفة تحكى قصة بصور ملونة تمثل امرأة شقراء جميلة وهى تطبخ وتلعب مع ولديها. كانت قصة طويلة، وكان موندو يطالعها بصوت عال، وهو يقرب الصور من عينيه كى تمتزج الألوان.

"يُدعى الولد جاك والبنت كامى. أمهما فى المطبخ تعد أنواعًا كثيرة من المأكولات الطيبة، خبز، ودجاج محمر، وحلويات. سألتهما: ماذا تريدان أن تأكلا اليوم؟ من فضلك، أعدى لنا تورتة كبيرة من الفراولة، قال جاك. لكن أمهما قالت إنه لا توجد لديهم فراولة، ليس سوى التفاح. فقام جاك وكامى بتقشير التفاح وقطعاه إلى قطع صغيرة، ثم أعدت أمهما التورتة. أدخلت التورتة إلى الفرن لتنضج. كانت الرائحة زكية فى كل أنحاء المنزل. حين نضجت التورتة، وضعتها أمهما فوق الطاولة وقطعتها إلى شرائح. أكل جاك وكامى التورتة اللذيذة وهما يشربان الشيكولاتة الساخنة. ثم قالا: لم نأكل أبدًا تورتة لذيذة بهذا الشكل!"

www.ibtesama.com

عندما انتهى مُوندُو من مطالعة القصة، خبأ الصحيفة المصورة وسط شجيرات الحديقة، ليعيد مطالعتها من جديد فى وقت لاحق. كان يود أن يشترى صحيفة مصورة أخرى، قصة أكيم فى الغابة، مثلاً، لكن كشك الجرائد كان مغلقًا.

وسط الحديقة، كان أحد متقاعدى البريد نائمًا على دكة. بجانب المتقاعد، على الدكة، كان ثمة جريدة مفتوحة وقبعة.

حين صعدت الشمس فى السماء، أصبح النور أكثر نعومة. بدأت السيارات تتحرك فى الشوارع وهى تطلق الأبواق. فى الطرف الآخر من الحديقة، قرب المخرج، كان ولد صغير يلعب بدراجة حمراء ثلاثية العجلات. توقف مُوندُو بجانبه.

"أهذه دراجتك؟"؛ سأل.

"نعم"، قال الولد الصغير.

"هل تعيرها لى؟"

شد الولد الصغير على المقود بكل قواه.

"لا! لا! اذهب!"

"ما اسم دراجتك؟"

طأطأ الولد الصغير رأسه دون أن يجيب، ثم قال بسرعة:

"مينى".

"اسم جميل جدًا"، قال مُوندُو.

www.ibtesama.com

نظر ثانيةً إلى الدراجة، الهيكل المطلى بالأحمر، المقعد الأسود، المقود والرفرف من الكروم. شغَّل الجرس مرةً أو اثنتين، لكن الولد الصغير أبعده وغادر وهو يدير الدواسات.

فى ساحة السوق، لم يكن هناك الكثير من الزبائن. كان الناس يذهبون إلى القداس فى مجموعات صغيرة، أو يتجولون باتجاه البحر. كانت أيام الأعياد هى التى يود فيها مُوندُو أن يلتقى بشخص ما ليسأله:

"هل تريد أن تتبنانى؟"

لكن ربما فى هذه الأيام تحديدًا، لم يكن أحد ليسمعه.

كان مُوندُو يدخل إلى بهو المبانى، بصورة عشوائية. يتوقف لينظر إلى صناديق البريد الفارغة، ولوحات الحرائق. كان يضغط على زر الإنارة المؤقتة ويستمع للحظات إلى التيك تاك، إلى أن ينطفئ الضوء. فى آخر البهو، كانت هناك الدرجات الأولى للسُّلم، والسياج الخشبى الملتمع ومرآة كبيرة باهتة مؤطرة بتماثيل من الجبس. كان مُوندُو يرغب فى تجريب المصعد، لكنه لم يجرؤ، لأن الأطفال ممنوعون من اللعب بالمصعد.

دخلت امرأة شابة إلى المبنى. كانت جميلة، بشعر كستنائى متموج وفستان فاتح كان يحف من حولها. كانت رائحتها زكية.

www.ibtesama.com

خرج مُوندُو من ركن الباب، فانتفضت فزعًا.

"ماذا تريد؟"

"هل يمكننى أن أصعد معك فى المصعد؟"

ابتسمت المرأة الشابة بلطف.

"بالتأكيد، حسنا! تعال!"

كان المصعد يتحرك قليلاً تحت الأقدام كالسفينة.

"إلى أين تذهب؟"

"إلى الأعلى تمامًا".

"إلى السادس؟ أنا أيضًا".

كان المصعد يصعد ببطء. ومُوندُو ينظر إلى الأسقف التى كانت تتراجع. كانت الأبواب تهتز، وعند كل طابق كانت تُسمع طقطقة غريبة. كان يُسمع أيضًا صفير الكابلات فى قفص المصعد.

"هل تسكن هنا؟"

نظرت المرأة الشابة إلى مُوندُو بفضول.

"لا سيدتى، أنا أتجول".

"حقا؟"

كانت المرأة الشابة تنظر إلى مُوندُو باستمرار. كانت عيناها هادئتين وحنونين، نديتين قليلاً. فتحت حقيبة يدها وأعطت مُوندُو قطعة حلوى مغلفة فى ورق شفاف.

www.ibtesama.com

كان مُوندُو ينظر إلى الطوابق تمر ببطء شديد.

"إنه عال، كأننا فى طائرة"، قال مُوندُو.

"هل ركبت يومًا الطائرة؟"

" أوه لا، يا سيدتى، ليس بعد. مؤكد أنها جميلة".

ضحكت المرأة الشابة قليلاً.

"أتعلم! إنها أسرع من المصعد".

"وتصعد أعلى منه أيضا!"

"نعم، أعلى بكثير!"

وصل المصعد بأنات وارتجاجة. خرجت المرأة الشابة.

"ألن تنزل؟"

"لا"، قال مُوندُو، "سأعود إلى الأسفل فورًا".

"حقًا؟ كما تريد. للنزول، اضغط على الزر ما قبل الأخير، هنا. انتبه ألا تلمس الزر الأحمر، إنه جرس إنذار".

قبل أن تغلق الباب، ابتسمت له مرةً أخرى.

"رحلة سعيدة!"

"إلى اللقاء!"، قال مُوندُو.

عندما خرج من المبنى، لاحظ أن الشمس كانت عالية فى السماء، تقريبًا فى مكانها عند الثانية عشرة. كانت الأيام تمر بسرعة، من النهار إلى الليل. وإذا لم ننتبه، كانت تمضى بسرعة أكبر. لهذا السبب كان الناس دائمًا فى حالة استعجال. كانوا يتعجلون

www.ibtesama.com

القيام بما ينبغى القيام به قبل أن تهبط الشمس من جديد.

عند الثانية عشرة، كان الناس يمشون بخطى سريعة فى شوارع المدينة، يخرجون من المنازل، يركبون السيارات، ويصفقون أبوابها. لكَم كان مُوندُو يود أن يقول لهم: "انتظروا، انتظرونى!"؛ لكن أحدًا لم يكن لينتبه إليه.

كان قلب موندو يخفق بسرعة كبيرة وبقوة كبيرة، فتوقف هو أيضًا، فى زاوية. بقى ساكنًا، مكتوف اليدين، ينظر إلى حشد الناس الذى كان يسير فى الشارع. لم يعد يبدو عليهم الإرهاق كما فى الصباح. كانوا يمشون بسرعة، يصدرون صخبًا بأقدامهم، وهم يتكلمون ويضحكون بصوت عال.

بينهم، كانت امرأة عجوز تتقدم ببطء على الرصيف، وظهرها محنى، دون أن تنظر إلى أحد. كان جرابها مليئًا بالطعام، وثقيلاً إلى حد أنه كان يلمس الأرض مع كل خطوة. اقترب منها مُوندُو وساعدها على حمل جرابها. كان يسمع تنفس المرأة العجوز وهى تنفخ خلفه.

توقفت المرأة العجوز أمام مبنى رمادى، وصعد مُوندُو السُّلم معها. فكر بأن المرأة العجوز ربما تكون جدته، أو عمته، لكنه لم يكلمها، لأنها كانت صماء قليلاً. فتحت المرأة العجوز بابًا فى الطابق الرابع، وذهبت إلى مطبخها لتقطع قطعة من كعك الأبازير

www.ibtesama.com

البائت. أعطتها لُموندُو، فلاحظ أن يدها كانت ترتجف بشدة. صوتها أيضًا كان يرتجف حين قالت له:

"بارك الله فيك".

أبعد قليلاً، فى الشارع، شعر مُوندُو أنه أصبح صغيرًا جدًا. كان يمشى ملاصقًا للحائط، وأصبح الناس من حوله فارهين كالأشجار، بوجوه بعيدة، كشرفات العمارات. تسلل مُوندُو وسط أولئك العمالقة، الذين كانوا يسيرون بخطى واسعة جدًا. كان يتجنب نساء فارهات كأبراج الكنائس، يرتدين فساتين شاسعة منقطة، ورجالاً عريضين كالجروف، يرتدون بذلات زرقاء وقمصانًا بيضاء. قد يكون ضوء النهار هو السبب فى ذلك، الضوء الذى يُكبر الأشياء ويُصغر الظلال. كان مُوندُو يتسلل بينهم، ولم يره سوى من كانوا ينظرون إلى الأسفل. لم يخف، سوى عند عبوره الشارع أحيانًا. لكنه كان يبحث عن شخصٍ ما، فى كل مكان بالمدينة، بالحدائق، وعلى الشاطئ. لم يكن يعلم عمَّن كان يبحث، ولا لِمَ يبحث عنه، فقط شخصٌ ما، يبحث عنه هكذا، ببساطة ليقول له بسرعة ويقرأ فورًا الإجابة فى عينيه:

"هلا تبنَّيتنى من فضلك؟"

www.ibtesama.com

فى تلك الفترة تقريبًا تعرف مُوندُو على تى شين، حين كانت النهارات جميلة والليالى طويلة وحارة. كان مُوندُو قد خرج من مخبئه الليلى، أسفل الرصيف. كانت الرياح الدافئة تثير التراب، رياح جافة تجعل الشعر مُكهربًا وتحرق غابات البلوط. على التلال، فوق المدينة، رأى مُوندُو دخانًا كثيفًا أبيض ينتشر فى السماء.

نظر مُوندُو إلى التلال التى كانت الشمس تضيئها، واتَّبع الدرب المؤدى إليها. كان دربًا متعرجًا يتحول كلما ابتعد إلى سُلم بدرجات واسعة من الأسمنت المربع. على جانبى الدرب، كان ثمة مجارٍ مائية مليئة بأوراق أشجار ميتة وقصاصات ورق.

كان مُوندُو يحب كثيرًا صعود السلالم. كانت تتعرج عبر التلال، بلا استعجال، كأنها لا تذهب إلى أى مكان. على طول الدرب، كان ثمة جدران عالية من الحجر تعلوها شظايا زجاج، بحيث لم يكن ممكنًا أن نعرف أين نحن. صعد مُوندُو الدرجات ببطء وهو

www.ibtesama.com

ينظر ما إذا كان ثمة شىء مثير للاهتمام فى المجارى المائية. فأحيانًا يمكن العثور على قطعة نقدية، مسمار صدئ، صورة، أو ثمرة فاكهة غريبة.

كلما كان يتم الصعود، كانت المدينة تصبح مسطحة، بكل مستطيلات المبانى والخطوط المستقيمة للطرقات حيث كانت تسير السيارات الحمراء والزرقاء. البحر أيضًا يصبح مسطحًا، تحت التل، يلتمع كالصفيح. وكان مُوندُو يلتفت من حين لآخر ليرى كل ذلك بين أغصان الأشجار وأعلى جدران الفيلات.

لم يكن هناك أحد على السلالم، باستثناء مرة واحدة، حيث كان ثمة قط مخطط يقعى فى المجارى المائية، وهو يأكل بقايا لحم محفوظ فى علبة صدئة. تمدد القط، وأذناه متدليتان، ونظر إلى مُوندُو ببؤبؤيه الدائريين فى عينيه الصفراوين.

مر مُوندُو بجانبه دون أن يقول شيئًا. شعر بالبؤبؤين السوداوين وهما ينظران إليه باستمرار، إلى أن دار عند المنعطف.

كان مُوندُو يصعد بلا أى صوت. يضع قدميه بهدوء شديد، متجنبًا الغصون والبذور، ويتسلل بصمت شديد، كالظل.

لم تكن تلك السلالم منطقية. فتارةً كانت تنحدر بدرجات صغيرة قصيرة وعالية تقطع الأنفاس، وتارةً أخرى متوانية، تمتد ببطء بين المساكن والأراضى

www.ibtesama.com

الغامضة. بل كان يبدو أحيانًا كأنها تريد الهبوط من جديد.

لم يكن مُوندُو متعجلاً. كان هو أيضًا يمشى ويتعرج، من حائط إلى آخر. كان يتوقف للنظر فى المجارى المائية، أو لينتزع أوراقًا من الأشجار. أخذ ورقة من شجرة الفلفل وهرسها بين أصابعه ليشم الرائحة التى تخز الأنف والعينين. قطف زهور شجرة زهر العسل وامتص القطرة الصغيرة المسكرة التى كانت معقودة فى كأس الزهرة. وأحيانًا كان يُصدر موسيقى بنصل عشبة يمررها على شفتيه.

كان مُوندُو يحب المشى هنا، وحيدًا، عبر التل. كلما كان يصعد، كان ضوء الشمس يصبح أكثر اصفرارًا، وأكثر عذوبة، كما لو كان يخرج من أوراق النباتات وأحجار الجدران القديمة. كان الضوء قد طبع الأرض أثناء النهار، والآن كان يخرج، ينشر دفئه، وينفخ سُحبه.

لم يكن هناك أحد على التل. لابد لأنها كانت نهاية الظهيرة، وأيضًا لأن ذلك الحى كان مهْجورًا تقريبًا. لم تكن الفيلات المتوارية خلف الأشجار حزينة، لكنها كانت تبدو كأنها نائمة، بأسيجتها الصدئة وشبابيكها المقشرة التى لا تتغلق جيدًا.

كان مُوندُو يسمع صوت الطيور فى الأشجار، والطقطقات الخفيفة للأغصان فى الرياح. كان هناك بالأخص صوت جرادة، صفير صَارٌ كان ينتقل

www.ibtesama.com

باستمرار فبدا كأنه يتقدم مع مُوندُو فى الوقت نفسه. كان يبتعد قليلاً للحظات، ثم يعود من جديد، قريبًا جدًا إلى حد أن مُوندُو كان يلتفت محاولاً رؤية الحشرة. لكن الصفير كان يختفى، ويظهر من جديد أمامه، أو فى الأعلى تمامًا، على قمة الحائط. كان مُوندُو يناديها بدوره، من خلال الصفير فى ورقة حشيش. لكن الجرادة لم تظهر. كانت تفضل البقاء مختبئة.

فى أعلى التل تمامًا، وبفعل الحرارة، ظهرت السُّحُب. كانت تمر بالقرب من الشمس، فيشعر مُوندُو بالظل على وجهه. كانت الألوان تتغير، تتحرك، والضوء الأصفر يشتعل، وينطفئ.

منذ مدة طويلة ومُوندُو يحاول الوصول إلى أعلى التل. كان كثيرًا ما ينظر إليه من مخابئه على شاطئ البحر، بكل أشجاره وضوئه الجميل الذى يلتمع على واجهات الفيلات ويشع فى السماء كالهالة. لهذا السبب كان يريد الصعود على التل، لأن درب السلالم بدا كأنه يؤدى إلى السماء والضوء. كان حقًا تلاً جميلاً، فوق البحر مباشرة، بالقرب من السُّحُب، وكان مُوندُو ينظر إليه مدة طويلة، فى الصباح، حين يكون لايزال رماديًا وبعيدًا، وفى المساء، وحتى فى الليل، حين يتلألأ بكل الأضواء الكهربائية. الآن كان سعيدًا بالصعود فوقه.

وسط أكداس الأوراق الميتة، وعلى طول الجدران، كانت السمادل تفر. كان مُوندُو يحاول مباغتتها،

www.ibtesama.com

بالاقتراب منها بلا صوت؛ رغم ذلك كانت تسمعه، وتركض للاختباء فى الشقوق.

كان مُوندُو ينادى السمادل، بالتصفير بين أسنانه. كان يهفو للحصول على سمندل. كان يعتقد أنه يستطيع تدجينه ووضعه فى جيبه للتنزه. كان سيمسك ببعض البعوض لإطعامه وحين يجلس فى الشمس، على الشاطئ، أو على صخور الرصيف، كان سيخرج من جيبه ويصعد فوق كتفه. كان سيبقى ساكنًا، ويدفع حلقه إلى الخفقان، لأن هذه الطريقة هى التى تموء بها السمادل.

بعد ذلك، وصل مُوندُو أمام بيت الضوء الذهبى. كان مُوندُو قد أطلق عليه هذا الإسم أول مرة دخله فيها، ومنذ ذلك الحين بقى هذا الإسم. كان بيتًا قديمًا جميلاً، على الطراز الإيطالى، مغطًى بالجبس الأصفر ـ البرتقالى، بنوافذ عالية ألواحها مخلوعة، وكرمة برية تغزو دَرَج المدخل. حول البيت، كانت ثمة حديقة صغيرة، لكن حدودها لم تكن مرئية، من فرط غزو العليق والأعشاب الضارة لها. دفع مُوندُو الباب الحديدى، ومشى على ممر الحصى المؤدى إلى البيت، بلا صوت. كان البيت الأصفر بسيطًا، بلا زينة من الجص ولا أقنعة غريبة. لكن مُوندُو كان يعتقد أنه لم ير قَط بيتًا بهذا الجمال.

فى الحديقة الفوضوية، أمام البيت، كانت هناك نخلتان جميلتان أعلى من السقف، وحين كانت الرياح تهب قليلاً، كان سعفهما يحتك بالميازيب والقرميد.

www.ibtesama.com

حول النخلتين، كانت الشجيرات كثيفة، معتمة، يتخللها عُليق بنفسجي يزحف على الأرض كالأفعى.

ما كان جميلاً بالأخص، هو الضوء الذى يلف البيت. بسببه كان مُوندُو قد أعطى ذلك الاسم للبيت على الفور، بيت الضوء الذهبى. كان لضوء شمس نهاية الظهيرة لون ناعم وهادئ، لون ساخن كأوراق الخريف أو الرمال، يغرقك، يسكرك. وفيما كان يتقدم ببطء على ممر الحصى، أحس مُوندُو بالضوء يربت على وجهه. شعر برغبة فى النوم، كان قلبه يخفق ببطء، وبالكاد يلتقط أنفاسه.

بدأ صفير الجرادة يطن من جديد وبقوة، كما لو كان يخرج من شجيرات الحديقة. توقف مُوندُو ليسمعه، ثم سار ببطء نحو البيت، وهو على أهبة الاستعداد للهرب ما إن يظهر كلبٌ ما. لكن لم يكن هناك أحد. كانت نباتات الحديقة، من حوله، ساكنة، وأوراقها مثقلة بالحرارة.

دخل مُوندُو إلى الأجمة. على يديه وقدميه، تسلل تحت أغصان الجنبات، وأبعد العُليق. جلس فى مخبأ، تحت غطاء الشجيرات، ومن هناك، أخذ يتأمل البيت الأصفر.

كان الضوء يميل على واجهة البيت بشكل غير محسوس تقريبًا. لم يكن يُسمع أى صوت، باستثناء صوت الجرادة والهمس الحاد للبعوض الذى كان يتراقص حول شعر مُوندُو. جالسًا على الأرض، تحت

www.ibtesama.com

أوراق شجرة الغار، ظل مُوندُو يحدق بباب البيت، ودرجات السلم شبه الدائرية المؤدية إلى دَرج المدخل. كان العشب قد نما عند التقاء الدرجات. بعد فترة قصيرة، استلقى مُوندُو متكورًا على الأرض، ورأسه مسنودة على كوعه.

جميلٌ النوم هكذا، أسفل شجرة ذات رائحة قوية، غير بعيد عن بيت الضوء الذهبى، محاطًا بالدفء والسلام، والصوتِ الصَّار للجرادة التى كانت تذهب وتجىء بلا توقف. حين كنتَ نائمًا، يا مُوندُو، لم تكن هنا. ذهبتَ إلى مكان آخر، بعيدًا عن جسدك. تركتَ جسدك نائمًا على الأرض، على بُعد بضعة أمتار عن ممر الحصى، ورحتَ تهيم فى مكان آخر. هذا ما كان غريبًا. بقى جسدك على الأرض، يتنفس بهدوء، فيما كانت الرياح تدفع ظلال السُّحُب فوق وجهك مغمض العينين. كان البعوض المخطط يتراقص حول خديك، والنمل الأسود يستكشف ثيابك ويديك. وكان شعرك يهتز قليلاً فى ريح المساء. لكن أنت، لم تكن هنا. كنت فى مكان آخر، ذهبت فى الضوء الحار للبيت، فى رائحة أوراق الغار، فى النداوة التى كانت تخرج من فتات الأرض. كانت العناكب ترتعش فوق خيوطها، لأنه كان وقت استيقاظها. وكانت السمادل العجوز السوداء والصفراء تتسلل خارج شقوقها، على حائط البيت، وتنظر إليك، وهى معلقة من أرجلها ذات الأصابع المتباعدة. كان الجميع ينظرون إليك، لأن عينيك كانتا مغمضتين. وفى مكان ما فى الطرف الآخر من

www.ibtesama.com

الحديقة، بين جبل من العُليق ودغل من أشجار البهشية، بالقرب من شجرة سرو عجوز جافة، كانت الحشرة القائدة تُصدر، بلا توقف، صوت منشار، لتكلمك، لتناديك. لكنك لم تكن لَتسمعها، كنت قد ذهبت بعيدًا.

"مَن أنت؟"؛ سأل الصوت الحاد.

آنئذ، كانت ثمة امرأة، أمام مُوندُو، لكنها كانت قصيرة إلى حد أن مُوندُو اعتقد للوهلة الأولى أنها طفلة. كان شعرها الأسود مقصوصًا بشكل دائرى حول وجهها، وكانت تلبس مئزرًا طويلاً أزرق ـ رماديًا.

كانت تبتسم.

"مَن أنت؟"

وقف مُوندُو، كان أقصر منها بقليل. كان يتثاءب.

"هل كنت نائمًا؟"

"معذرة"، قال مُوندُو. "دخلت إلى حديقتك، وكنت متعبًا قليلاً، فنمت بعض الشيء. سأذهب الآن".

"لماذا تريد أن تذهب فورًا؟ ألا تعجبك الحديقة؟"

"بلى، إنها جميلة جدًا"، قال مُوندُو. كان يبحث عن ملامح الغضب على وجه المرأة القصيرة. لكنها كانت لا تزال مبتسمة. كان لعينيها المغوليتين تعبير غريب، كالقطط. حول عينيها وفمها، كانت هناك تجاعيد عميقة، فاعتقد مُوندُو أن المرأة عجوز.

"تعال لترى البيت أيضًا"، قالت.

www.ibtesama.com

صعدت السلَّم شبه الدائرى وفتحت الباب.

"هيا تعال!"

دخل مُوندُو خلفها. كانت ثمة غرفة كبيرة شبه فارغة، مضاءة من جوانبها الأربعة بنوافذ عالية. فى قلب الغرفة، كانت هناك طاولة من الخشب ومقاعد، وفوق الطاولة كانت ثمة صينية ملتمعة عليها إبريق شاى أسود وأقداح. بقى مُوندُو ساكنًا على العتبة، وهو ينظر إلى الحجرة والنوافذ. كانت النوافذ مصنوعةً من مربعات صغيرة من الزجاج الخشن، والضوء الذى يدخل أكثر دفئًا وذهبيًا. لم يكن مُوندُو قد رأى مطلقًا ضوءًا بهذا الجمال.

كانت المرأة القصيرة تقف أمام الطاولة وتصب الشاى فى الأقداح.

"هل تحب الشاى؟"

"نعم"، قال مُوندُو.

"إذن، تعال واجلس هنا".

جلس مُوندُو ببطء على حافة المقعد، وبدأ فى الشرب. كان الشاى أيضًا بلون ذهبى، ويحرق الشفاه والحلق.

"إنه ساخن"، قال.

شربت المرأة القصيرة رشفة بلا صوت.

"لم تقل لى مَن أنت"، قالت. كان صوتها كموسيقى عذبة.

www.ibtesama.com

"أنا مُوندُو"، قال مُوندُو.

كانت المرأة القصيرة تنظر إليه وهى تبتسم. وكانت تبدو أقصر بكثير فوق الكرسى.

"أنا تى شين".

"هل أنتِ صينية؟"، سأل مُوندُو. هزت المرأة القصيرة رأسها.

"أنا فيتنامية، لست صينية".

"أهو بعيدٌ بلدك؟"

"نعم، بعيدٌ جدًا جدًا".

شرب مُوندُو الشاى وزال تعبه.

"وأنت، مِن أين أتيت؟ لستَ من هنا، أليس كذلك؟"، لم يكن مُوندُو يعرف ما كان ينبغى قوله.

"لا، لستُ من هنا"، قال. أبعد خصلات شعره وهو يطأطئ رأسه. لم تتوقف المرأة القصيرة عن الابتسام، لكن عينيها الضيقتين أصبحتا فجأةً قلقتين قليلاً.

"ابق قليلاً"، قالت. "لا تريد الذهاب فورًا، أليس كذلك؟"

"لم يكن ينبغى لى الدخول إلى حديقتك"، قال مُوندُو. "لكن الباب كان مفتوحًا، وكنتُ مرهقًا قليلاً".

"أحسنتَ بالدخول"، قالت تى شين ببساطة. "كما ترى، لقد تركتُ الباب مفتوحًا لك".

www.ibtesama.com

"إذن، كنتِ تعلمين أنى سآتى؟" قال مُوندُو.
وطمأنته هذه الفكرة.

أومأت تى شين برأسها بالإيجاب، ومدت لمُوندُو علبةً من الصفيح مليئةً بحلوى اللوز والسكر.

"هل أنتَ جائع؟"

"نعم"، قال مُوندُو. كان يقضم الحلوى وهو ينظر إلى النوافذ الكبيرة التى كان يدخل منها الضوء.

"هذا جميل"، قال. "ما الذى يبعث بكل هذا الذهب؟"

"إنه ضوء الشمس"، قالت تى شين.

"إذن، أنتِ ثرية؟"

ضحكت تى شين. "هذا الذهب ليس ملك أحد".

كانا ينظران إلى الضوء الجميل كما لو فى حلم.

"إنه هكذا فى بلدى"، قالت تى شين بصوت خفيض. "حين تغرب الشمس، تصبح السماء هكذا، صفراء تمامًا، مع سحب صغيرة سوداء خفيفة جدًا، كأنها ريش طيور".

ملأ الضوء الذهبى الغرفة كلها، وأحس مُوندُو أنه أصبح أكثر هدوءًا وقوة، نفس إحساسه بعد ما شرب الشاى الساخن.

"هل يعجبك بيتى؟"، سألت تى شين.

"نعم يا سيدتى"، قال مُوندُو. كانت عيناه تعكسان لون الشمس.

www.ibtesama.com

"إذن، فهو بيتُك أنت أيضًا، متى شئت".

هكذا، كان مُوندُو قد تعرف على تى شين وبيت الضوء الذهبى. كان قد بقى مدة طويلة فى الغرفة الكبيرة وهو ينظر إلى النوافذ. وبقى الضوء إلى أن اختفت الشمس تمامًا خلف التلال. حتى فى تلك اللحظة، كانت جدران الغرفة مشبعةً به للغاية، فبدا كأنه لا يمكن أن ينطفئ أبدًا. ثم جاء الظل، فأصبح كل شىء رماديًا، الجدران، النوافذ، وشعر مُوندُو. جاء البرد أيضًا. نهضت المرأة القصيرة لتشعل مصباحًا، ثم أخذت مُوندُو إلى الحديقة لرؤية الليل. أعلى الأشجار، كانت النجوم تتلألأ، وكان ثمة هلال صغير.

فى تلك الليلة، نام مُوندُو على وسائد، فى عمق الغرفة الكبيرة. نام هناك فى الليالى الأخرى أيضًا. لأنه كان يحب كثيرًا ذلك البيت. أحيانًا، حين تكون الليلة حارة، كان ينام فى الحديقة، تحت شجرة الغار، أو فوق درجات المدخل، أمام الباب. لم تكن تى شين تتكلم كثيرًا، وربما لهذا السبب كان يحبها. فمنذ أن سألته عن اسمه، ومن أين أتى، أول مرة، لم تطرح عليه أى سؤال. كانت تأخذه فحسب من يده وتريه أشياء ممتعة، فى الحديقة أو داخل البيت. أرته الحصى الذى يتخذ أشكالاً ورسومات غريبة، أوراق الأشجار ذات العروق النحيلة، البذور الحمراء للنخلتين، والزهور البيضاء والصفراء الصغيرة التى كانت تنمو بين الأحجار. كانت تأتى له فى يديها بجعران أسود، أم أربع وأربعين، وكان مُوندُو يعطيها

www.ibtesama.com

فى المقابل أصدافًا وريش نوارس كان قد عثر عليها على شاطئ البحر.

كانت تى شين تطعمه أرزًا وقدح خُضراوات حمراء وصفراء نصف مطهية، ودائمًا شايًا ساخنًا فى الأقداح البيضاء الصغيرة. وأحيانًا، حين يكون الليل شديد العتمة، كانت تى شين تتناول كتابًا مصورًا وتروى له قصةً قديمة. كانت قصة طويلة جرت أحداثها فى بلد مجهول فيه مبانٍ ذات سقوف مدببة، وتنانين وحيوانات تتكلم مثل البشر. كانت القصة فاتنةً، إلى حدٍّ أن مُوندُو لم يكن لَيستطيع سماعها حتى النهاية. كان ينام، وتغادر المرأة القصيرة بلا صوت، بعد أن تطفئ المصباح. كانت تنام فى الطابق العلوى، فى غرفة ضيقة. فى الصباح، حين استيقظت، ذات صباح، كان مُوندُو قد رحل.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

كانت هناك حرائق على أغلبية التلال، لأن الصيف كان على الأبواب. فى النهار، كانت تُرى أعمدة كبيرة من الدخان الأبيض تبقع السماء، وفى الليل، كانت هناك ومضات حمراء مقلقة، مثل شعلات السجائر. كان مُوندُو كثيرًا ما ينظر نحو الحرائق، حين يكون على الشاطئ، أو وهو يصعد درب السلالم إلى بيت تى شين. ذات مساء، عاد إلى البيت مبكرًا على غير العادة، ليقتلع الأعشاب الضارة التى كانت تنمو حول البيت، وحين سألته تى شين عما يفعل، قال:

"هذا كى لا يتمكن الحريق من الوصول إلى هنا".

الآن، وقد أصبح ينام كل ليلة تقريبًا فى بيت الضوء الذهبى، أو فى الحديقة، قَل خوفه من الشاحنة الرمادية السياباكان. لم يعد يذهب إلى المخابئ وسط الصخور، بالقرب من الرصيف. وما إن كان النهار يطلع حتى يذهب للسباحة فى البحر. كان يحب كثيرًا البحر الشفاف للصباح، والصوت الغريب

www.ibtesama.com

للأمواج حين يكون رأسه تحت الماء، وصيحات النوارس فى السماء. ثم يذهب إلى السوق ليفرغ بعض الصناديق، ويجمع الخضراوات والفاكهة. كان يأخذها بعد ذلك إلى تى شين لتُعد طعام العشاء.

بعد الثانية عشرة، ذهب للتحدث قليلاً مع الغجرى، الذى كان يجلس حالمًا على دَرج عربته. لم يتكلما كثيرًا، لكن الغجرى بدا سعيدًا برؤيته. فيما بعد، أتى القوزاقى، وهو يحمل قنينة كحول. كان ثملاً إلى حدٍّ ما كالعادة، وصرخ بصوته الجهير:

"هاى! صديقى مُوندُو!"

كانت هناك أيضًا امرأةٌ تأتى أحيانًا، امرأة بدينة بوجه أحمر وعينين فاتحتين للغاية، كانت تعرف قراءة الطالع فى كفوف أيدى المارة؛ لكن مُوندُو كان يغادر لدى وصولها، لأنه لم يكن يحبها.

كان يذهب بحثًا عن العجوز دادى. ولم يكن من السهل العثور عليه، لأن الرجل العجوز كان كثيرًا ما يُغير مكانه. كان جالسًا على أوراق جريدة، وبجانبه حقيبته الصفراء الصغيرة المليئة بالثقوب، وكان المارة يظنون أنه يتسول. عامةً، كان مُوندُو يعثر عليه فى أفنية الكنائس، ويجلس بجواره. كان مُوندُو يحب كثيرًا كلامه، لأنه كان يعرف قصصًا كثيرة عن اليمام والحمام الزاجل. كان يتحدث عن بلده، بلد فيه أشجار كثيرة، وأنهار هادئة، وحقول شديدة الخضرة، وسماء عذبة. بجوار المنازل، هناك تلك الأبراج المدببة، المغطاة

www.ibtesama.com

بالقرميد الأحمر والأخضر، حيث يعيش اليمام والحمام. كان العجوز دادى يتكلم بصوته البطىء، وكان ذلك كتحليق الطيور فى السماء، تلك الطيور التى تتردد وتدور حول القرى. لم يكن يتكلم عن ذلك مع أى شخص آخر.

وحين كان مُوندُو يجلس فى أفنية الكنائس مع العجوز دادى، كان الناس يندهشون قليلاً. كانوا يتوقفون لينظروا إلى الولد الصغير والرجل العجوز مع يمامتيه، ويمنحون نقودًا أكثر لأنهم تأثروا بالمشهد. لكن مُوندُو لم يكن يبقى مدةً طويلةً فى التسول، لأنه غالبًا ما تكون ثمة امرأة أو اثنتان لا تحبان رؤية ذلك، وتبدآن فى طرح الأسئلة. فضلاً عن ذلك، كان لابد من الحذر من شاحنة السياباكان. فلو كانت الشاحنة الرمادية قد مرت من هناك فى ذلك الحين، لكان الرجال ذوو الملابس الرسمية قد خرجوا وأخذوه معهم، وربما كانوا ليأخذوا العجوز دادى ويمامتيه.

وذات يوم، هبت رياح قوية، فقال الغجرى لمُوندُو:

"فلنذهب لرؤية معركة طائرات الورق".

كانت معارك طائرات الورق لا تتم إلا أيام الأحد وفى الرياح الشديدة. وصلا إلى الشاطئ فى ساعة مبكرة، ورغم ذلك كان الأطفال قد وصلوا قبلهما بطائراتهم الورقية. كانت من كل الأنواع وبكل الألوان، طائرات ورق ذات شكل معين، أو مربع، طائرات أحادية السطح، أو ذات سطحين، مرسوم عليها رءوس حيوانات. لكن أجمل طائرة ورق كانت لرجل فى

www.ibtesama.com

الخمسين من عمره، كان فى طرف الشاطئ. كانت كفراشة كبيرة صفراء وسوداء بأجنحة عريضة. وحين أطلقها، توقف الجميع عن الحركة لرؤيتها. حلقت الفراشة الكبيرة الصفراء والسوداء قليلاً على بُعد بضعة أمتار عن البحر، ثم شد الرجل الخيط فشبت الطائرة، واندفعت الريح فى أجنحتها فبدأت فى الارتفاع. صعدت طائرة الورق فى السماء، بعيدًا جدًا فوق البحر. كان قماش أجنحتها يصطفق فى الرياح التى كانت تهب. على الشاطئ، لم يعد الرجل يتحرك تقريبًا. كان يَكِر بكرة الخيط، ونظره مثبت على الفراشة الصفراء والسوداء التى تتأرجح فوق البحر. من حين إلى آخر، كان الرجل يشد الخيط، يلفه على البكرة، فتصعد طائرة الورق إلى أعلى أكثر فأكثر فى السماء. الآن، صارت أعلى من كل الطائرات الأخرى، كانت تحلق فوق الشاطئ بجناحيها الممدودين. بقيت هناك، تحلق بلا عناء، فى الريح العنيفة، بعيدًا عن الأرض إلى حد أن الخيط الذى يشدها لم يعد يُرى.

حين اقترب مُوندُو والغجرى، أعطى الرجل البكرة والخيط لمُوندُو.

"أمسِكها جيدًا!"؛ قال.

جلس على الشاطئ وأشعل سيجارة.

كان مُوندُو يحاول أن يقاوم الريح.

"إذا ما كانت تشد كثيرًا، فأطلق الخيط قليلاً ثم شُده مرةً ثانية".

www.ibtesama.com

أمسك مُوندُو والغجرى والرجل - الواحد تلو الآخر - طائرة الورق، إلى أن سقطت الطائرات الأخرى، متعبةً، فى البحر. كانت رءوس الجميع مقلوبةً فى الهواء، وتنظر إلى الفراشة الصفراء والسوداء الكبيرة، التى واصلت فى التحليق. كانت حقّا بطلة طائرات الورق، لم تكن هناك طائرة أخرى تستطيع الصعود عاليًا والتحليق لمدة طويلة مثلها.

حينئذ، وببطء شديد، أنزل الرجل الفراشة الكبيرة، مترًا مترًا. كانت طائرة الورق تهتز فى الريح، وتُسمَع فرقعات الريح فى شراعها، مع الحفيف الحاد للخيط. كانت أخطر لحظة، لأن الخيط كان يمكن أن ينقطع تحت الضغط، وكان الرجل يتقدم قليلاً وهو يَكِر البكرة. وحين أصبحت الطائرة قريبةً من الشاطئ، انتقل الرجل إلى الجانب، وهو يشد دفعةً واحدة، ثم أطلق الخيط، فحطت طائرة الورق فوق الصخور الملساء ببطء شديد، مثل الطائرة.

بعد ذلك، ولأنهم كانوا متعبين، بقوا جالسين على الشاطئ. اشترى الغجرى سندويتشات "هوت دوج" فأكلوا وهم ينظرون إلى البحر. حكى الرجل لمُوندُو عن المعارك، على شواطئ تركيا. حين كانت تربط شفرات حلاقة بذيول طيارات الورق، وكانت ترتفع عاليًا جدًا فى السماء، كانوا يطلقونها على بعضها البعض، لمحاولة إسقاطها. كانت شفرات الحلاقة تقطع الأشرعة. ذات مرة، منذ زمن بعيد، استطاع أن يقطع خيط طائرة ورق اختفت فى البعيد، بعد أن

www.ibtesama.com

حملتها الرياح كورقة شجر ميتة. وخلال أيام الرياح الشديدة، كان الأطفال يطلقون المئات من طائرات الورق، فتتغطى السماء ببقع متعددة الألوان.

"لابد أن ذلك كان جميلاً"، قال مُوندُو.

"نعم، كان جميلاً. لكن لم يعد الناس الآن يعرفون ذلك"، قال الرجل. نهض ولَف الفراشة الصفراء والسوداء الكبيرة فى ورقة بلاستيكية.

"فى المرة القادمة، سأعلمك كيف تصنع طائرة ورق حقيقية"، قال الرجل. "فى شهر سبتمبر، فهو الموسم المثالى، ويمكنك أن تجعل طائرتك تطير مثل طائر، دون أن تلمسها تقريبا".

فكر مُوندُو فى أنه سيصنع طائرته بيضاء تمامًا، كالنورس.

كان هناك أيضًا من يحب مُوندُو الذهاب لرؤيته، من حين إلى آخر. كانت سفينة تُدعى أُكسيتون. أول مرة التقى بها، كان بعد الظهر، حوالى الساعة الثانية، حين تضرب الشمس ماء الميناء. كانت السفينة مربوطة بالرصيف، وسط سفن أخرى، وكانت تتمايل فوق الماء. لم تكن أبدًا سفينة كبيرة، كتلك السفن ذات المقدمات الشبيهة بأنوف أسماك القرش وتحمل أشرعة بيضاء كبيرة. لا، كانت أُكسيتون، ببساطة، قاربًا ببطن كبير وصارٍ قصير فى الأمام، لكن مُوندُو وجدها خفيفة الروح. كان قد سأل شخصًا يعمل فى الميناء عن اسمها، وأعجبه الاسم أيضًا.

www.ibtesama.com

بالتالى، كان كثيرًا ما يأتى لرؤيتها، حين يكون فى المنطقة. كان يقف على حافة الرصيف، ويكرر اسمها بصوت عال، وهو تقريبًا يغنى: "أُكسيتون! أُكسيتون!"

كانت السفينة تشد حبلها، وتأتى لتضرب الرصيف، وتعود من جديد. كان هيكلها أزرق وأحمر، مع شريط أبيض. كان مُوندُو يجلس على الرصيف، بجانب حلقة الرسو وينظر إلى أُكسيتون وهو يأكل برتقالة. كان ينظر أيضًا إلى انعكاسات الشمس على الماء، والأمواج الرخوة التى كانت تحرك الهيكل. كانت أُكسيتون تبدو ضجرة، لأن ما من أحد كان يُخرجها أبدًا. فكان مُوندُو يقفز داخل السفينة. يجلس فوق الدكة الخشبية، فى المؤخرة، وينتظر، وهو يشعر بحركات الأمواج. كانت السفينة تتحرك ببطء، تدور قليلاً، تبتعد، فيَصِر حبلها. لكم كان يود مُوندُو الذهاب معها، بصورة عشوائية، على البحر. وهو يمر أمام السد، كان سيقول للصياد جيوردان أن يركب على ظهرها، وكانا سيذهبان معًا إلى البحر الأحمر.

كان مُوندُو يجلس مدة طويلة فى مؤخرة السفينة، ينظر إلى انعكاسات الشمس وأسراب الأسماك الصغيرة التى تتقدم وهى تهتز. أحيانًا كان يغنى أنشودة للسفينة، أنشودة من اختراعه هو:

"أُكسيتون، أُكسيتون، أُكسيتون،

سنذهب بـ ب

سنذهب للصيد

سنذهب لصيد

www.ibtesama.com

السردين، والجمبرى، والتونة!"

بعد ذلك، كان مُوندُو يتمشى قليلاً على الأرصفة، بالقرب من سفن الشحن، لأنه كانت لديه أيضًا رافعة صديقة له.

كانت ثمة أشياء كثيرة يمكن رؤيتها، فى كل مكان، فى الشوارع، على الشاطئ، وفى الأراضى غير المأهولة. لم يكن مُوندُو يحب الأماكن التى يوجد بها الكثير من الناس. كان يفضل الفضاءات المفتوحة، حيث تُرى من بعيد الساحات، وأرصفة المرافئ التى تتقدم وسط البحر، والشوارع الكبرى حيث تسير شاحنات الصهاريج. فى هذه الأماكن كان يمكنه أن يعثر على أناس يكلمهم، ليقول لهم ببساطة:

"هل تريد أن تتبانى؟"

كانوا أناسًا حالمين قليلاً، يسيرون وأيديهم خلف ظهورهم وهم يفكرون فى شىء آخر. كان من بينهم علماء فلك، وأساتذة تاريخ، وموسيقيون، وموظفو جمارك. أحيانًا كان يأتى رسَّام الأحد، الذى يرسم سفنًا، وأشجارًا، أو غروب الشمس، وهو جالس على مقعد قابل للطَّى. كان مُوندُو قد جلس ذات مرة بجانبه لوقت قصير، نظر إلى اللوحة. التفت الرسام وقال:

"أتعجبك؟"

أومأ مُوندُو برأسه بالإيجاب. أشار إلى رجل وكلب كانا يمشيان على الرصيف، فى البعيد.

www.ibtesama.com

"وهما، هل سترسمهما أيضًا؟"

"إن أردت ذلك"، قال الرسام. بأصغر ريشة لديه، وضع على قماشة الرسم ظلاً صغيرًا أسود يشبه الحشرة. فكر مُوندُو قليلا، وقال:

"هل تعرف رسم السماء؟"

توقف الرسام عن الرسم، ونظر إليه باستغراب.

"السماء؟"

"نعم، السماء، مع السُّحُب، والشمس. سيكون ذلك جميلاً".

لم يفكر الرسام قَط فى ذلك. نظر إلى السماء من فوقه، وضحك.

"معك حق، فى اللوحة القادمة التى سأنجزها، لن يكون فيها سوى السماء".

"مع السُّحُب والشمس؟"

"نعم، مع كل السُّحُب، والشمس المضيئة".

"سيكون ذلك جميلاً"، أكد مُوندُو. "أود رؤيتها على الفور".

نظر الرسام إلى السماء.

"سأبدأها غدًا صباحًا. آمل أن يكون الجو جميلاً".

"بلى، سيكون الجو جميلاً غدًا، وستكون السماء أجمل من اليوم"، قال مُوندُو، لأنه كان يعرف إلى حدٍّ ما التنبؤ بالطقس.

www.ibtesama.com

كان هناك أيضا مُنجِّد كراسى القش. كثيرًا ما كان مُوندُو يذهب لرؤية المُنجِّد بعد الظهر. كان يعمل فى ساحة مبنى قديم، مع حفيده الذى يدعى پيبو الذى كان يجلس بجانبه ملتفًا فى سترة كبيرة. كان مُوندُو يحب رؤية المنجِّد وهو يعمل، لأنه كان رجلاً عجوزًا لكنه يستطيع تحريك أصابعه بسرعة كبيرة ليُشَبك ويعقد القش. كان حفيده يبقى ساكنًا بجانبه، بسترته التى كانت تغطيه كالرداء، كان مُوندُو يلهو معه قليلاً. ويحضر له أشياء كان قد عثر عليها وهو يمشى، أحجارًا غريبة من الشاطئ، باقات من الطحالب، أصداف محار، أو حفنات من شقفات خزفية جميلة خضراء وزرقاء صقلها البحر. كان بيبو يأخذ الأحجار وينظر إليها طويلاً، ثم يضعها فى جيوب سترته. لم يكن يستطيع الكلام، لكن مُوندُو كان يحبه لأنه كان يبقى جالسًا قرب جده بلا حراك، ملتفًا فى السترة الرمادية التى كانت تنزل حتى قدميه وتغطى يديه كثياب الصينيين. كان مُوندُو يحب كثيرًا أولئك الذين يعرفون الجلوس فى الشمس بلا حراك وبلا كلام ولديهم عيون حالمة نوعًا ما.

كان مُوندُو يعرف الكثير من الناس، هنا، فى هذه المدينة، رغم ذلك فلم يكن لديه أصدقاء كثيرون. مَن كان يحب لقاءهم، كانوا أولئك ممن لهم نظرة جميلة لامعة ويبتسمون حين يرونك كأنهم سعداء برؤيتك. فكان مُوندُو يتوقف، ويكلمهم قليلاً، يطرح عليهم بعض الأسئلة، عن البحر، والسماء أو عن الطيور، وعند

www.ibtesama.com

رحيل الناس يكونون قد تغيروا تمامًا. لم يكن مُوندُو يسألهم عن أشياء بالغة الصعوبة، لكنها كانت أشياء نسيها الناس، أشياء توقفوا عن التفكير بها منذ سنوات طويلة، مثلاً لماذا تكون الزجاجات خضراء، ولماذا توجد نيازك. كان يبدو كأن الناس قد انتظروا طويلاً كلمةً، بضع كلمات فقط، كهذه، عند ناصية شارع، وكان مُوندُو يعرف قول هذه الكلمات.

كانت الأسئلة أيضًا ما يغيرهم. فمعظم الناس لايعرفون طرح الأسئلة الصحيحة. أما مُوندُو فكان يجيد طرح الأسئلة، حين ينبغى طرحها، وحين لا تكون متوقعة. كان الناس يتوقفون بضع ثوان، يتوقفون عن التفكير بأنفسهم ومشاغلهم، يفكرون، فتضطرب عيونهم قليلاً، لأنهم تذكروا أنهم قد سُئلوا هذا السؤال فى الماضى.

كان هناك شخصٌ يحب مُوندُو كثيرًا لقاءه. شاب، طويل وقوى، بوجه شديد الحمرة وعينين زرقاوين. كان يرتدى رداءً أزرق داكنًا ويحمل خُرجاً كبيرًا من الجلد مليئًا بالرسائل. غالبًا ما كان مُوندُو يلقاه، فى الصباح، فى درب السلالم التى كانت تصعد عبر التل. أول مرة سأله فيها مُوندُو:

"ألديك رسالة لى؟"

ضحك الرجل الضخم. لكن مُوندُو كان يقابله كل يوم، وكل يوم كان يذهب إليه ويسأله السؤال نفسه:

"واليوم؟ ألديك رسالة لى؟"

www.ibtesama.com

فيفتح الرجل خُرجه ويبحث.

"حسنًا، حسنًا... ما اسمك؟"

"مُوندُو"، يقول مُوندُو.

"مُوندُو... مُوندُو... لا، لا رسائل اليوم".

رغم ذلك، كان يُخرج أحيانًا من خُرجه جريدة مصورة، أو إعلانًا ويعطيه لمُوندُو.

"خذ، اليوم، وصلك هذا".

كان يغمز له ويواصل طريقه.

ذات يوم، اجتاحت مُوندُو رغبة قوية فى كتابة رسائل، فقرر أن يبحث عن شخصٍ ما ليعلمه القراءة والكتابة. تمشى فى شوارع المدينة، بالقرب من الحدائق العامة، لكن الجو كان بالغ الحرارة فلم يكن متقاعدو البريد موجودين. بحث فى أماكن أخرى، إلى أن وصل أمام البحر. كانت الشمس تحرق بشدة، وفوق الحصى الأملس للشاطئ كان غبار من الملح يلتمع. نظر مُوندُو إلى الأطفال الذين كانوا يلعبون على حافة الماء. كانوا يلبسون ألبسة بحر ذات ألوان غريبة، حمراء بلون الطماطم وخضراء بلون التفاح، وربما لهذا السبب كانوا يصرخون بأصوات عالية جدًا وهم يلعبون. لكن مُوندُو لم يكن يرغب فى الاقتراب منهم.

بالقرب من المبنى الخشبى للشاطئ الخاص، رأى مُوندُو الرجل العجوز الذى كان يعمل على تسوية الشاطئ بمقشة طويلة. كان بالفعل رجلاً عجوزًا جدًا يلبس شورتًا أزرق باهت اللون ومبقعًا. وكان جسده

www.ibtesama.com

بلون الخبز المحروق، وبشرته منهكة ومجعدة كبشرة فيل عجوز. كان الرجل يسحب المقشة الطويلة ببطء فوق الحصى الأملس من أسفل الشاطئ إلى أعلاه، دون أن يعير اهتمامًا للأطفال والسباحين. كانت الشمس تلتمع على ظهره وساقيه، والعرق يتصبب على وجهه. من حين إلى آخر، كان يتوقف، ويخرج منديلاً من جيب شورته ويمسح وجهه ويديه.

جلس مُوندُو وظهره إلى الحائط، أمام الرجل العجوز. انتظر مدة طويلة، إلى أن انتهى الرجل من تمشيط ما يخصه من الشاطئ. وحين جاء الرجل للجلوس قرب الحائط، نظر إلى مُوندُو. كانت عيناه فاتحتين جدًا، بلون رمادى شاحب كان يجعلهما تبدوان كثقبين فى بشرة وجهه السمراء. كان يشبه هنديًا إلى حدٍّ ما.

نظر إلى مُوندُو كما لو كان قد فهم سؤاله. وقال فقط:

"مرحبا!"

"من فضلك، أريدك أن تعلمنى القراءة والكتابة"، قال مُوندُو.

بقى الرجل ساكنًا، لكنه لم يبد عليه الاندهاش.

"ألا تذهب إلى المدرسة؟"

"لا يا سيدى"، قال مُوندُو.

جلس الرجل العجوز على الشاطئ، ظهره مسنود إلى الحائط، ووجهه نحو الشمس. نظر أمامه، وكان

www.ibtesama.com

تعبيره هادئًا جدًا وحنونًا، رغم أنفه المعقوف والتجاعيد التى كانت تقطع خديه. حين نظر إلى مُوندُو، كان كأنه ينظر من خلاله، لأن حدقتيه كانتا فاتحتين جدًا. وكان ثمة التماعة استمتاع فى نظرته، وقال:

"موافق على تعليمك القراءة والكتابة، إن كان هذا ما تريد". كان صوته مثل عينيه، هادئًا جدًا وبعيدًا، كأنه كان يخشى إصدار ضجة كبيرة وهو يتكلم.

"لا تعرف شيئًا على الإطلاق؟"

"لا سيدى"، قال مُوندُو.

تناول الرجل من جرابه مطواة بمقبض أحمر وبدأ ينحت رموز الحروف على الحجر المسطح. وفى الوقت نفسه، كان يكلم مُوندُو عن كل ما يوجد فى الحروف، كل ما يمكن رؤيته فيها حين ننظر إليها وحين نسمعها. تحدث عن حرف A الذى يشبه بعوضة كبيرة أجنحتها مسحوبة إلى الوراء؛ عن حرف B الطريف، ببطنيه، عن حرفى C و D اللذين يشبهان القمر، حين يكون هلالاً ونصف بدر، وحرف O وهو القمر المكتمل فى السماء السوداء. حرف H عال، وهو كسُلم نصعد به إلى الأشجار وأسطح المنازل؛ حرفا E وF اللذان يشبهان الجاروف والمقشة، و G رجل سمين يجلس على كرسى وثير؛ I يرقص على أطراف أصابعه، برأسه الصغيرة التى تنفصل عنه مع كل قفزة، بينما J يتأرجح؛ لكن K مكسور كرجل عجوز،

www.ibtesama.com

و R يمشى بخطوات واسعة كالجندى، وY واقف، رافعًا ذراعيه فى الهواء ويصرخ: النجدة! L هو شجرة على حافة نهر، M جبل؛ N هو للأسماء، والناس الذين يلقون التحية بالأيدى، P ينام على رِجل واحدة، وQ يجلس على ذيله؛ S دائمًا ثعبان، Z هو دائمًا البرق؛ T جميل، فهو كصارى السفينة؛ U مثل المزهرية. V و W هما طيور، طيور خلال طيرانها؛ X صليب للتذكر.

بسن مطواته، كان الرجل العجوز يخط الرموز على الحصى الأملس ويضعها أمام مُوندُو.

"ما اسمك؟"

"مُوندُو"، قال مُوندُو.

اختار الرجل العجوز بعض الحصى، وأضاف عليها أخرى.

"انظر. هذا اسمك مكتوبًا هنا".

"هذا جميل!" قال مُوندُو. هناك جبل، القمر، شخص يُحيى هلال القمر، والقمر مرة أخرى. لماذا توجد كل هذه الأقمار؟"

"لأنها فحسب موجودة فى اسمك"، قال الرجل العجوز. "أنت تُدعى هكذا".

جمع الحصى.

"وأنت، سيدى؟ ماذا يوجد فى اسمك؟"

كان الرجل يشير إلى الحصى، الواحدة تلو الأخرى، وكان مُوندُو يجمعها ويصفها أمامه.

www.ibtesama.com

"هناك جبل".

"نعم، الجبل الذى ولدت فيه".

"هناك ذبابة".

"ربما كنتُ ذبابة، منذ زمن بعيد، قبل أن أصبح إنسانًا".

"هناك رجل يمشى، جندى".

"كنتُ جنديًا".

"هناك هلال".

"لقد كان حاضرًا عند ولادتى".

"ومقشة؟"

"ها هى ذى؟"

أشار الرجل العجوز إلى المقشة الموضوعة على الشاطئ.

"هناك شجرة أمام نهر".

"نعم، ربما سأعود فى هذا الشكل بعد موتى، شجرة ساكنة أمام نهر جميل".

"جميل أن يعرف المرء القراءة"، قال مُوندُو. "كم أود أن أعرف كل الحروف".

"ستكتب، أنت أيضًا"، قال الرجل العجوز. أعطاه مطواته وظل مُوندُو لوقت طويل يحفر رسوم الحروف على حصى الشاطئ. ثم يضعها جانبًا، ليرى الاسم المحتمل الذى يمكن أن تشكله. كان هناك الكثير من حرفى O و I لأنهما كانا الحرفين المفضلين لديه. كان

www.ibtesama.com

يحب أيضًا حرفى T و Z والطيور V و .W قرأ الرجل العجوز:

OVO OWO OTTO IZTI

وجعلهما ذلك يضحكان كثيرًا.

كان الرجل العجوز يعرف أشياء أخرى كثيرة، غريبة نوعًا ما، كان يحكيها بصوته العذب، وهو ينظر إلى البحر. تحدث عن بلد أجنبى، بعيد جدًا على الناحية الأخرى للبحر، بلد كبير جدًا حيث كان الناس شديدى الوسامة والرقة، بلد لم تكن فيه حروب، ولم يكن أحد فيه يخشى أن يموت. فى ذلك البلد، كان هناك نهر واسع كالبحر، يذهب الناس للسباحة فيه كل مساء، مع غروب الشمس. أثناء حديثه عن ذلك البلد، أصبح صوت الرجل العجوز أكثر عذوبة وبطئًا، وكانت عيناه الشاحبتان تنظران إلى البعيد، كما لو كان بالفعل هناك، على حافة ذلك النهر.

"هل أستطيع أن أذهب معك؟"، سأل مُونْدُو.

وضع الرجل العجوز يده على كتف مُونْدُو.

"نعم، سآخذك معى".

"متى ستذهب؟"

"لا أدرى. حين يصبح عندى مال كاف. بعد عام، ربما. لكنى سآخذك معى".

فيما بعد، تناول الرجل العجوز مقشته واستأنف عمله أبعد قليلاً على الشاطئ. وضع مُونْدُو الحصى الخاص باسمه فى جيبه، لوح بيده لصديقه ورحل.

www.ibtesama.com

الآن، أصبح هناك العديد من الرموز، في كل مكان، مكتوبة على الجدران، والأبواب، وعلى اللافتات الحديدية. كان مُوندُو يراها وهو يمشي في شوارع المدينة، ويتعرف على بعضها لدى مروره. على أسمنت الرصيف، كانت هناك حروف مكتوبة على النحو التالي:

D
E
NADINE
E

لكنها لم تكن سهلة الفهم.

مع حلول الليل، عاد مُوندُو إلى بيت الضوء الذهبي. أكل الأرز والخضراوات في الغرفة الكبيرة مع تي شين، ثم خرج إلى الحديقة. انتظر حتى لحقت به المرأة القصيرة، وتمشيا معًا ببطء في ممر الحصَى، إلى أن سارا محاطين تمامًا بالأشجار والشجيرات. كانت تي شين تمسك بيد مُوندُو بقوة لدرجة أنه أحس بالألم. ورغم ذلك كان جميلاً السير هكذا في الليل بلا أضواء، وهما يتحسسان بأطراف أقدامهما لتفادي الأحجار، مهتدين فحسب بصوت الحجر الذي كان يَصِر تحت النعال. كان مُوندُو يسمع الصوت الصَّار لجرادة مختبئة، ويشم روائح الأجمات التي كانت توسع أوراقها في الليل. كان ذلك مدوخًا، ولهذا السبب كانت المرأة القصيرة تضم يده بقوة حتى لا يصيبها الدوار.

www.ibtesama.com

"فى الليل، كل شىء رائحته زكية"، قال مُوندُو.

"ذلك لأننا لا نرى"، قالت تى شين. "نشم بشكل أفضل، ونسمع بشكل أفضل، حين لا نرى".

توقفت على الطريق.

"انظر، الآن، سنرى النجوم".

كانت صرخة الجرادة الحادة يتردد صداها بالقرب منهما، كما لو كانت آتية من السماء نفسها. بدأت النجوم تظهر واحدةً تلو الأخرى، وترتجف بوهن فى نداوة الليل. كان مُوندُو ينظر إليها، ورأسه مقلوبة، وهو يحبس أنفاسه.

"إنها جميلة، هل تقول شيئًا يا تى شين؟"

"نعم، إنها تقول أشياء كثيرة، لكننا لا نفهم ما تقول".

"حتى إن كنا نعرف القراءة، أفلا نستطيع أن نفهم؟"

"لا، لا نستطيع يا مُوندُو. لا يستطيع البشر أن يفهموا ما تقوله النجوم".

"لعلها تحكى عما سيحدث فيما بعد، بعد زمن طويل جدًا".

"نعم، أو ربما تحكى قصصًا لبعضها البعض".

كانت تى شين تنظر إليها أيضًا بلا حراك، وهى تشد بقوة على يد مُوندُو.

www.ibtesama.com

"ربما تتحدث عن الطريق الذى يجب اتباعه، والبلدان التى ينبغى الذهاب إليها".

فكر مُوندُو.

"الآن أصبحت تلتمع بشدة. قد تكون أرواحًا".

كانت تى شين ترغب فى رؤية وجه مُوندُو، لكن كل شىء كان معتمًا. ثم، فجأةً، بدأت ترتعد، كما لو كانت خائفة. ضمت يد مُوندُو إلى صدرها، ووضعت خدها على كتفه. كان صوتها غريبًا وحزينًا، كما لو كان شىءٌ ما يؤلمها.

"مُوندُو، مُوندُو..".

كانت تكرر اسمه بصوتها المخنوق، وجسدها يرتعد.

"ما بِك؟" سألها مُوندُو. حاول تهدئتها بالكلام معها. "أنا هنا، لن أذهب، لا أستطيع الذهاب".

لم يكن يرى وجه تى شين، لكنه أدرك أنها كانت تبكى، ولهذا السبب كان جسدها يرتعد. ابتعدت تى شين قليلاً، حتى لا يشعر مُوندُو بدموعها وهى تنساب.

"اعذرنى، أنا غبية"، قالت؛ لكن صوتها لم يكن قادرًا على الكلام.

"لا تحزنى"، قال مُوندُو. أخذها إلى الجانب الآخر من الحديقة. "تعالى، سنذهب لرؤية أضواء المدينة فى السماء".

www.ibtesama.com

ذهبا إلى المكان الذى كان ممكنًا فيه رؤية الوميض الوردى الكبير الذى يتخذ شكل الفِطر، فوق الأشجار. كانت هناك أيضًا طائرة عابرة تصدر ومضات ضوئية، جعلهما ذلك يضحكان.

ثم جلسا على ممر الحصى، دون أن يفلتا يديهما. نسيت المرأة القصيرة حزنها، وعادت إلى الحديث من جديد، بصوت خفيض، دون أن تفكر فيما كانت تقول. كان مُوندُو أيضًا يتكلم، والجرادة تصدر صوتها الصَّار، من مخبئها وسط أوراق الأشجار. ظل مُوندُو وتى شين جالسين لوقت طويل، إلى أن ثقلت جفونهما. ناما على الأرض والحديقة تتحرك ببطء، ببطء، كجسر باخرة.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

آخر مرة، كانت فى بداية فصل الصيف. رحل مُوندُو مع طلوع الشمس، دون أى صوت. نزل طريق السلالم عبر التل، بلا استعجال. كانت الأشجار والأعشاب مغطاة بقطرات الندى، وكان هناك شىءٌ كالضبابة فوق البحر، على أوراق شجرة الدودية الأرجوانية، المعلقة على طول الجدران القديمة، كانت هناك قطرة ماء معلقة وتلتمع كالماس. قرب مُوندُو فمه، قلب ورقة الشجرة وشرب قطرة الماء العذبة. كانت قطرات صغيرة لكنها انتشرت فى فمه وجسده، وهدأت ظمأه تمامًا. على طرفى الطريق، كانت جدران الحجارة الجافة دافئة. وخرجت حشرات السمندل من الشقوق لترى نور النهار.

نزل مُوندُو التل حتى البحر، وجلس فى مكانه المعتاد على الشاطئ الخالى. فى تلك الساعة، لم يكن هناك سوى النوارس. كانت تطفو على الماء على طول الشاطئ، أو تمشى وهى تتبختر فوق الحصَى. تفتح قليلاً مناقيرها كى تهدل. كانت تطير، تدور فى دوائر، ثم تحط فى مكان أبعد قليلاً. كان للنوارس دائمًا

www.ibtesama.com

أصوات غريبة فى الصباح، كما لو كانت تنادى بعضها البعض قبل الرحيل.

وحين كانت الشمس ترتفع قليلاً فى السماء الوردية، كانت المصابيح تنطفئ، وتُسمع بداية ضوضاء المدينة، كان صوت بعيد يخرج من الشوارع وسط المبانى العالية، ضجيج مخنوق يرتج عبر حصَى الشاطئ. كانت الدراجات النارية الخفيفة تعدو فى الشوارع الكبيرة، مصدرةً ضجيجًا بأجراسها الكبيرة، وهى تحمل رجالاً ونساءً يرتدون سترات رياضية، ورءوسهم مخبأة داخل أقنعة من الصوف.

بقى مُوندُو ساكنًا على الشاطئ، فى انتظار أن تدفئ الشمس الهواء. كان يسمع صوت الأمواج على الحصى. وكان يحب ذلك التوقيت، لأنه لم يكن يوجد أى أحد قرب البحر، فقط هو والنوارس. فكان يستطيع أن يفكر بكل أهل المدينة، وكل أولئك الذين سيقابلهم. كان يفكر بهم وهو ينظر إلى السماء والبحر، ويشعر كأن الناس بعيدون جدًا، وفى الوقت نفسه قريبون جدًا، ويجلسون حوله. كما لو كان يكفى أن ينظر إليهم حتى يجدهم، وأن يشيح بنظره حتى يختفوا.

على الشاطئ الخالى، كان مُوندُو يتحدث إلى الناس. يكلمهم بطريقته الخاصة، بلا كلمات، إنما بإرسال موجات؛ كانت تذهب إليهم، حيثما كانوا، وتمتزج بالضوء وصوت الأمواج، وكان الناس يستقبلونها دون أن يعلموا من أين أتت. كان مُوندُو

www.ibtesama.com

يفكر بالغجرى، والقوزاقى، ومنجِّد كراسى القش، وروزا، والخبازة إيدا، وبطل طائرات الورق، أو بالرجل العجوز الذى علمه القراءة، وكانوا جميعًا يسمعونه. كانوا يسمعون شيئًا كالصفير فى آذانهم، أو كصوت طائرة، ويهزون رءوسهم قليلاً لأنهم لم يكونوا لَيفهموا ماهية ذلك الشىء. لكن مُوندُو كان سعيدًا لأنه كان يستطيع التحدث إليهم بهذه الطريقة، ويرسل إليهم موجات البحر، والشمس والسماء.

بعد ذلك، تمشى مُوندُو على طول الشاطئ، حتى وصل إلى الحاجز الخشبى للشاطئ الخاص. أسفل الجدار، بحث عن الحصَى الذى حفر عليه الرجل العجوز رسومات الحروف. لقد مضى وقتٌ طويل على مجىء مُوندُو إلى هذا المكان، فقد محا الملح والضوء أجزاءً من الرسوم. بكسرة صوان قاطع، أعاد مُوندُو رسم الرموز، ووضع الحصَى على حافة الجدار، ليكتب اسمه، هكذا

M

O O

D N

كى يرى الرجل العجوز اسمه، حين يعود، فيعلم أنه قد أتى.

لم يكن ذلك اليوم كغيره من الأيام، لأن شخصًا ما لم يكن فى المدينة. كان مُوندُو يبحث عن المتسول

www.ibtesama.com

العجوز صاحب اليمامتين، وقلبه يخفق بشدة، لأنه كان يعلم مسبقًا أنه لن يجده. بحث فى كل مكان، فى الشوارع والطرقات، فى ساحة السوق، وأمام الكنائس. كم كان مُوندُو يرغب فى رؤيته. لكن الشاحنة الرمادية الصغيرة كانت قد مرت فى الليل، وأخذ الرجال ذوو البزات العجوز دادى.

واصل مُوندُو البحث عن دادى فى كل مكان، دون أن يستريح. كان قلبه يخفق بقوة أكثر فأكثر، فيما كان يركض من مخبأ إلى آخر. بحث فى كل الأماكن التى يذهب إليها عادة المتسولون العجائز، فى مصاريع أبواب العربات، على السلالم، قرب النافورات، فى الحدائق العامة، عند مداخل العمارات القديمة. أحيانًا، كان يرى فوق الرصيف قطعةً من صفحة جريدة، فيتوقف وينظر حوله، كما لو كان العجوز دادى سيأتى للجلوس على الأرض.

فى النهاية، كان القوزاقى هو مَن أخبر مُوندُو. كان مُوندُو قد التقاه فى الشارع قرب السوق. كان يمشى بصعوبة، وهو يستند على الحائط لأنه كان ثملاً تمامًا. كان الناس يتوقفون وينظرون إليه وهم يضحكون. بل إنه فقد أكورديونه الأسود الصغير، سرقه أحدهم منه وهو نائم بعد شربه للخمر. وحين سأله مُوندُو عن مكان العجوز دادى ويمامتيه، نظر إليه لبرهة دون فهم، وعيناه فارغتان. ثم دمدم قليلاً:

"لا أدرى... أخذوه، هذه الليلة..."

www.ibtesama.com

"إلى أين أخذوه؟"

"لا أدرى.. إلى المستشفى".

كان القوزاقى يبذل جهودًا كبيرة كى يذهب.

"انتظر! واليمامتان؟ هل أخذوهما أيضًا؟"

"اليمامتان؟"

لم يفهم القوزاقى.

"الطيور البيضاء!"

"آه نعم، لا أدرى..."، هز القوزاقى كتفيه. "لا أدرى ما الذى فعلوه بتلك الحمامات... ربما سيأكلونها..."؛ وواصل السير وهو يترنح على طول الجدار.

شعر مُوندُو فجأة بتعب جديد. كان يريد العودة إلى شاطئ البحر، لينام. لكنه كان بعيدًا جدًا. لقد خارت قواه. ربما كان ذلك لأنه لم يأكل جيدًا منذ مدة طويلة، أو هو الخوف. كان يشعر أن الأصوات كلها كانت تطن داخل رأسه وأن الأرض تتحرك تحت قدميه.

بحث مُوندُو عن مكان فى الشارع، فوق الرصيف، وجلس هناك. ظهره إلى الحائط. وظل ينتظر. أبعد قليلاً، كان هناك دكان بائع أثاث، بواجهة كبيرة كانت تعكس الضوء. بقى مُوندُو جالسًا بلا حراك، حتى أنه لم يكن يرى أقدام الناس الذين يسيرون أمامه، ويتوقفون أحيانًا. لم يكن يسمع الأصوات التى تتحدث. كان يشعر بنوع من الخدر يجتاح جسده كله،

www.ibtesama.com

ويصَّاعد كبَرد، يجعل شفتيه فاقدتين للإحساس ويمنع عينيه من الحركة.

لم يعد قلبه يخفق بقوة؛ أصبح بعيدًا وضعيفًا للغاية، يتحرك ببطء فى صدره، كما لو كان يوشك على التوقف.

كان مُوندُو يفكر بكل تلك المخابئ الجيدة، تلك التى كان يعرفها على شاطئ البحر، فى الصخور البيضاء، بين حواجز الأمواج، أو فى حديقة بيت الضوء الذهبى. كان يفكر أيضًا بالسفينة أُوكسيتون، وهى تقوم بحركات لتنفصل عن الرصيف، لأنه كان يريد الذهاب إلى البحر الأحمر. لكنه فى الوقت نفسه، كان كأنه لم يعد قادرًا على مغادرة هذا المكان، فوق الرصيف، مستندًا إلى هذا الجزء من الجدار، كأن قدميه لم تعودا قادرتين على مزيد من السير.

حين خاطبه الناس، لم يرفع مُوندُو رأسه. بقى بلا حراك فوق الرصيف، جبينه مسنود على ساعديه. ثم توقفت أقدام الناس أمامه، كانت تشكل سورًا فى نصف دائرة مثلما حين كان الغجرى يقوم بعرضه أمام الحشود. كان مُوندُو يفكر فى أنه كان من الأفضل لتلك الأقدام أن تغادر، أن تستأنف طريقها. كان ينظر إلى كل تلك الأقدام المتوقفة، الأحذية الكبيرة من الجلد الأسود للرجال، وصنادل بكعب عال للنساء. كان يسمع الأصوات المتكلمة فوقه، لكنه لم يكن قادرًا على فهم ما تقول.

www.ibtesama.com

"... اتصلوا..."، كانت الأصوات تقول. الاتصال بمَن؟ تصور مُوندُو أنه قد تحول إلى كلب، كلبُ عجوز بشعر أشقر ينام متكورًا فى دائرة، فى ركن رصيف. لا أحد يمكن أن يراه، فلا أحد يعير اهتمامًا لكلب عجوز أصفر. كان البرد لا يزال يصّاعد على طول جسده، ببطء، فى ذراعيه، وبطنه، وحتى رأسه.

عندئذٍ، جاءت الشاحنة الرمادية الصغيرة السياباكان. كأن مُوندُو قد سمعها تصل فى شبه نومه، وسمع المكابح تَصِر والأبواب تنفتح. لكنه لم يهتم. تراجعت أقدام الناس قليلاً، فرأى مُوندُو البنطلونات الكحلية والأحذية السوداء ذات النعال السميكة وهى تقترب منه.

"هل أنت مريض؟"

كان مُوندُو يسمع أصوات الرجال ذوى البزات الرسمية. كانت ذات صدى كأنها كانت على بُعد آلاف الكيلومترات.

"ما اسمك؟ أين تسكن؟"

"ستأتى معنا، أليس كذلك؟"

كان مُوندُو يفكر بالتلال التى كانت تحترق، فى كل مكان، حول المدينة. كان كأنه يجلس على حافة الطريق وهو يرى حقول الجمر وألسنة النار الكبيرة الحمراء، ويشم رائحة الراتنج والدخان الأبيض الذى يصّاعد إلى السماء؛ بل كان يرى شاحنات المطافئ

www.ibtesama.com

الحمراء المتوقفة وسط الأجمات والخراطيم الطويلة وهى تمتد.

"هل تستطيع أن تمشى؟"

رفعت أيادى الرجال مُوندُو من تحت كتفيه، كما لو كان حمولةً خفيفة، وحملته نحو الشاحنة الصغيرة ذات الأبواب الخلفية المفتوحة. شعر مُوندُو بساقيه ترتطمان بالأرض، وعلى درج الشاحنة، وكانتا تبدوان غريبتين، كساقى دمية متحركة مصنوعة من خشب ولوالب. ثم انغلقت الأبواب وهى تصطفق، وبدأت الشاحنة الصغيرة فى السير وسط المدينة. كانت المرة الأخيرة.

بعد يومين، دخلت المرأة الفيتنامية إلى مكتب مأمور الشرطة. كانت شاحبة وعيناها مرهقتين لأنها لم تنم. كانت قد انتظرت مُوندُو ليلتين، وفى النهار بحثت عنه فى كل مكان بالمدينة. نظر إليها بلا فضول.

"هل أنتِ من أقاربه؟"

"لا، لا"، قالت تى شين. كانت تبحث عن الكلمات.

"أنا... أنا صديقته".

كانت تبدو صغيرةً جدًا، طفلة تقريبًا، رغم تجاعيد وجهها.

"هل تعرف أين هو؟"

نظر إليها المأمور دون استعجال للرد.

www.ibtesama.com

"إنه فى مؤسسة الإسعاف الاجتماعى"، قال أخيرًا.

كأنها لم تفهم، كررت المرأة القصيرة:

"الإسعاف الاجتماعى..."

ثم صرخت تقريبًا:

"لكن هذا غير معقول!"

"ما هو غير المعقول؟"، سأل المأمور.

"لكن لماذا؟ ماذا فعل؟"

"قال لنا إنه بلا عائلة، فوجهناه إلى هناك".

"مستحيل!"، كررت تى شين. "أنت لا تفهم..."

نظر إليها المأمور بقسوة.

"أنت التى لا تفهمين يا سيدتى"، قال: "إنه طفل بلا عائلة، بلا مسكن، كان يهيم فى الشوارع مع المتشردين، والمتسولين، وربما أسوأ من ذلك! يعيش كبدائى، يأكل أى شىء، وينام فى أى مكان! وبالمناسبة، لقد أُبلغنا بحالته من قبل، هناك أناس اشتكوا، ونحن نبحث عنه منذ فترة، لكنه ماكر، كان يختبئ! آن الأوان لينتهى كل هذا".

كانت المرأة القصيرة تحدق أمامها وجسدها يرتعش. فهدأ المأمور قليلاً من كلامه.

"أنتِ ـ هل كنت تعتنين به يا سيدتى؟"

هزت تى شين رأسها بالإيجاب.

www.ibtesama.com

"حسنًا، إن كنتِ ترغبين بالاعتناء بهذا الطفل، وترغبين في أن نمنحك حضانته، فهذا بالتأكيد أمر ممكن".

"لابد أن يخرج من..".

"لكن حاليًا، لابد أن يبقى فى مؤسسة الإسعاف حتى.. حتى تتحسن حالته. إن أردت الاعتناء به، فلابد من تقديم طلب، وإعداد ملف، لن يتم الأمر بسرعة".

كانت تى شين تبحث عن كلماتها فى رأسها، دون أن تتمكن من الكلام.

"حاليًا، يجب أن نترك الموضوع للإدارة. هذا الطفل ـ ما اسمه بالمناسبة؟"

"مُوندُو"، قالت تى شين. "أنا.."

"هذا الطفل تحت المراقبة. لابد أن يعالج. ستعتنى به مؤسسة الإسعاف، ونعد ملفًا له. أتعلمين أنه فى سنه هذه، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وأنه لم يذهب يومًا إلى المدرسة؟"

حاولت تى شين الكلام، لكن صوتها كان يختنق.

"هل يمكن أن أراه؟"، سألت فى النهاية.

"نعم، بالتأكيد". نهض المأمور. "خلال أيام قليلة، حين تتحسن حالته، ستذهبين لرؤيته، فقط اطلبى إذنًا من المدير".

www.ibtesama.com

"اليوم!"، قالت تى شين. صرخت من جديد، فبُح صوتها. "اليوم، لابد أن أراه اليوم!".

"لا، هذا مستحيل. لا يمكنك رؤيته قبل أربعة أو خمسة أيام".

"أتوسل إليك! هذا مهم جدًا بالنسبة له الآن!".

رافق المأمور تى شين إلى الباب.

"ليس قبل أربعة أو خمسة أيام".

وهو يهم بفتح الباب، غير رأيه.

"أعطنى اسمك وعنوانك، كى نتمكن من الاتصال بك".

دوَّن ذلك فى دفتر قديم.

"حسنًا، اتصلى بى بعد يومين حتى نبدأ فى إعداد الملف". لكن فى اليوم التالى، ذهب المأمور إلى بيت تى شين. فتح البوابة وسار على ممر الحصى حتى الباب.

عندما فتحت تى شين الباب، دخل عنوةً تقريبًا، ونظر داخل الحجرة الكبيرة.

"مُوندُو"، بدأ الكلام.

"ماذا حصل له؟"، سألت تى شين. كانت أكثر شحوبًا من اليوم السابق، وكانت عيناها مرفوعتين إلى وجه الشرطى بخوف.

"لقد ذهب".

www.ibtesama.com

"ذهب؟"

"نعم، ذهب، اختفى، تبخر!"

من فوق رأس تى شين، كان الشرطى يتفحص داخل المنزل.

"ألم ترينه؟ ألم يأت إلى هنا؟"

"لا!"، صرخت تى شين.

"لقد أشعل النار فى مرتبته، داخل غرفة التمريض، واستغل حالة الهلع ليهرب. فكرتُ أنك ربما رأيتِه يمر من هنا؟"

"لا! لا!"، صرخت تى شين مرةً ثانية. أصبحت عيناها الضيقتان تلتمعان بالغضب. تراجع المأمور أمام غضبها.

"اسمعينى، لقد أتيت على الفور لإبلاغك. لابد من العثور على هذا الولد قبل أن يقوم بحماقات أخرى".

هبط المأمور سلالم المدخل شبه الدائرية.

"أبلغينى، إذا ما عاد إلى هنا".

كان يسير على ممر الحصى، نحو البوابة.

"لقد قلت لك ذاك اليوم، إنه بدائى!".

على العتبة، لم تعد تى شين تتحرك. امتلأت عيناها بالدموع وانقبض صدرها فلم تعد قادرة على التنفس.

www.ibtesama.com

"لم تفهم شيئًا، لا شيء!"؛ كانت تتكلم بصوت خفيض، لنفسها، بينما كان مأمور الشرطة يدفع البوابة ويهبط، بخطوات واسعة، درب السلالم باتجاه سيارته السوداء.

بعدها، جلست تى شين على الدرجات البيضاء، وظلت ساكنةً لوقت طويل، دون أن تنظر إلى الضوء الذهبى الذى كان يملأ الحجرة الكبيرة الخاوية، ودون أن تسمع الصوت الصَّار للجرادة المختبئة. بكت قليلاً، دون أن تلاحظ ذلك، وكانت الدموع تسيل قطرةً قطرةً على طرف أنفها وتسقط على مئزرها الأزرق. كانت تعلم أن الطفل ذا الشعر الأسمر الرمادى لن يعود، لا غدًا ولا فى أى يوم آخر. كان فصل الصيف سيبدأ، رغم ذلك كان يبدو كأن الجو بارد. جميعنا، هنا، فى مدينتنا، أحسسنا بذلك. استمر الناس فى الذهاب والمجىء، واصلوا البيع والشراء، واستمرت السيارات فى السير فى الشوارع والطرقات، مصدرةً ضجيجًا كبيرًا بمحركاتها وأبواقها. أحيانًا، فى السماء الزرقاء، كانت طائرة تمر تاركةً وراءها أثرًا أبيض طويلاً. استمر المتسولون فى التسول، فى أركان الجدران، عند باب البلدية والكنائس. لكن الأمر اختلف. كأن سحابةً لا مرئية كانت تغطى الأرض، وتمنع الضوء من الوصول كاملاً.

لم تعد الأمور على حالها. فبعد وقت قصير، اعتقلت الشرطة الغجرى، حين اكتشفت ذات يوم أنه كان يمارس خفة اليد أيضًا فى جيوب المارة.

www.ibtesama.com

والقوزاقى كان شخصًا سكيرًا، ولم يكن قوزاقيًا حقيقيًا، لأنه ولد فى أوفارنى. أما الصياد جيوردان فكسر عصى الصيد على حاجز الأمواج، ولن يذهب أبدًا إلى إريتريا، ولا لأى مكان آخر. خرج العجوز دادى أخيرًا من المستشفى، لكنه لم يعثر أبدًا على يمامتيه، واشترى بدلاً منهما قطًا. ولم يتمكن رسام الأحد من رسم السماء، وعاد لرسم البحريات والطبيعة الجامدة، والولد الصغير فى الحديقة العامة سُرقت دراجته الحمراء ذات العجلات الثلاث. أما الرجل العجوز ذو الوجه الهندى، فقد واصل تمشيط الجزء الخاص به من الشاطئ، دون أن يسافر إلى ضفاف الجانج. وعند طرف الحبل، بقيت سفينة أُكسيتون مربوطةً فى الحلقة الصدئة للرصيف، وحيدةً تتمايل فوق مياه الميناء، وسط طبقات من الجازولين، دون أن يأتى أحد للجلوس فى مؤخرتها ليغنى لها أغنية.

كانت السنوات، والشهور والأيام تمر الآن بلا مُوندُو، فقد كان وقتًا طويلاً جدًا وقصيرًا جدًا فى الوقت نفسه، وكان الكثيرون، هنا، فى مدينتنا، ينتظرون شخصًا ما دون أن يجرؤوا على قول ذلك. دون أن يدركوا ذلك، كثيرًا ما بحثنا عنه فى الزحام، عند نواصى الشوارع، أمام بابٍ ما. نظرنا إلى الحصى الأبيض للشاطئ، وإلى البحر الذى يشبه الجدار. ثم نسينا قليلاً.

•

ذات يوم، وبعد مدة طويلة، كانت المرأة الفيتنامية القصيرة تتمشى فى حديقتها، أعلى التل. جلست

www.ibtesama.com

تحت أشجار الرند، حيث كان العديد من الذبابات المخططة تتراقص فى الهواء، والتقطت حصاة غريبة صقلها البحر. على أحد جوانب الحصاة، رأت رموزًا منقوشة، ممحوةً جزئيًا بالغبار. بعناية، وقلبها متسارع النبضات قليلاً، مسحت الغبار بطرف مئزرها، فرأت كلمتين مكتوبتين بحروف كبيرة خرقاء:

إلى الأبد كثيراً

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

لولابی

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

ـ ١ ـ

يوم أن قررت لُولاَبى عدم الذهاب إلى المدرسة من جديد، كان الوقت لا يزال مبكرًا، فى منتصف شهر أكتوبر. غادرت سريرها، اجتازت غرفتها حافية القدمين وأزاحت قليلاً أطراف الستائر لتنظر إلى الخارج. كانت الشمس ساطعة، وحين انحنت قليلاً، تمكنت من رؤية جانب من السماء الزرقاء. فى الأسفل، على الرصيف، كانت ثلاث أو أربع حمامات تتقافز، وقد شعَّثت الريح ريشها. أعلى سطوح السيارات المتوقفة، كان البحر أزرق داكنًا، وكان هناك مركب شراعى أبيض يتقدم بصعوبة. نظرت لُولاَبى إلى كل ذلك، وشعرت بالارتياح لأنها قررت عدم الذهاب مرةً ثانية إلى المدرسة.

عادت إلى منتصف الغرفة، جلست أمام منضدتها، ودون أن تشعل الضوء، بدأت تكتب رسالة.

أبى العزيز، صباح الخير.

www.ibtesama.com

الجو جميل اليوم، والسماء كما أحبها زرقاء جدًا جدًا. كم كنتُ أود أن تكون هنا لرؤية السماء. البحر أيضًا أزرق جدًا جدًا. قريبًا سيحل الشتاء. إنها سنة أخرى طويلة جدًا تبدأ. آمل أن تتمكن من المجيء قريبًا لأنى لا أعلم ما إذا كانت السماء والبحر يستطيعان انتظارك طويلاً. حين استيقظتُ هذا الصباح (منذ أكثر من ساعة الآن) اعتقدت أننى فى اسطنبول من جديد.

لكم أود أن أغمض عينى وحين أفتحهما يكون الوضع كما فى اسطنبول من جديد.

هل تتذكر؟ كنت قد اشتريت باقتين من الزهور، واحدةً لى وواحدةً للأخت لورانس. أزهار كبيرة بيضاء كانت تفوح برائحة قوية (ألهذا نسميه العبير؟). كانت رائحتها قوية إلى حد أننا اضطررنا إلى وضعها فى الحمَّام. قلت لنا إنه يمكننا أن نشرب الماء فيها، وذهبت إلى الحمَّام وشربت طويلاً، فتلفت أزهارى تمامًا. هل تذكُر؟

توقفت لُولاَبى عن الكتابة. كانت تعضعض قليلاً طرف قلمها الجاف، وهى تنظر إلى الورقة الخاصة بكتابة الرسائل. لكنها لم تكن تقرأ. كانت تنظر إلى بياض الورقة، وتفكر أنه ربما سيظهر شىءٌ ما، كعصافير فى السماء، أو مركب أبيض صغير يمر ببطء.

نظرت إلى المنبه فوق المنضدة: الثامنة وعشر دقائق. كان منبه أسفار صغيرًا، مغلفًا بجلد عظاية سوداء لا يحتاج إلى تعبئة إلا مرة كل ثمانية أيام.

www.ibtesama.com

كتبت لُولاَبى على ورقة الرسائل.

أبى العزيز، كم أود أن تأتى لاستعادة المنبه. لقد أعطيته لى قبل مغادرتى طهران وأمى والأخت لورانس قالتا إنه جميل جدًا، أنا أيضًا أراه جميلاً جدًا، لكنى أعتقد أنه لن ينفعنى بعد اليوم. لهذا السبب أريدك أن تأتى لتأخذه. سينفعك من جديد. إنه يعمل بشكل جيد. ولا يصدر أى صوت فى الليل.

وضعت الرسالة فى مظروف للبريد الجوى. قبل أن تغلق المظروف، بحثت عن شىء آخر لتدسه بداخله. لكن لم يكن هناك على المنضدة سوى الورق، وكتب، وفتات بسكويت. ثم كتبت العنوان على المظروف.

السيد بول فيرلاند

ب. ر. و. س. و. م

٨٤ شارع فردوسى

طهران

إيران

وضعت المظروف على حافة المنضدة، وذهبت بسرعة إلى الحمام لتغسل وجهها وأسنانها. كانت تريد أن تأخذ حمامًا باردًا، لكنها خشيت أن يوقظ الضجيج أمها. وهى لا تزال حافية القدمين، عادت إلى غرفتها. ارتدت على عجل، بلوفرًا من الصوف الأخضر، وبنطلونًا من المخمل الأسمر، وسترة بنية. ثم لبست جواربها وحذاءها المرتفع ذا النعال المطاطية.

www.ibtesama.com

مشطت شعرها الأشقر دون أن تنظر إلى نفسها فى المرآة، ثم دست فى حقيبتها كل ما وجدته حولها، وفوق المنضدة وعلى الكرسى: أحمر شفاه، مناديل ورق، قلم رصاص، مفاتيح، وعلبة أسبرين. فهى لم تكن تعلم بالضبط ما الذى يمكن أن تحتاجه، ثم رمت بشكل فوضوى كل ما رأته فى غرفتها: وشاح أحمر ملفوف كالكرة، حامل صور قديم مغطى بفراء الخلد، مطواة، كلب صغير من البورسلين. داخل الخزانة، فتحت علبة أحذية كرتونية وأخذت حزمة من الرسائل. فى علبة كرتونية أخرى، وجدت رسمًا كبيرًا طوته ووضعته مع الرسائل فى حقيبتها. فى جيب معطفها الواقى من المطر، وجدت بعض الأوراق النقدية وحفنة من النقود، رمتها أيضا فى حقيبتها. قبل أن تخرج، عادت إلى المنضدة وأخذت الرسالة التى كانت قد كتبتها. فتحت درج اليسار، وبدأت تفتش بين الأشياء والأوراق، إلى أن وجدت آلة هرمونيكا صغيرة مكتوب عليها

صدى　　　مُغوية　　　ألمانيا　　صُنع فى

ممتازة

ومحفور عليها بحد السكين

ديفيد

نظرت إلى الهرمونيكا لثوان، ثم أسقطتها داخل حقيبتها، مررت حمالة الحقيبة على كتفها الأيمن وخرجت.

www.ibtesama.com

فى الخارج، كانت الشمس دافئة، والبحر والسماء يلتمعان. بحثت لُولاَبى بعينيها عن الحمام، لكنه كان قد اختفى. فى البعيد، قريبًا جدًا من الأفق، كان المركب الشراعى الأبيض يتحرك ببطء، مائلاً فوق البحر.

شعرت لُولاَبى بقلبها يخفق بسرعة كبيرة. كان يختلج ويصدر صوتًا داخل صدرها. لماذا هو على هذه الحال؟ ربما كان منتشيًا بالضوء الكبير للسماء. توقفت لُولاَبى، واستندت على السياج وهى تضم بقوة ذراعيها على صدرها. وقالت بين أسنانها، وهى مستاءة قليلاً:

"إنه يضايقنى!"

ثم استأنفت الطريق، محاولة عدم الاكتراث به.

كان الناس فى طريقهم إلى العمل. كانوا يقودون سياراتهم بسرعة، على طول الشارع الكبير، فى اتجاه وسط المدينة. كانت الدراجات النارية الخفيفة تُصدر أصوات تدحرج كريات. وكان الناس داخل السيارات الجديدة ذات النوافذ المغلقة، يبدون على عجل. لدى مرورهم، كانوا يلتفتون قليلاً لرؤية لُولاَبى. بعض الرجال كانوا يضغطون بحركة خفيفة على الأبواق، لكن لُولاَبى لم تكن تنظر إليهم.

هى أيضًا، كانت تمشى بسرعة فى الشارع، دون أن تحدث أى صوت بنعالها المطاطية. كانت تسير فى الاتجاه المعاكس، نحو التلال والصخور. كانت تنظر

www.ibtesama.com

إلى البحر وهى تقطب عينيها لأنها نسيت أن تحضر نظارتها السوداء. وكان المركب الشراعى الأبيض يبدو كأنه يتبع نفس اتجاهها، بشراعه الكبير متساوى الساقين المنتفخ فى الريح. أثناء سيرها، كانت لُولاَبى تنظر إلى البحر والسماء الزرقاوين، والشراع الأبيض، وصخور رأس البحر، وهى سعيدة جدًا لأنها اتخذت قرار عدم الذهاب إلى المدرسة مرةً ثانية. كان كل شىء جميلاً إلى حد أن المدرسة تبدو كما لو لم تكن موجودةً ذات يوم.

كانت الريح تهب فى شعرها فيتشابك، ريح باردة كانت تخز عينيها وتجعل بشرة خديها ويديها مُحمرَّة. وكانت لُولاَبى ترى أنه السير جيدٌ هكذا، فى الشمس والرياح، دون أن تدرى إلى أين هى ذاهبة.

حين خرجت من المدينة، وصلت إلى درب المُهربين. كان الدرب يبدأ وسط أشجار صنوبر، ويهبط على طول الساحل، حتى الصخور. هناك، كان البحر أجمل، كثيفًا، ومشبعًا بالنور.

تقدمت لُولاَبى على درب المهربين، فرأت أن البحر أكثر قوة. كانت الأمواج القصيرة ترتطم بالصخور، ترمى موجة معاكسة، تتجوف، ثم تعود. توقفت الفتاة الشابة أمام الصخور لتسمع البحر. كانت تعرف جيدًا صوته، الماء الذى يبقبق وينشق، ثم يتجمع من جديد وهو يُفجر الهواء، كانت تحب ذلك كثيرًا، لكنه اليوم بدا وكأنها تسمعه للمرة الأولى. لم

www.ibtesama.com

يكن هناك سوى الصخور البيضاء، والبحر، والرياح، والشمس. كما لو كنا على ظهر سفينة، بعيدًا فى أعالى البحار، حيث تعيش الدلافين وأسماك التونة.

لم تعد لُولاَبى تفكر بالمدرسة. فالبحر هكذا: يمحو أشياء الأرض تلك لأنه أهم ما فى هذا العالم. كان البحر والنور شاسعين، والرياح، والضوضاء العنيفة واللطيفة للأمواج، والبحر يشبه حيوانًا كبيرًا يقوم بتحريك رأسه ويصفق الهواء بذيله.

كانت لُولاَبى بحال جيدة. ظلت جالسة فوق صخرة مسطحة، على حافة درب المهربين، وتتأمل. كانت ترى الأفق الصافى، ذلك الخط الأسود الذى يفصل بين البحر والسماء. لم تعد تفكر بالشوارع، والمنازل، والسيارات، والدراجات النارية.

بقيت وقتًا طويلاً فوق صخرتها. ثم استأنفت سيرها على طول الدرب. لم تعد هناك منازل، فآخر الڤيلات أصبحت وراءها. التفتت لُولاَبى لتنظر إليها، فوجدت أشكالها غريبة، بشبابيكها المغلقة على واجهاتها البيضاء، كأنها نائمة. هنا، لم تعد ثمة حدائق. بين الأحجار، نباتات غريبة كثيفة الأوراق، وكراتٌ منتفشة بالأشواك، وأشجار صبَّار صفراء مليئة بالندوب، صبر، عُليق، ونباتات معترشة. ما من أحد يسكن هنا. ليس سوى عظايات تركض بين مجموعة من الصخور، وزنبورين أو ثلاثة كانوا يطيرون فوق أعشاب تفوح منها رائحة العسل.

www.ibtesama.com

كانت الشمس تسطع بقوة فى السماء. تلتمع الصخور البيضاء، والزبد يبهر كالثلج. هنا، ثمة سعادة، كما فى آخر العالم. لا انتظار لشىء، ولا حاجة لأى شىء. كانت لُولاَبى تنظر إلى الرأس البحرية التى تتسع أمامها، فيما كان الجرف ينكسر عموديًا فوق البحر. كان درب المهربين ينتهى عند حصن ألمانى تحت الأرض، وكان لابد من النزول على طول أخدود ضيق، سفلى. داخل النفق، دفعت الرياح الباردة الفتاة الشابة إلى الارتعاش. كان الجو رطبًا ومظلمًا كأنها داخل مغارة. وجدران الحصن تفوح برائحة العفن والبول. وكانت الناحية الأخرى من النفق تُفضى إلى أرض أسمنتية مسطحة محاطة بجدار واطئ. وقد نمت بعض الأعشاب فى شقوق الأرضية.

أغمضت لُولاَبى عينيها، مبهورةً بالضوء. أصبحت فى مواجهة البحر والرياح تمامًا.

فجأةً، فوق جدار الأرضية المسطحة، لمحت الرموز الأولى. كانت مكتوبة بالطباشير، بحروف كبيرة غير منتظمة كانت تقول:

"اعثروا علَىْ"

نظرت لُولاَبى حولها برهة، ثم قالت، بصوت خفيض:

"حسنًا، لكن مَن تكون؟"

مر خطاف بحر أبيض فوق الأرضية المسطحة وهو يصيح.

www.ibtesama.com

هزت لُولاَبى كتفيها، واستأنفت طريقها. الآن أصبح الأمر أكثر صعوبة، فقد دُمر درب المهربين، ربما أثناء الحرب الأخيرة، من طرف أولئك الذين شيدوا الحصن. كان لابد لها من التسلق والقفز من صخرة إلى أخرى، باستخدام يديها لتتفادى الانزلاق. كان الساحل ينحدر أكثر فأكثر، وفى الأسفل تمامًا، كانت لُولاَبى ترى المياه العميقة، ذات اللون الزمردى، وهى ترتطم بالصخور الكبيرة.

لحُسن الحظ، كانت تعرف جيدًا كيف تمشى وسط الصخور، بل كان ذلك أكثر ما تجيد فعله. كان عليها أن تُقيِّم بنظرها وبسرعة، أن تجد الممرات الجيدة، والصخور التى يمكنها أن تشكل درجات أو مكانًا للقفز، أن تخمن الدروب المؤدية إلى الأعلى: لابد من تجنب الطرق المسدودة، والأحجار الهشة القابلة للتفتت، والشقوق وشجيرات الشوك.

قد يكون هذا تمرينًا لفصل الرياضيات. "بما أن الصخرة تشكل زاوية بمقياس ٤٥ درجة، وتبعد صخرة أخرى بمسافة ٢، ٥٠ مترًا عن أجمة نبات الوزَّال، فمن أين يمر خط التماس؟" كانت الصخور البيضاء شبيهة بالمناضد، وتخيلت لُولاَبى الوجه الصارم للآنسة لورتى وهى جالسة فوق صخرة كبيرة لها شكل شبه منحرف، وظهرها إلى البحر. لكن ربما لم تكن مسألةً لدرس الرياضيات. هنا، كان يجب قبل كل شىء حساب مراكز الثقل. "ارسموا خطًا عموديًا على الأفق للإشارة بوضوح إلى الاتجاه"، هكذا كان يقول

www.ibtesama.com

السيد فيليبى. كان يقف فى حالة توازن فوق صخرة مائلة، ويبتسم بلطف. كان شعره الأبيض يشكل تاجًا فى ضوء الشمس، وخلف نظارات قصر النظر التى يلبسها، كانت عيناه تلتمعان بغرابة.

كانت لُولاَبى سعيدة باكتشافها أن جسمها يجد هو أيضًا حلولاً للمسائل بسهولة. انحنت إلى الأمام، ثم إلى الوراء، تأرجحت على ساق واحدة، ثم قفزت برشاقة، فحطت قدماها فى المكان المراد بالضبط.

"كان ذلك جيِّدًا، جيِّدًا جدًا، يا آنستى"، كان صوت السيد فيليبى يقول فى أُذنها. "الفيزياء علم من علوم الطبيعة، لا تنسى ذلك أبدًا. استمرى على هذا النحو، أنت على الطريق الصحيح".

"نعم، لكن للذهاب إلى أين؟"، همست لُولاَبى.

بالفعل، لم تكن تعلم إلى أين سيقودها كل هذا. توقفت مرةً ثانية لتلتقط أنفاسها ونظرت إلى البحر، لكن هنا أيضًا كان ثمة مسألة، لأنه كان لابد عليها أن تحسب زاوية انعكاس ضوء الشمس على سطح الماء.

"لن أتمكن أبدًا من حلها"، فكرت.

"هيَّا، طبقى قوانين ديكارت"، قال صوت السيد فيليبى فى أذنها.

كانت لُولاَبى تقوم بجهد لتتذكر.

"الشعاع الضوئى المنكسر..".

www.ibtesama.com

"... يبقى دائمًا على السطح العاكس"، قالت لُولاَبى.

فيليبى:

"جيد. القانون الثانى؟"

"حين تتسع زاوية الانكسار، تتسع زاوية السقوط ونسبة جيب زاوية السقوط إلى جيب زاوية الانكسار هى مقدار ثابت".

"ثابت"، قال الصوت. "إذن؟"

"جيب i / جيب r = قيمة ثابتة"

"ومُعامل انكسار الماء؟"

"١،٣٣"

"وقانون فوكو؟"

"مُعامل الانكسار النسبى بين وسطين: هو النسبة بين سرعة الضوء فى الوسط الأول وسرعة الضوء فى الوسط الثانى".

"وبالتالى؟"

"N2/1= v1/v2"

لكن أشعة الشمس كانت تتفجر بلا انتهاء من البحر، وكان ثمة مرور سريع من حالة انكسار الأشعة إلى حالة انعكاس كامل للأشعة، إلى حد أن لُولاَبى لم تتمكن من القيام بالعمليات الحسابية. فكرت فى كتابة رسالة للسيد فيليبى فيما بعد، لتسأله.

www.ibtesama.com

كان الجو شديد الحرارة. بحثت الفتاة عن مكان تستطيع أن تسبح فيه. أبعد قليلاً، عثرت على خليج صغير للغاية، به رصيف متهدم. نزلت لُولاَبى حتى حافة الماء وخلعت ثيابها.

كان الماء بالغ الشفافية، وباردًا. غاصت لُولاَبى بلا تردد، وشعرت بالماء يضيق مسام بشرتها. سبحت مدة طويلة تحت الماء، وعيناها مفتوحتان. ثم جلست على أسمنت الرصيف لتجفف نفسها. الآن، أصبحت الشمس فى محورها العمودى، ولم يعد الضوء ينعكس. كان يلتمع بقوة كبيرة فى قطرات الماء الصغيرة المتشبثة ببشرة بطنها وعلى الزغب الخفيف لفخذيها.

أراحها الماء البارد. فقد غسل الأفكار التى كانت تدور برأسها، ولم تعد الفتاة الشابة تفكر بمسائل خط التماس، ولا بالقيم المطلقة للأجسام. واتتها رغبة فى كتابة رسالة أخرى لأبيها. بحثت عن حزمة الورق فى حقيبتها، وبدأت الكتابة بالقلم الرصاص، أسفل الصفحة تمامًا. كانت يداها المبتلتان تتركان آثارًا على الورقة.

"ل ل ب ى

تقبلك

تعال بسرعة لترانى حيثما أكون!"

ثم كتبت فى منتصف الصفحة:

"إننى أقوم ربما ببعض الحماقات. فلا تؤاخذنى. كنت أشعر فعلاً أننى فى سجن. لا يمكنك أن تعلم.

www.ibtesama.com

حسنًا، ربما تعرف كل هذا، لكنك تمتلك الشجاعة للبقاء، أما أنا فلا. تخيل كل تلك الجدران فى كل مكان، عدد كبير من الجدران إلى حد أنك لن تستطيع عدها، بأسلاك شائكة، وأسيجة، وقضبان حديدية على النوافذ! تخيل الساحة بكل تلك الأشجار التى أكرهها، أشجار الكستناء، والزيزفون، والدلب. خاصةً أشجار الدلب، إنها بشعة، تفقد بشرتها، كأنها مريضة!"

إلى الأعلى قليلاً، كتبت:

"أتعلم، هناك أشياء كثيرة أريدها. كثيرة، كثيرة، أشياء كثيرة أريدها، ولا أعلم إن كنتُ أستطيع أن أقولها لك. إنها أشياء لا يوجد منها الكثير هنا، الأشياء التى كنتُ أحب كثيرًا رؤيتها فى الماضى. العشب الأخضر، الورود، والعصافير، والأنهار. لو كنتَ موجودًا هنا، لكنتَ حدثتنى عنها، ولكنتُ رأيتها تظهر من حولى، لكنى فى الثانوية ولا أحد يعرف الحديث عن هذه الأشياء. البنات غبيات لدرجة محزنة! والأولاد بلهاء! لا يحبون إلا دراجاتهم النارية وستراتهم الرياضية!"

صعدت إلى أعلى الصفحة تمامًا.

"أبى العزيز، صباح الخير. أنا أكتب لك من شاطئ صغير جدًا، إنه صغير لدرجة أنى أعتقد أنه شاطئ لشخص واحد، فيه رصيف مهدم أجلس عليه الآن (كنت أسبح لتوى وكان رائعًا). يود البحر يأكل

www.ibtesama.com

الشاطئ الصغير، يوجه له ضربات بلسانه حتى العمق وبالتالى لا أستطيع أن أبقى جافة! ستكون هناك العديد من بقع ماء البحر على رسالتى، آمل أن يعجبك ذلك. أنا وحيدة تمامًا هنا، لكنى مستمتعة جدًا. لم أعد أذهب مطلقًا إلى الثانوية الآن، لقد قررت، وانتهى الموضوع. لن أذهب أبدًا، حتى لو وضعونى فى السجن. والحقيقة، أنه لن يكون أسوأ".

لم تعد هناك فراغات كثيرة بالصفحة. أخذت لُولآبى تلهو بسد الثغرات، الواحدة تلو الأخرى، بكتابة كلمات، وأجزاء جُمل بصورة عشوائية:

"البحر أزرق"

"الشمس"

"أرسل أزهار الأوركيديا البيضاء"

"كوخ الشاطئ الخشبى، خسارة أنه غير موجود هنا"

"أُكتب لى"

"هناك سفينة تمر، إلى أين تتجه؟"

"أريد أن أكون فوق جبل كبير"

"أخبرنى كيف هو الضوء عندك"

"حدثنى عن صيادى المرجان"

"كيف حال سلوجى؟"

أغلقت المساحات البيضاء الأخيرة بكلمات:

www.ibtesama.com

"طحالب"

"مرآة"

"بعيدًا"

"يراعات"

"الرالى"

"رقاص"

"كزبرة"

"نجمة"

بعد ذلك طوت الورقة ودستها داخل المظروف، مع ورقة عشب تفوح منها رائحة العفن.

حين صعدت عبر الصخور، رأت ـ للمرة الثانية ـ رموزًا غريبة مكتوبة بالطباشير على الصخور. كانت هناك أيضًا سهام تدل على الطريق الذى يجب اتباعه. على صخرة كبيرة مسطحة، قرأت:

"لا تستسلم"

وأبعد قليلاً:

"ربما ينتهى الأمر بشكل يُرثَى له"

نظرت لُولاَبى حولها مرةً ثانية، لكن لم يكن هناك أحد بين الصخور وحتى مرمَى البصر. استأنفت طريقها، تسلقت، ثم نزلت، ثم قفزت فوق الشقوق، وأخيرًا وصلت إلى نهاية الرأس البحرية، حيث كان ثمة مُسطح صخرى، والمنزل اليونانى.

www.ibtesama.com

توقفت لُولاَبى، منبهرة. لم تر فى حياتها منزلاً بهذا الجمال. كان مبنيًا وسط الصخور والنباتات كثيفة الأوراق، مقابل البحر، مربعًا تمامًا وبسيطًا، به شرفة تقوم على ستة أعمدة، ويشبه معبدًا صغيرًا. كان ببياض مبهر، صامتًا، متكورًا فى حضن الجرف الهاوى الذى يحميه من الرياح والأنظار.

اقتربت لُولاَبى من المنزل ببطء، وقلبهَا يخفق بسرعة كبيرة. لم يكن هناك أحد، وهو على الأرجح مهجور منذ سنوات طويلة، لأن الحشائش والنباتات المعترشة قد غزت الشرفة، والتفت نباتات الدودية الأرجوانية حول الأعمدة.

حين كانت لُولاَبى تقترب من المنزل، رأت كلمة محفورة فوق الباب، على جبس البهو المعمد:

ΧΑΡΙΣΜΑ

قرأت لُولاَبى الاسم بصوت عال، وفكرت أنه ما من منزل حمل اسمًا بهذا الجمال من قبل.

كان المنزل محاطًا بسياج من الحديد الصدئ. سارت لُولاَبى على طول السياج بحثًا عن مدخله. وصلت أمام مكان كان فيه السياج مرفوعًا، ومرت من هناك، على يديها وقدميها. لم تكن تشعر بالخوف، رغم أن كل شىء كان صامتًا. مشت لُولاَبى فى الحديقة حتى درجات الشرفة، وتوقفت أمام باب المنزل. بعد لحظة تردد، دفعت الباب. كان داخل المنزل مظلمًا، وكان عليها أن تنتظر إلى أن تعتاد عيناها على

www.ibtesama.com

الظلام. فيما بعد، رأت غرفة واحدة تالفة الجدران، وأرضيتها مليئة بالبقايا، والخرق القديمة والصحف. كان داخل المنزل باردًا أيضًا. على الأغلب، لم تُفتح النوافذ منذ سنوات. حاولت لُولاَبى فتح الشبابيك، لكنها كانت محشورة. وحين اعتادت عيناها تمامًا على الظلام، اكتشفت لُولاَبى أنها لم تكن الوحيدة التى دخلت إلى هنا. كانت الجدران مغطاة بنقوش ورسوم إباحية. أغضبها ذلك، كما لو كان المنزل ملكها بالفعل. بخرقة، حاولت محو النقوش. ثم خرجت إلى الشرفة، وشدت الباب بقوة إلى حد أن مقبضه انكسر وكاد أن يسقط.

لكن فى الخارج، كان المنزل جميلاً. جلست لُولاَبى على الشرفة، ظهرها إلى عمود، ونظرت إلى البحر المقابل لها. كان ذلك رائعًا. ليس هناك سوى صوت الماء والريح التى كانت تهب بين الأعمدة البيضاء. بين جذوع الأعمدة المستقيمة تمامًا، بدا البحر والسماء بلا حدود. كأننا لم نعد فوق الأرض، فهنا لا شىء له جذور. كانت الفتاة الشابة تتنفس ببطء، ظهرها مستقيم تمامًا، ورقبتها مستندة إلى العمود الدافئ، وكل مرة كان يدخل فيها الهواء إلى رئتيها، كانت كأنها ترتفع أكثر فأكثر نحو السماء الصافية، فوق دائرة البحر. كان الأفق خيطًا رفيعًا ينحنى كالقوس، والضوء يرسل أشعته المستقيمة فأصبحنا فى عالم آخر، على حواف موشور.

سمعت لُولاَبى صوتًا حملته الرياح، كان يتكلم قرب أذنيها. لم يكن صوت السيد فيليبى، إنما صوت

www.ibtesama.com

قديم جدًا، عَبر السماء والبحر. كان الصوت الرخيم والخفيض قليلاً يتردد صداه حولها، في الضوء الدافئ، ويكرر الاسم الذي كانت تحمله في الماضي، الاسم الذي كان قد أطلقه عليها والدها ذات يوم، قبل أن تغط في النوم.

"أريل...أريل.."

بصوت خفيض في البداية، ثم بصوت يعلو أكثر فأكثر، بدأت لُولاَبي تغني الأنشودة التي لم تنسها منذ سنوات طويلة:

"حيثما تمتص النحلةُ الرحيق، أمتصه أنا؛

في كأس زهرة الحقل أستلقي:

هناك أرقد حين يصيح البوم.

وعلى ظهر الخفاش أطير

بمرح بعد الصيف:

بمرح، بمرح سأعيش الآن،

تحت الازدهار المعلق في الأغصان" .

كان صوتها الصافي يمتد في الفضاء الحر، ويحملها فوق البحر. كانت ترى كل شيء، فيما وراء السواحل الضبابية، وفيما وراء المدن والجبال. كانت ترى الطريق الشاسع للبحر، حيث كانت تسير صفوف الأمواج، كانت ترى كل شيء حتى الضفة الأخرى، رقعة الأرض الطويلة الرمادية المظلمة حيث تزدهر

www.ibtesama.com

غابات الأرز، وأبعد قليلاً، كالسراب، قمة كوها-يى-ألبوز المغطاة بالثلج.

ظلت لُولآبى جالسة لفترة طويلة وهى مستندة على العمود، وتنظر إلى البحر وتغنى لنفسها كلمات أغنية أرييل، وأغنيات أخرى اخترعها والدها. بقيت هناك إلى أن أصبحت الشمس قريبة من خيط الأفق وصار البحر بنفسجيًا. عندئذ، غادرت المنزل اليونانى، وعادت للمشى على درب المهربين نحو المدينة. حين وصلت قرب الحصن، لمحت ولدًا صغيرًا كان عائدًا من الصيد. التفت كى ينتظرها.

"مساء الخير!"، قالت لُولآبى.

"مرحبا!"، قال الولد الصغير.

كان وجهه جادًا وعيناه مخبأتين خلف نظارة. كان يحمل عصا صيد طويلة وجراب صيد، ويعقد حذاءه حول رقبته ليمشى.

تمشيا معًا، وهما يتحدثان قليلاً. حين وصلا إلى آخر الدرب، ولأن النهار كان ما يزال يتسع لبضع دقائق، جلسا على الصخور لرؤية البحر. لبس الولد حذاءه. وروى للُولآبى قصة نظارته. قال إنه ذات يوم، منذ بضع سنوات، أراد أن يرى كسوفًا للشمس، وأنه-منذ ذلك الحين- تركت الشمس علامتها فى عينيه.

فى تلك الأثناء، غربت الشمس. شاهدا المنارة حين أضاءت، ثم الفوانيس وأضواء مواضع الطائرات. أصبح البحر أسود. عندئذ نهض الولد الصغير

www.ibtesama.com

صاحب النظارة أولاً. تناول عصاه وجرابه وحيا لُولاَبى بإشارة يد قبل أن يرحل.

عندما ابتعد قليلاً، صاحت لُولاَبى قائلة له:

"ارسم لى رسمًا، غدًا!"

أشار الولد الصغير بالإيجاب برأسه.

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

- ٢ -

ظلت لُولاَبى تتردد على المنزل اليونانى لعدة أيام. كانت تحب كثيرًا لحظة رؤيتها لذلك الخيال الأبيض، والغامض الذى كان يشبه سفينة مربوطة إلى رصيف، بعد تقافزها فوق كل تلك الصخور، وانقطاع أنفاسها بسبب التسلق والركض فى كل مكان، وانتشائها قليلاً بالضوء والرياح. كان الجو جميلاً جدًا فى تلك الأيام، وكان البحر والسماء زرقاوين، والأفق صافيًا لدرجة أنه كان يمكن رؤية ذروة الأمواج. حين وصلت لُولاَبى إلى المنزل، توقفت، وبدأ قلبها يدق بسرعة أكثر فأكثر، وشعرت بحرارة غريبة فى عروق جسدها، فلا شك أن هناك سرًا ما فى ذلك المكان.

خفتت الريح فجأة، فأحست بكل ضوء الشمس يلفها برقة، ويكهرب بشرتها وشعرها. تنفست بعمق أكبر، مثلما نفعل استعدادًا للسباحة تحت الماء لمدة طويلة.

www.ibtesama.com

ببطء، دارت حول السياج، حتى وصلت إلى الفتحة. اقتربت من المنزل، وهى تنظر إلى الأعمدة الستة المستقيمة البيضاء. بصوت عال، قرأت الكلمة السحرية المحفورة على جبس البهو المُعمَّد، وربما بسبب تلك الكلمة كان هناك كل ذلك القدر من السكينة والضوء:

"كاريزما..."

كانت الكلمة تُشع داخل جسدها، كأنها مكتوبة بداخلها أيضًا، وكأنها تنتظرها. جلست لُولاَبى على أرضية الشرفة، ظهرها مستند على آخر عمود من الناحية اليمنى، وأخذت تنظر إلى البحر.

كانت الشمس تحرق وجهها. وكانت أشعة الضوء تخرج منها، من أصابعها، من عينيها، من فمها، ومن شعرها، فانضمت لبريق الصخور والبحر.

كان ثمة صمت، أو بالأحرى، صمت كبير وقوى إلى حد أن لُولاَبى تولد لديها انطباع بأنها ستموت. بسرعة خاطفة، انسحبت الحياة منها ورحلت، ذهبت إلى السماء وإلى البحر. كان أمرًا يستعصى على الفهم، لكن لُولاَبى كانت متأكدة بأن الموت هو بهذا الشكل. بقى جسدها حيثما كان، فى وضعية الجلوس، والظهر مستند على العمود الأبيض، والكل ملتف بالحرارة والضوء. لكن الحركات راحت تختفى، تتحلل أمامها. ولم تكن قادرة على استبقائها. كانت تشعر بكل ما كان يفارقها، ويبتعد عنها بسرعة هائلة كتحليق

www.ibtesama.com

الزرازير، أو كزوابع الغبار. كل حركات ذراعيها ورجليها، والرجفات الداخلية، والرعشات، والانتفاضات. كان كل ذلك يذهب بسرعة، نحو الأمام، منطلقًا فى الفضاء نحو الضوء والبحر. رغم ذلك كان الأمر ممتعًا، ولم تكن لُولاَبى تقاومه. لم تغمض عينيها. ببؤبؤين متسعين، كانت تنظر أمامها، دون أن يرف جفناها، تنظر إلى نفس النقطة، على الخيط الرفيع للأفق، حيث كانت توجد الثنية بين السماء والبحر.

تباطأ تنفسها أكثر فأكثر، وفى صدرها، كان القلب يباعد نبضاته، الهوينى، الهوينى. لم تعد هناك حركة تقريبًا، وتقريبًا ما من حياة بداخلها، ليس سوى نظرتها التى كانت تتسع، وتمتزج بالفضاء كحزمة من الضوء. شعرت لُولاَبى أن جسدها ينفتح، ببطء شديد، كالباب، وانتظرت أن تلتحق بالبحر. كانت تعلم أنها سترى ذلك قريبًا، لذلك لم تكن تفكر بشىء، ولم تكن تريد شيئًا آخر. ظل جسدها بعيدًا فى الخلف، وكان يشبه الأعمدة البيضاء والجدران المغطاة بالجبس، ساكنًا، صامتًا. كان هذا هو سر المنزل. الوصول إلى أعلى البحر، إلى قمة الحائط الأزرق الكبير، فى المكان الذى يُمكن منه، أخيرًا، رؤية ما يوجد فى الجانب الآخر. كانت نظرة لُولاَبى ممتدة، تحلق فوق الهواء، والضوء، والماء.

لم يصبح جسدها باردًا، كأجساد الموتى فى حجراتهم. فقد استمر الضوء فى الدخول، إلى أعماق

www.ibtesama.com

أعضائها، وحتى داخل عظامها، فكانت تعيش على نفس درجة حرارة الجو، مثل العظايات.

كانت لُولاَبى تمتزج مع ما يحيط بها، كسحابة، كغاز. كانت شبيهة برائحة أشجار الصنوبر التى أدفأتها الشمس، فوق التلال، شبيهة برائحة الأعشاب التى تفوح برائحة العسل. كانت رذاذ الأمواج حيث كان يلتمع قوس قزح خاطف. كانت الريح، الهبوب البارد القادم من البحر، النسمة الدافئة كالنَفس المنبعث من طين متخمر أسفل الأشجار. كانت الملح، الملح الذى يلتمع كالجليد فوق الصخور العتيقة، أو ملح البحر، ذلك الملح الكثيف واللاذع للأودية تحت البحرية. لم تعد هناك لُولاَبى واحدة تجلس على شرفة منزل يونانى قديم متهدم. كُن كثيرات بعدد شرارات الضوء الملتمعة على الأمواج.

كانت لُولاَبى ترى بكل أعينها، ومن كل النواحى. رأت أشياء لم تكن لتتخيلها فى الماضى. أشياء صغيرة جدًا، مخابئ الحشرات، وسراديب الديدان. وأوراق النباتات كثيفة الورق، وجذورها. رأت أيضًا أشياءً كبيرة جدًا، ظَهر السُّحُب، والنجوم خلف حجاب السماء، والقباب القطبية، والوديان الشاسعة والقمم اللانهائية لأغوار البحر. كانت ترى كل هذا فى وقت واحد، وكانت كل نظرة تستمر شهورًا، سنوات. لكنها كانت ترى دون أن تعى، لأن حركات جسدها، المنفصلة، هى ما كان يجوب الفضاء أمامها.

www.ibtesama.com

كان ذلك يبدو كأنها تستطيع أخيرًا، بعد الموت، أن تختبر القوانين التى تُشكل العالم. كانت قوانين غريبة لا تشبه مطلقًا تلك المدونة فى الكتب والتى نحفظها عن ظهر قلب فى المدرسة. هناك قانون الأفق الذى يجتذب الجسم، قانون طويل جدًا ونحيل جدًا، خيط واحد صلب يوحد بين الكوكبين المتحركين، السماء والبحر. فى ذلك المكان، كان كل شىء يولد، ويتضاعف، مشكلاً تحليق أرقام ورموز كانت تعتم الشمس وتبتعد باتجاه المجهول. هناك أيضًا قانون البحر، بلا بداية ولا نهاية، حيث تنكسر أشعة الضوء. هناك قانون السماء، وقانون الرياح، وقانون الشمس، لكننا لا يمكن أن ندركها، لأن رموزها لم تكن ملكًا للبشر.

فيما بعد، حين استيقظت لُولاَبى، حاولت أن تتذكر ما رأته. كم كانت تود لو تمكنت من كتابة كل هذا للسيد فيليبى، فلربما كان بمقدوره أن يدرك ما كانت تعنيه كل تلك الأرقام والرموز. لكنها لم تجد سوى شذرات جمل، كررتها بصوت عال:

"المكان الذى نرى منه البحر".

"نُقط ارتكاز الأفق".

"عجلات (أو طرقات) البحر".

وكانت تهز كتفيها، لأنها لم تكن تعنى شيئًا.

بعد ذلك، تركت لُولاَبى مكانها، خرجت من حديقة المنزل اليونانى ونزلت نحو البحر. عادت الرياح فجأةً، وبدأت تهز شعرها وملابسها بشدة، كأنها تعيد كل شىء إلى مكانه.

www.ibtesama.com

كانت لُولاَبى تحب كثيرًا هذه الرياح. كانت تريد أن تعطيها أشياء، فغالبًا ما تحتاج الرياح إلى طعام، الأوراق، والغبار، وقبعات الرجال أو القطرات الصغيرة التى تنتزعها من البحر والسُّحُب.

جلست لُولاَبى فى تجويف صخرة كانت لصيقةً بالماء، إلى حد أن الأمواج كانت تأتى لتَلعق قدميها. وكانت الشمس تسطع فوق البحر، وتُبهرها بانعكاسها على أطراف الأمواج.

لم يكن سوى الشمس، والبحر والرياح، ولُولاَبى التى تناولت مجموعة الرسائل من حقيبتها. كانت تسحبها الواحدة تلو الأخرى وهى ترفع الأستيك، قرأت بعض الكلمات، وبعض العبارات بصورة عشوائية. لم تكن تفهمها أحيانًا، فكانت تعيد قراءتها بصوت عال لتكون القراءة أكثر فاعلية.

"... الأقمشة الحمراء التى ترفرف كالأعلام..".

"زهور النرجس الصفراء فوق مكتبى، قرب نافذتى، هل ترينها، يا أرييل؟"

"أنا أسمع صوتك، إنك تتكلمين فى الهواء..".

"... أرييل، أغنية أرييل..".

" إنها لك، كى تتذكرينى دائمًا".

رمت لُولاَبى بالأوراق فى الرياح. كانت تذهب بسرعة مع صوت تمزق، تطير لبرهة فوق البحر، وهى تترنح كفراشات وسط زوبعة. كانت أوراق مراسلة

www.ibtesama.com

فاتحة الزرقة، ثم اختفت فجأةً فى البحر. كان جميلاً، رمْى الأوراق فى الرياح، وبعثرة كل تلك الكلمات، التى كانت لُولاَبى تنظر إلى الرياح وهى تأكلها بسعادة.

كانت تريد إشعال نار. بحثت وسط الصخور عن مكان لا تهب فيه الرياح بقوة. أبعد قليلاً، عثرت على الخليج الصغير برصيفه المتهدم، فظلت هناك.

كان المكان المناسب لإشعال النار. كانت الصخور البيضاء تحيط بالرصيف، فلم تكن لهبات الريح أن تصل إليه. أسفل الصخرة، كان ثمة تجويف جاف ودافئ، وسرعان ما تعالت ألسنة النار، خفيفة، شاحبة، مع حفيف رهيف. كانت لُولاَبى تعطيها أوراقًا جديدة باستمرار. فتشتعل بسرعة، لأنها كانت جافة جدًا ورقيقة وتحترق بسرعة.

كان جيدًا رؤية الصفحات الزرقاء وهى تتلوى فى اللهيب، والكلمات تهرب القهقرى، لا ندرى إلى أين. فكرت لُولاَبى أن والدها كان لَيود الحضور لرؤية رسائله تحترق، لأنه لم يكن يكتب كلمات لتبقى. كان قد قال لها ذلك ذات يوم، على الشاطئ، ووضع رسالة فى قارورة زرقاء قديمة، وأطاح بها بعيدًا فى البحر. كان قد كتب الكلمات لها وحدها فحسب، كى تقرأها وتسمع نبرة صوته، والآن، أصبحت تلك الكلمات قادرة على العودة إلى المكان الذى أتت منه، هكذا، بسرعة، فى شكل ضوء ودخان، فى الهواء، وأن تصبح لامرئية. ربما كان لشخص ما، من الناحية الأخرى للبحر، أن

www.ibtesama.com

يرى الدخان الصغير واللهيب الذى يلتمع كالمرآة، ويفهم.

غذَّت لُولاَبى النار بقطع خشبية صغيرة، وأغصان، وطحالب جافة، ليستمر اللهيب أطول مدة ممكنة. كان ثمة كل أنواع الروائح الهاربة فى الهواء، الرائحة الخفيفة والمسكرة قليلاً لورق المراسلات، والرائحة القوية للفحم والحطب، والدخان الكثيف للطحالب.

كانت لُولاَبى تنظر إلى الكلمات التى تذهب بسرعة، بسرعة بالغة إلى حد أن تعبر العقل كالبروق. من حين إلى آخر، كانت تتعرف على بعضها لدى مرورها، مشوهة وغريبة، بعد أن لوتها ألسنة النار، فتضحك قليلاً:

"مططططرر!"

"سفنة!"

"إيبيلان"

"إيتيتيتى!"

"أوبيل، إيال، إيبيل..."

فجأةً، أحست بحضورٍ ما خلفها، فالتفتت. كان الولد الصغير صاحب النظارة ينظر إليها، واقفًا فوق صخرة أعلى الرصيف الذى كانت تجلس عليه. كان أيضًا يحمل عصا الصيد، وحذاؤه مربوط حول عنقه.

"لماذا تحرقين الأوراق؟"، سأل.

ابتسمت له لُولاَبى.

www.ibtesama.com

"لأن ذلك ممتع"، قالت. "انظر!"

أشعلت ورقة زرقاء كبيرة كان بها رسم لشجرة.

"إنها تشتعل جيدًا"، قال الولد الصغير.

"أرأيت، كانت ترغب بشدة فى الاحتراق"، أضافت لُولاَبى. "كانت تنتظر ذلك منذ أمد بعيد، وكانت جافة كأوراق الشجر الميتة، لهذا السبب تشتعل بشكل جيد".

وضع الولد الصغير صاحب النظارة عصا الصيد على الأرض، وذهب للبحث عن أغصان للنار. استمتعا بعض الوقت بإحراق كل ما استطاعا إحراقه. أصبحت يدا لُولاَبى سوداء بالدخان، وبدأت عيناها تحرقانها. كان الاثنان متعبين ولاهثين لقيامهما بإذكاء النار. ثم بدت النار هى أيضًا متعبة. أصبحت ألسنتها قصيرة، وانطفأت الأغصان والأوراق الواحدة تلو الأخرى.

"ستنطفئ النار"، قال الولد الصغير وهو يمسح نظارته.

"لأنه لم تعد هناك رسائل، هى ما كانت النار تريدها".

أخرج الولد الصغير من جيبه ورقة مطوية على أربع.

"ما هذا؟"؛ سألت لُولاَبى. أخذت الورقة وفتحتها. كان رسمًا يمثل امرأة بوجه أسود. تعرفت لُولاَبى على بلوفرها الأخضر.

www.ibtesama.com

"أهذا الرسم لى؟"

"رسمته لك"، قال الولد الصغير."لكننا نستطيع إحراقه".

لكن لُولاَبى طوت الرسم مرةً ثانية ونظرت إلى النار وهى تنطفئ.

"ألا تريدين إحراقه الآن؟"، سأل الولد الصغير.

"لا، ليس اليوم"، قالت لُولاَبى.

بعد النار، جاء دور الدخان لينطفئ. وبدأت الرياح تذرو الرماد.

"سأحرقه عندما أحبه كثيرا"، قالت لُولاَبى.

بقيا جالسين فوق الرصيف مدة طويلة، وهما ينظران إلى البحر، تقريبًا بلا كلام. كانت الرياح تمر فوق البحر، مثيرة قطرات الرذاذ التى كانت تقرص وجهيهما. كانا كأنهما جالسان فى مقدمة سفينة، فى عرض البحر. لم يكن يُسمع سوى وشيش الأمواج والحفيف الممتد للرياح.

حين أصبحت الشمس فى موضعها الخاص عند منتصف اليوم، نهض الولد الصغير وتناول عصاه وحذاءه.

"أنا ذاهب"، قال.

"ألا تريد البقاء؟"

"لا أستطيع، لابد أن أعود إلى البيت".

www.ibtesama.com

نهضت لُولاَبى، هى أيضًا.

"أستبقين هنا؟"؛ سأل الولد الصغير.

"لا، سأنتقل إلى هناك، أبعد قليلاً"

أشارت إلى الصخور، فى آخر الشاطئ.

"هناك، منزل آخر، لكنه أكبر بكثير، كأنه مسرح"، شرح الولد الصغير لِلُولاَبى. "لابد أن تتسلقى الصخور، ويمكنك بالتالى الدخول، من الأسفل".

"هل ذهبت إليه من قبل؟"

"نعم، عدة مرات، إنه جميل، لكن الوصول إليه صعب".

وضع الولد الصغير صاحب النظارة حذاءه حول عنقه وابتعد بسرعة.

"إلى اللقاء!"، قالت لُولاَبى.

"إلى اللقاء!"، قال الولد الصغير.

تمشت لُولاَبى باتجاه الرأس البحرية. كانت تركض تقريبًا، وتقفز من صخرة إلى أخرى. لم يعد هناك طريق، فى ذلك المكان. كان لابد من تسلق الصخور. بالتشبث بجذور الخلنج والأعشاب. كانت بعيدة، تائهة وسط الصخور البيضاء، معلقة بين السماء والبحر. ورغم برودة الرياح، كانت لُولاَبى تشعر بلسعة الشمس. كانت تتعرق تحت ثيابها. ضايقتها حقيبتها، قررت أن تخبئها فى مكان ما، لتستعيدها فيما بعد. دفنتها فى حفرة فى الأرض،

www.ibtesama.com

أسفل شجرة صَبر. وأغلقت المخبأ بدفع حجرين أو ثلاثة.

الآن، أصبح البيت الأسمنتى الغريب الذى تحدث عنه الولد الصغير أعلى رأسها. للوصول إليه، كان لابد من الصعود على كومة أنقاض. كان ذلك الركام الأبيض يلتمع فى نور الشمس. ترددت لُولاَبى للحظات، لأن كل شىء كان غريبًا جدًا وصامتًا جدًا فى هذا المكان. أعلى البحر، متشبثة بالحواف الصخرية، لم يكن ثمة نوافذ فى الجدران الإسمنتية الطويلة.

حلق طائر البحر فى دوائر فوق الأنقاض. فانتابت لُولاَبى فجأةً الرغبة فى أن تكون فى الأعالى. بدأت تتسلق على طول الأنقاض. كانت نتوءات الحجارة تقطع يديها وركبتيها، وانزلق خلفها فتات الأحجار كانهيار صغير. حين وصلت إلى الأعلى تمامًا، التفتت لترى البحر، فاضطرت لإغماض عينيها حتى لا تشعر بالدوار. فوقها، وإلى أبعد ما يمكن أن يُرى، لم يكن هناك سوى البحر الشاسع الأزرق، الذى كان يُترع الفضاء حتى الأفق المتسع، وكان كسقف بلا انتهاء، قبة عملاقة مصنوعة من المعدن الداكن، حيث كانت تتحرك كل تموجات الأمواج. فى بعض الأماكن، كانت الشمس تضىء فوق لُولاَبى، فترى البقع ومسارات التيارات، وغابات الطحالب، وآثار الزبَد. كانت الرياح تكسح البحر بلا توقف، وتصقل واجهته.

www.ibtesama.com

فتحت لُولاَبى عينيها فرأت كل شىء، وهى متشبثة بالصخور بأظافرها. كان البحر بالغ الجمال إلى حد أنه بدا لها كأنه يجتاز رأسها وجسدها بسرعة خاطفة، ويدفع بقوة آلاف الأفكار فى وقت واحد.

ببطء، وحذر، اقتربت لُولاَبى من الأنقاض. كانت تمامًا كما قال الولد الصغير صاحب النظارة، شيئًا شبيهًا بالمسرح، يضم جدرانًا كبيرة من الأسمنت المسلح. بين الجدران العالية نمت النباتات، عليق ونباتات متعرشة غطت الأرضية بالكامل. فوق الجدران، كان ثمة سقف من بلاط الخرسانة، متهاو فى بعض الأماكن. كانت رياح البحر تندفع من الفتحات، ومن كل نواحى المبنى العتيق، مع هبات عنيفة كانت تحرك الأجزاء الحديدية لهيكل السقف. كانت الصفائح المعدنية تتصادم مصدرةً موسيقى غريبة، فبقيت لُولاَبى ساكنة لتسمعها. كانت كصيحات خطاطيف البحر وهدير الأمواج. موسيقى غريبة خيالية وبلا إيقاع تسبب الارتعاش. استأنفت لُولاَبى سيرها. على طول الجدار الخارجى، كان ثمة درب ضيق يعبر أجمة، ويؤدى إلى سلالم متهدمة جزئيًا. صعدت لُولاَبى درجات السلالم، فوصلت إلى أرضية مسطحة، تحت السقف، حيث كان يُرى البحر من خلال إحدى الفتحات. هناك جلست لُولاَبى، فى مواجهة الأفق تمامًا والشمس، ونظرت من جديد إلى البحر. ثم أغمضت عينيها.

www.ibtesama.com

فجأةً، ارتعدت، لأنها أحست بقدوم شخصٍ ما.
لم يكن هناك سوى صوت الرياح وهى تحرك صفائح السقف الحديدية، رغم ذلك أحست بخطر محدق. فى الطرف الآخر من الأنقاض، وعلى الدرب وسط العليق، كان ثمة شخص قادم بالفعل. كان رجلاً يرتدى بنطلونًا قطنيًا أزرق وسترة، مُسود الوجه بالشمس، وشعره أشعث. كان يمشى بلا صوت، ويتوقف من حين إلى آخر، كأنه يبحث عن شىءٍ ما. بقيت لُولاَبى ساكنة ملتصقة بالجدار، وقلبها يخفق، آملة ألا يكون قد رآها. كانت تعلم أن الرجل يبحث عنها، لكنها لم تكن تعرف لماذا. حبست أنفاسها، كى لا يسمعها. لكن الرجل- حين بلغ منتصف الدرب - رفع رأسه بهدوء، ونظر إلى الفتاة الشابة. كانت عيناه الخضراوان تومضان بشكل غريب فى وجهه الداكن. ثم، وبلا استعجال، استأنف سيره باتجاه السلالم. لم يعد بمقدورها الآن أن تهبط، فبقفزة واحدة، خرجت لُولاَبى من الفتحة وصعدت إلى السقف. كانت الرياح تهب بقوة كبيرة إلى حد أنها كادت أن تقع. ركضت، بأقصى سرعة ممكنة، نحو الطرف الآخر من السقف، فسمعت وقع أقدامه يطن فى القاعة الكبيرة المتهدمة. كان قلبها يخفق بقوة فى صدرها. حين وصلت إلى آخر السقف، توقفت: فأمامها، كان ثمة هوة كبيرة تفصلها عن جدار الجرف. أرهفت السمع من حولها. لم يكن هناك سوى صوت الرياح على الصفائح الحديدية للسقف، لكنها كانت تعلم أن الغريب لم يكن

www.ibtesama.com

بعيدًا؛ كان يركض على الدرب وسط العُليق ليدور حول الأنقاض ويفاجئها من الناحية العكسية. عندئذ قفزت لُولاَبى. وهى تسقط فوق منحدر الجرف، التوى كاحل رجلها اليسرى، شعرت بالألم؛ فصرخت فقط:

"آه!"

ظهر الرجل أمامها، دون أن تفهم من أين أتى. كان يلهث قليلاً، ويداه مجروحتان من العليق. بقى ساكنًا أمامها، وعيناه الخضراوان متصلبتان كقطعتين صغيرتين من الزجاج. أكان من كتب العبارات بالطباشير على الصخور، على طول الطريق؟ أم أنه هو من دخل إلى المنزل اليونانى الجميل، ودنس جدرانه بكل تلك الكتابات الإباحية؟ كان بالغ القُرب من لُولاَبى إلى حد أنها كانت تشم رائحته، رائحة ماسخة لاذعة بالعرق الذى شبَّع ملابسه وشعره. فجأةً، خطا إلى الأمام، وفمه مفتوح، وعيناه مزمومتان. ورغم آلام كاحلها، قفزت لُولاَبى وهبطت المنحدرِ بسرعة فائقة، وسط تساقط الأحجار. حين وصلت إلى أسفل الجرف، توقفت والتفتت. كان الرجل واقفًا، أمام الجدران البيضاء للأنقاض، ذراعاه مفتوحتان، كما فى التوازن.

كانت الشمس تضرب البحر بقوة، وبفضل الرياح الباردة، أحست لُولاَبى بأنها استعادت قواها. أحست أيضًا بالاشمئزاز والغضب، اللذين حلا محل الخوف. ثم فجأةً، أدركت أن لا شىء يمكن أن يصيبها. فثمة

www.ibtesama.com

الرياح، والبحر، والشمس. تذكرت ما كان قد قاله لها والدها، ذات يوم، بخصوص الرياح، والبحر، والشمس، كانت جملة طويلة تتحدث عن الحرية والفضاء، أو شيء من هذا القبيل. توقفت لُولاَبى فوق صخرة لها شكل صدر سفينة تبحر فى عرض البحر، وقلبت رأسها إلى الوراء لتشعر بدفء الضوء على جبينها وجفنيها بشكل أفضل. والدها هو من علمها هذه الحركة، لاستعادة القوى، كان يسمى ذلك "الاستشفاء بالشمس".

نظرت لُولاَبى إلى البحر الذى كان يتأرجح تحتها، ويضرب قاعدة الصخرة، ويصنع دوامات وأسرابًا من الفقاعات الهاربة. تركت نفسها تغوص، رأسها أولاً، ثم دخلت بالكامل فى الموجة. لفتها المياه الباردة وهى تضغط على طبلتى أذنيها ومنخاريها، ورأت فى عينيها بريقًا مبهرًا. حين صعدت إلى السطح، هزت شعرها وأطلقت صيحة. بعيدًا، من خلفها، وكسفينة شحن رمادية عملاقة، كانت الأرض تهتز، محملة بالحجارة والنباتات. فى القمة، كان المنزل الأبيض المتهدم يشبه جسرًا مفتوحًا على السماء.

تركت لُولاَبى نفسها لتحملها الأمواج لبرهة فى حركتها البطيئة، فيما التصقت ثيابها بجسدها كالطحالب. ثم بدأت تسبح بطريقة الكُرول، لمسافة طويلة، باتجاه عرض البحر، إلى أن تناءت الرأس البحرية لتسمح بالرؤية، عن بعد، للخط الشاحب لأبنية المدينة التى ظهرت بالكاد فى غبش الحر.

www.ibtesama.com

ـ ٣ ـ

لم يكن من الممكن أن يستمر هذا الوضع إلى الأبد. وكانت لُولاَبى تعلم ذلك جيدًا. فبدايةً، كان هناك كل أولئك الناس، فى المدرسة، وفى الشارع. كانوا يحكون أشياء، ويتكلمون كثيرًا. بل كانت هناك فتيات يستوقفن لُولاَبى ليقلن لها إنها تبالغ كثيرًا، وإن المديرة وكل الناس يعلمون جيدًا أنها ليست مريضة. ثم كان هناك أيضًا كل تلك الرسائل التى تطالب بإيضاحات. كانت لُولاَبى قد فتحت الرسائل، وردت عليها موقعةً باسم أمها؛ بل اتصلت ذات يوم أيضًا، بمكتب المراقب مغيرةً صوتها لتشرح له أن ابنتها مريضة، مريضة جدًا، وأنها لا تستطيع متابعة الدروس.

لكن هذا الوضع لم يكن ممكنًا أن يستمر، فكرت لُولاَبى. وكان السيد فيليبى قد كتب لها رسالة، لم تكن طويلة، لكنها كانت غريبة طالبها فيها بالعودة. كانت

www.ibtesama.com

لُولاَبى قد وضعت الرسالة فى جيب سترتها، وتحملها معها دائمًا. كانت تود فعلاً الرد على السيد فيليبى، لتشرح له الأمر، لكنها كانت تخشى أن تقرأ المديرة الرسالة، وتكتشف أن لُولاَبى لم تكن مريضة، إنما تتجول.

فى الصباح، حين خرجت لُولاَبى من الشقة، كان الجو رائعًا. كانت أمها ما تزال نائمة، بسبب الأقراص التى كانت تتناولها كل مساء، منذ الحادث الذى وقع لها. دخلت لُولاَبى الشارع، فبهرها الضوء.

كانت السماء شبه بيضاء، والبحر يتلألأ. كباقى الأيام، اتخذت لُولاَبى درب المهربين. كانت الصخور البيضاء تبدو كجبال جليدية منتصبة فوق الماء. سارت لُولاَبى مدة طويلة على الشاطئ، منحنيةً قليلاً إلى الأمام لمواجهة الرياح. لكنها لم تعد تجرؤ على الذهاب إلى الأرض الأسمنتية المسطحة، فى الجانب الآخر للحصن. كم كانت تود رؤية المنزل اليونانى ذى الأعمدة الستة من جديد، لتجلس وتترك نفسها لتُحمل إلى مركز البحر. لكنها كانت تخشى أن تلتقى بالرجل ذى الشعر الأشعث الذى كان يكتب على الجدران والصخور. اكتفت بالجلوس فوق حجر، على حافة الدرب، وحاولت أن تتخيل المنزل. كان بالغ الصِّغر متكورًا فى الجرف، بابه وشبابيكه مغلقة. ربما من الآن فصاعدًا لن يدخل أحد ذلك المنزل. أعلى الأعمدة، على تاجها مثلث الشكل، كان اسم المنزل مضاء بالشمس، ولا يزال يقول:

www.ibtesama.com

ΧΑΡΙΣΜΑ

لأنه أجمل اسم فى العالم

متكئة على الصخرة، نظرت لُولاَبى مرةً أخرى، ولوقت طويل، إلى البحر، كأنها لن تراه ثانيةً. كانت الأمواج المتراصة تتحرك، حتى الأفق، والضوء يتلألأ فوق ذراها، كالزجاج المطحون. كانت الرياح المالحة تهب، والبحر يهدر بين حواف الصخور، وأغصان الشجيرات تصفر. استسلمت لُولاَبى مرةً أخرى للنشوة الغريبة للبحر والسماء الخالية. بعد ذلك، عند الظهيرة، أدارت ظهرها إلى البحر وركضت إلى الطريق المؤدى إلى وسط المدينة.

فى الشوارع، لم تكن الرياح ذاتها. كانت تدور حول نفسها، تمر فى هبات تصفق الشبابيك وتثير سُحبًا من الغبار. لم يكن الناس يحبون الرياح. كانوا يعبرون الشوارع فى استعجال، ويحتمون بزوايا الجدران.

كهربت الرياح والجفاف الجو. فكان الرجال يتقافزون بعصبية، يتشاتمون، يتصادمون، وأحيانًا، على القارعة السوداء للطريق، كانت سيارتان تسحقان بعضهما البعض مع ضجيج كبير للمعدن والأبواق المحشورة.

كانت لُولاَبى تمشى فى الشوارع بخطًى واسعة، وعيناها شبه مغمضتين بسبب الغبار. حين وصلت إلى وسط المدينة، كانت رأسها تدور كأنها أصيبت بالدوار.

www.ibtesama.com

كانت الحشود تذهب وتجىء، تدور كأوراق أشجار ميتة فى زوبعة. وكانت مجموعات الرجال والنساء تلتم، تفترق، ثم تتشكل من جديد فى مكان آخر، كبرادة الحديد فى مجال مغناطيسى. إلى أين كانوا يذهبون؟ ماذا كانوا يريدون؟ مر وقت طويل لم تر فيه لُولاَبى كل هذا الكم من الوجوه، والأعين والأيادى، إلى حد أنها لم تعد تفهمها. كانت الحركة البطيئة للحشود، على طول الأرصفة، تسحبها، تدفعها إلى الأمام دون أن تدرى إلى أين كانت تتجه. كان الناس يمرون بالقرب منها، فتشم أنفاسهم، وتحس بملامسة أيديهم لها. مال رجل على وجهها وهمس بشىءٍ ما، لكنه كان كأنما يتحدث بلغة مجهولة.

دون انتباه، دخلت لُولاَبى إلى دكان كبير، ملىء بالضوء والضجيج. بدا أن الرياح كانت تهب أيضًا فى الداخل، على طول الأروقة، وفى الدرجات، مؤرجحة اللافتات الكبيرة. وكانت مقابض الأبواب تطلق شحنات كهربائية صغيرة، وأعمدة النيون تلتمع كبروق شاحبة.

بحثت لُولاَبى عن باب الخروج، وهى تكاد تركض. حين مرت أمام الباب، اصطدمت بشخصٍ ما فهمست:

"آسفة، سيدتى"

لكنها لم تكن سوى دمية عرض كبيرة مصنوعة من مادة بلاستيكية، تلبس عباءة من القطن السميك الأخضر. كانت ذراعا دمية العرض المفتوحتين تهتز

www.ibtesama.com

قليلاً، ووجهها الصارم، شديد الاصفرار يشبه وجه المديرة. بفعل الصدمة، انزلق الشعر الأسود المستعار للدمية وسقط فوق عينها ذات الأهداب الشبيهة بأرجل الحشرات، فضحكت لُولاَبى وهى ترتعش فى نفس الوقت.

أحستِ لُولاَبى، الآن، أنها متعبة تمامًا، وخاوية. ربما لأنها لم تأكل شيئًا منذ الليلة الماضية، فدخلت إلى مطعم. جلست فى آخر القاعة، حيث كان يوجد قليل من الظل. كان النادل يقف أمامها.

"أريد عجة بيض"، قالت لُولاَبى.

نظر إليها النادل لبرهة، كأنه لم يفهم. ثم صاح نحو المطبخ:

"عجة بيض للآنسة!"

واستمر فى النظر إليها.

تناولت لُولاَبى ورقة من جيب سترتها وحاولت الكتابة. كانت تريد أن تكتب رسالة طويلة، لكنها لم تكن تعلم لمن ترسلها. إذ كانت تريد أن تكتب، فى نفس الوقت، لوالدها، وللأخت لورانس، وللسيد فيليبى، وإلى الولد الصغير صاحب النظارة لتشكره على الرسم. لكن ذلك لم يكن جيدًا، فكمَّشت الورقة، وأخذت أخرى. وبدأت:

"سيدتى المديرة،

أرجو أن تعذروا ابنتى لعدم تمكنها من حضور الدروس حاليًا، لأن حالتها الصحية تتطلب"

www.ibtesama.com

توقفت ثانية عن الكتابة. تتطلب ماذا؟ لم يخطر ببالها أى شىء.

"عجة الآنسة"، قال صوت نادل المطعم. وضع الطبق فوق الطاولة ونظر إلى لُولاَبى بطريقة غريبة.

كمشت لُولاَبى الورقة الثانية وبدأت تأكل العجة، دون أن ترفع رأسها. أحست بالتحسن بفضل الأكل الساخن، فتمكنت بعد وقت قصير من النهوض والسير.

حين وصلت أمام مدخل الثانوية، ترددت لبضع ثوان.

دخلت. فجأةً أحاطت بها ضوضاء أصوات الأطفال. على الفور تعرفت على كل شجرة كستناء، وكل شجرة دُلب. كانت عصفات الريح تهز أغصانها النحيفة، وأوراقها تدور فى دوامات فى الساحة. تعرفت أيضًا على كل قرميدة، وكل دكة بلاستيكية زرقاء، وكل نافذة من الزجاج الخشن. لتتفادى الأطفال الذين كانوا يركضون، ذهبت للجلوس على دكة. فى آخر الساحة. وبقيت تنتظر. لم يبد أن أحدًا انتبه إليها.

ثم تناقصت الضوضاء. دخلت مجموعات التلاميذ إلى الفصول، وبدأت الأبواب تغلق الواحد تلو الآخر. بعد فترة قصيرة لم يبق سوى الأشجار التى كانت تهتز فى الرياح، والغبار وأوراق الشجر الميتة التى كانت تتراقص فى حلقات وسط الساحة.

www.ibtesama.com

أحست لُولاَبى بالبرد. نهضت، وبدأت تبحث عن السيد فيليبى. فتحت أبواب المبنى مسبق التجهيز، الذى كان يضم المختبرات. وفى كل مرة، كانت تباغت جملةً ما كانت تبقى معلقة فى الهواء للحظات، ثم تُستأنف حين تغلق الباب.

عبرت لُولاَبى الساحة مرةً ثانية، ودقت على الباب الزجاجى لحارس المدرسة.

"أريد رؤية السيد فيليبى"، قالت.

نظر إليها الرجل باستغراب.

"لم يصل بعد"، قال؛ فكر قليلاً. "لكنى أعتقد أن المديرة تبحث عنك. تعالى معى".

تبعت لُولاَبى الحارس بانصياع. توقف أمام باب يلتمع طلاؤه ودق عليه. ثم فتح الباب وأشار إلى لُولاَبى بالدخول.

من خلف مكتبها، نظرت المديرة إليها بعينين ثاقبتين.

"ادخلى واجلسى. أنا أسمعك".

جلست لُولاَبى على الكرسى ونظرت إلى المكتب المُلتمع. كان الصمت متوعدًا لدرجة أنها أرادت قول أى شىء.

"أريد رؤية السيد فيليبى"، قالت. "لقد كتب لى رسالة".

www.ibtesama.com

قاطعتها المديرة. كان صوتها باردًا وقاسيًا، كنظرتها.

"أعرف. كتب لك. أنا أيضًا. لا يتعلق الأمر بهذا، بل بك. أين كنت؟ مؤكدٌ أن لديك أشياء... مثيرة للاهتمام لتحكيها لنا. إذن، أنا أسمعك، يا آنسة".

تفادت لُولاَبى نظراتها.

"أمى.."، بدأت.

صرخت المديرة تقريبًا.

"أمك، سنخبرها بكل ذلك فيما بعد، وأبوك أيضًا، بطبيعة الحال".

أرتها ورقة تعرفت عليها لُولاَبى فورًا.

"ونُخبرهما بهذه الرسالة، المزورة!"

لم تنكر لُولاَبى. بل حتى لم تستغرب.

"أنا أسمعك"، كررت المديرة. بدا أن لامبالاة لُولاَبى بدأت تُخرجها عن شعورها شيئًا فشيئًا. ربما كانت غلطة الرياح أيضًا، لأنها كهربت الجو.

"أين كنت، طول هذه المدة؟"

تكلمت لُولاَبى. تكلمت ببطء، وهى تبحث نوعًا ما عن الكلمات، فهى لم تعد معتادة على ذلك الآن، وفيما كانت تتكلم، كانت ترى أمامها، مكان المديرة، المنزل ذا الأعمدة البيضاء، والصخور، والاسم اليونانى الجميل الذى كان يلتمع فى الشمس. كانت تحاول أن تحكى كل

www.ibtesama.com

هذا للمديرة، البحر الأزرق بالانعكاسات الشبيهة بالماس، والهدير العميق للأمواج، والأفق كخيط أسود، والريح المالحة حيث كانت تحلق خطاطيف البحر. كانت المديرة تنصت، واتخذ وجهها للحظات سيماء الذهول الشديد. هكذا أصبحت تشبه تمامًا دمية العرض بشعرها المستعار الأسود المائل، وكانت لُولاَبى تبذل مجهودًا كى لا تبتسم. حين توقفت عن الكلام. خيمت لحظات صمت. ثم تغير وجه المديرة من جديد، وبدا كأنها تبحث عن صوتها. استغربت لُولاَبى لسماعها نبرته. لم يعد الصوت ذاته، أصبح أكثر خفوتًا ورخامة.

"اسمعى، يا ابنتى"، قالت المديرة.

انحنت فوق مكتبها المُلتمع وهى تنظر إلى لُولاَبى. كانت يدها اليمنى تمسك بقلم أسود محاط بخيط ذهبى.

"يا ابنتى، أنا على استعداد لأن أنسى كل هذا. وتستطيعين العودة إلى الصف كما السابق. لكن عليك أن تقولى لى.."

ترددت.

"تعلمين، أنا أريد مصلحتك. يجب أن تقولى لى الحقيقة كاملة".

لم تَرد لُولاَبى. لم تفهم ما الذى كانت تقصده المديرة.

www.ibtesama.com

"يمكنك أن تكلمينى بلا خوف، سيبقى كل شىء بيننا".

ولأن لُولاَبى لم ترد على هذا أيضًا، قالت المديرة بسرعة كبيرة، وبصوت شبه خافت:

"لديك حبيب، أليس كذلك؟"

أرادت لُولاَبى أن تحتج لكن المديرة منعتها من الكلام.

"لا جدوى من الإنكار، البعض... بعض زميلاتك رأينك مع ولد".

"هذا غير صحيح!"، قالت لُولاَبى؛ لم تصرخ، لكن المديرة تصرفت كأنها صرخت، وقالت بصوت عال جدًا:

"أريد أن أعرف اسمه!"

"ليس لى حبيب"، قالت لُولاَبى. وأدركت، فجأةً، لِمَ تغير وجه المديرة؛ لأنها كانت تكذب. عندئذ أحست بوجهها يصبح كالحجر، باردًا وناعمًا، فنظرت إلى المديرة مباشرةً فى عينيها، لأنها لم تعد تخشاها.

ارتبكت المديرة، واضطرت لإشاحة نظرها. فى البداية قالت، بصوت رخيم، حنون تقريبًا:

"يجب أن تقولى لى الحقيقة، يا ابنتى، هذا لمصلحتك".

ثم عادت نبرتها قاسية وشريرة مرةً ثانية:

"أريد أن أعرف اسم هذا الولد!"

www.ibtesama.com

أحست لُولاَبى بالغضب يتصاعد بداخلها. كان باردًا وثقيل الوطأة كالحجر، وكان يستقر فى رئتيها، وحلقها؛ وبدأ قلبها يخفق بسرعة كبيرة، مثلما عندما رأت الجُمل الإباحية على جدران المنزل اليونانى.

"لا أعرف أى ولد، هذا غير صحيح، غير صحيح!"، صرخت؛ وأرادت النهوض كى تتصرف. لكن المديرة أشارت لاستبقائها.

"ابقى، ابقى، لا تذهبى!"، أصبح صوتها خفيضًا من جديد، مرتعشًا قليلاً. "أنا لا أقول لك هذا كى - هذا لمصلحتك، يا ابنتى، هذا فقط لأساعدك، يجب أن تفهمى - أقصد -"

تركت القلم الصغير الأسود ذا الطرف الذهبى وضمت يديها النحيفتين بعصبية. جلست لُولاَبى من جديد ولم تتحرك. كانت بالكاد تتنفس، وأصبح وجهها أبيض تمامًا، كقناع من حجر. أحست بالوهن، ربما لأنها لم تأكل ولم تنم إلا قليلاً، طيلة كل تلك الأيام، على شاطئ البحر.

"من واجبى حمايتك من مخاطر الدنيا"، قالت المديرة. "لا يمكنك أن تعرفى، أنت صغيرةٌ جدًا. لقد حدثنى السيد فيليبى عنك وامتدحك كثيرًا، أنت تلميذة نجيبة، ولا أريد أن- أن يأتى حادث ما ليُفسد كل هذا ببساطة.."

كانت لُولاَبى تسمع صوتها بعيدًا جدًا. كما لو كان قادمًا من خلف جدار، مشوهًا بحركة الرياح. كانت

www.ibtesama.com

تريد أن تتكلم، لكنها لم تكن قادرة على تحريك شفتيها.

"لقد عشتِ فترة صعبة، منذ- منذ ما حدث لأمك، والفترة التى قضتها فى المستشفى. حسنًا، أنا على علم بكل ذلك، وهو ما يساعدنى على فهمك، لكن ينبغى أيضًا أن تساعدينى، لابد أن تبذلى مجهودًا.."

"أريد أن أرى... السيد فيليبى.."، قالت لُولاَبى أخيرًا.

"سترينه فيما بعد، سترينه"، قالت المديرة. "لكن لابُد أن تقولى لى الحقيقة، أين كنت؟"

"لقد قلت لك، كنت أنظر إلى البحر، كنت مختبئة وسط الصخور وأنظر إلى البحر".

"مع من؟"

"كنت بمفردى، قلت لك هذا، بمفردى".

"غير صحيح!"

صرخت المديرة، ثم تمالكت نفسها.

"إن لم تقولى لى مع من كنت، سأضطر للكتابة لوالديك. والدك.."

عاد قلب لُولاَبى للخفقان بسرعة كبيرة.

"إن فعلت ذلك، لن أعود أبدًا إلى هنا!"، أحست بقوة كلامها، فكررت ببطء، دون أن تبعد عينيها.

www.ibtesama.com

"إن كتبت لوالدى، فلن أعود أبدًا لا هنا، ولا إلى أية مدرسة أخرى".

سكتت المديرة طويلاً، ملأ الصمت الحجرة الكبيرة، كريح باردة. ثم نهضت المديرة. نظرت إلى الفتاة الشابة بإمعان.

"لا يجب أن تغضبى هكذا"، قالت أخيرًا. "أنت شاحبة للغاية، أنت متعبة. سنتحدث فى كل هذا فى مرة لاحقة".

نظرت إلى ساعتها.

"درس السيد فيليبى سيبدأ بعد دقائق. يمكنك الذهاب".

نهضت لُولاَبى ببطء، مشت نحو الباب الكبير. التفتت مرةً أخيرة قبل أن تخرج.

"شكرًا سيدتى"، قالت.

كانت ساحة الثانوية ممتلئة بالتلاميذ من جديد. كانت الرياح تهز أغصان أشجار الكستناء والدلب، وأصوات الأطفال تصدر صخبًا مدوِّخًا. اجتازت لُولاَبى الساحة ببطء، وهى تتفادى مجموعات التلاميذ والأطفال الذين كانوا يركضون. بعض الفتيات أومأن لها، من بعيد، لكن دون أن يجرؤن على الاقتراب. حين وصلت أمام المبنى سابق التجهيز، لمحت خيال السيد فيليبى، قرب العمود الداعم (ب). كان يرتدى، كالعادة، بذلته الزرقاء ـ الرمادية، ويدخن سيجارته وهو ينظر أمامه.

www.ibtesama.com

توقفت لُولاَبى. لمحها الأستاذ، فجاء للقائها وهو يومئ بإشارات مبتهجة بيده.

"حسنًا! حسنًا!"، قال. هذا كل ما وجده ليقوله.

"أردت أن أسألك.."، بدأت لُولاَبى.

"ماذا؟"

"فيما يخص البحر، والضوء، لدىَّ الكثير من الأسئلة لأطرحها عليك".

لكن لُولاَبى أدركت فجأةً أنها نسيت أسئلتها. كان السيد فيليبى ينظر إليها بسيماء الاستمتاع.

"هل قمتِ برحلة؟"، سأل.

"نعم.."، قالت لُولاَبى.

"و... كانت جيدة؟"

"أوه نعم! كانت جيدةً جدًا".

دوى الجرس فوق الساحة، وفى الأروقة.

"أنا سعيد جدًا.."، قال السيد فيليبى. أطفأ سيجارته تحت كعب حذائه.

"ستحكين لى كل هذا فيما بعد"، قال. كان البريق المبتهج يلتمع فى عينيه الزرقاوين، خلف نظارته.

"لن تذهبى فى رحلة، الآن؟"

"لا"، قالت لُولاَبى.

www.ibtesama.com

"حسنًا، يجب أن أذهب"، قال السيد فيليبى. وكرر ثانيةً: "أنا سعيد جدًا". التفت نحو الفتاة الشابة قبل أن يدخل إلى المبنى.

"وستسألينني عن أى شىء تريدين، فيما بعد، بعد الدرس. أنا أيضًا، أحب البحر كثيرًا".

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

جَبل الإله الحَى

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

ـ ٤ ـ

كان جبل ريداربرمور يقع على يمين طريق ترابى. فى ضوء ٢١ يونيو كان شامخًا وعريضًا، يشرف على بلد السهوب والبحيرة الباردة الكبيرة، ولم يكن جون يرى غيره. مع أنه لم يكن الجبل الوحيد. فأبعد قليلاً، كانت هناك مرتفعات كالفتيندار، والوديان الكبرى الممتدة حتى البحر، وشمالاً، الكتلة الداكنة لحُراس أنهار الجليد. لكن ريداربرمور كان أجمل من كل الآخرين، كان يبدو أكبر، وأنقَى، بسبب الخط الناعم الذى كان يمتد بلا انقطاع من سفحه إلى قمته. كان يلامس السماء، فيما تعبر دوامات السُّحُب فوقه كدخان بركان.

يمشى جون الآن باتجاه ريداربرمور. كان قد ترك دراجته الجديدة على ربوة، على حافة الطريق، وبدأ يمشى عبر حقل الخلنج والأشن. لم يكن يعلم لِم كان يسير باتجاه ريداربرمور. فهو يعرف ذلك الجبل منذ

www.ibtesama.com

الأزل، وكان يراه كل صباح منذ طفولته. رغم ذلك، بدا اليوم وكأن ريداربرمور يتبدَّى له لأول مرة. كان يراه أيضًا حين يذهب إلى المدرسة سيرًا على الأقدام، على طول الطريق الأسفلتى. لم يكن هناك مكان واحد فى الوادى إلا ويُرى منه الجبل. كان كقصر معتم يشرف على المساحات الممتدة للطحالب والأشن، والقرى ومراعى الأغنام، ويطل على البلد بأكمله.

كان جون قد وضع دراجته على الربوة الندية. اليوم، هو أول يوم يخرج فيه على دراجته، وقد قطعت أنفاسه مقاومته للرياح، على طول المنحدر المؤدى إلى سفح الجبل، واشتعل خداه وأذناه.

ربما كان الضوء هو ما ولَّد لديه الرغبة فى الذهاب إلى ريداربرمور. فخلال شهور الشتاء، حين تنزلق السُّحُب إلى الأرض فترمى بالبَرَد، كان الجبل يبدو بعيدًا، ووعرًا. أحيانًا كانت تحيط به البروق، زرقاء فى السماء السوداء، فكان أهل الوديان يخافونه. لكن جون، لم يكن يخافه. كان ينظر إليه، فيما كان الجبل يبدو كأنه ينظر إليه بدوره، من قلب الغيوم، من أعلى السُّحب الرمادى الكبير.

اليوم، قد يكون ضوء شهر يونيو هو ما قاده إلى الجبل. ضوء جميل ودافئ، رغم برودة الرياح. أثناء سيره فوق الطحالب الندية، كان جون يرى حشرات تتحرك فى الضوء، البعوض والذباب الصغير الذى كان يحلق فوق النباتات. كان النحل البرى يتنقل بين

www.ibtesama.com

الأزهار البيضاء، وفى السماء، كانت الطيور المرهفة ترفرف بسرعة، معلقة فوق برك الماء، ثم تختفى فجأة فى الرياح. تلك كانت الكائنات الحية الوحيدة.

توقف جون ليسمع صوت الريح. كانت تُصدر موسيقى غريبة وجميلة فى تجاويف الأرض وفى أغصان الأشجار. كانت هناك أيضًا صيحات الطيور المختبئة وسط الطحالب؛ والتى كانت زقزقتها بالغة الحدة تتضخم فى الرياح، ثم تختنق.

كان الضوء الجميل لشهر يونيو يضىء الجبل تمامًا. وكلما كان جون يقترب، كان يكتشف أنه أقل انتظامًا مما كان يبدو، من بعيد؛ كان يخرج من سَهب البازلت فى كتلة واحدة، كمنزل كبير متهدم. كان ثمة جوانب عالية جدًا، وأخرى مكسورة عند منتصف الارتفاع، وشقوق سوداء كانت تقسم جدرانه كآثار طعنات. وثمة جدول يجرى عند سفح الجبل.

لم ير جون شبيهًا له أبدًا. كان جدولاً صافيًا، بلون السماء، ينساب ببطء، وهو يتعرج عبر الطحالب الخضراء. اقترب جون ببطء، وهو يتحسس الأرض بطرف قدمه، كى لا يغوص فى بركةٍ ما. وجثا على ركبتيه على حافة الجدول.

كان الماء الأزرق ينساب وهو يدندن، بالغ النعومة والصفاء كالزجاج. وكان قاع الجدول مغطّى بحصى صغير، فأدخل جون ذراعه ليأخذ واحدة منها. كان الماء باردًا للغاية، وأعمق مما كان يتصور، فاضطر لأن

www.ibtesama.com

يغوص بذراعه حتى إبطه. التقطت أصابعه حصاة بيضاء، وشفافة نوعًا ما، على شكل قلب.

فجأةً، وللمرة الثانية، بدا لجون أن شخصًا ما ينظر إليه. اعتدل وهو يهز كم سترته المبلول بالماء البارد. التفت، ونظر حوله. لكن، إلى أبعد ما استطاع رؤيته، لم يكن هناك سوى الوادى الذى ينزل بانحدار خفيف، والسَّهب الكبير للطحالب والأشن، حيث كانت تمر الرياح. آنئذٍ، لم تكن ثمة طيور.

أسفل المنحدر تمامًا، لمح جون البقعة الحمراء لدراجته الجديدة الموضوعة فوق طحالب الربوة، فطمأنه ذلك.

لم تكن نظرةً بالضبط ما جاءته، حين كان منحنيًا فوق ماء الجدول. كان أيضًا صوتًا من نوعٍ ما نطق اسمه، بخفوت شديد، داخل أذنه، صوتًا خفيفًا ورخيمًا لم يكن يشبه أى شىء معروف. أو موجة، لفته كالضوء، وجعلته يختلج، كسحابة تبتعد فتظهر الشمس.

سار جون على طول الجدول لبعض الوقت، باحثًا عن معبر. وجده فى الأعلى، عند منحنًى للجدول، وعبره. كان الماء يتدفق فوق الحصى المسطح للمعبر، فيما كانت باقات طحالب خضراء مستقلة عن الحواف تنزلق بلا صوت، وتنزل. قبل أن يستأنف سيره، جثا جون على ركبتيه مرةً أخرى على حافة الجدول وشرب عدة رشفات من الماء الجميل المثلج.

www.ibtesama.com

كانت السُّحُب تتباعد، وتنغلق من جديد، فيتغير الضوء باستمرار. كان ضوءًا غريبًا، لأنه كان يبدو غير مدين للشمس بشىء؛ كان يطفو فى الهواء، وحول جدران الجبل. كان أيضًا ضوءًا شديد البطء، فأدرك جون أنه سيستمر لشهور أخرى، دون أن يضعف، يومًا بعد يوم، ودون أن يترك مكانًا للَّيل. لقد وُلد الآن، خرج من الأرض، مشتعلاً فى السماء وسط السُّحُب، كأنه سيعيش أبدًا. أحس جون أنه كان يتسرب داخله من كل بشرة جسده ووجهه. كان يحرق ويخترق المسام كسائل حار، ويطبع شعره وثيابه. فجأةً واتته رغبة فى التعرى. اختار مكانًا يشكل فيه حقل الطحالب منخفضًا محميًا من الرياح، وخلع ثيابه كلها بسرعة. ثم تمرغ على الأرض الندية، وهو يدعك ساقيه وذراعيه فى الطحالب. كانت الباقات اللدنة تَصر تحت ثقل جسمه، وتغطيه بقطرات باردة. بقى جون ساكنًا، مستلقيًا على ظهره، ذراعاه مفتوحتان، وهو ينظر إلى السماء وينصت للرياح. فى تلك اللحظة، فى أعلى ريداربرمور، انفتحت السُّحُب فأحرقت الشمس وجه وصدر وبطن جون.

ارتدى ملابسه واستأنف سيره نحو جدار الجبل. كان وجهه ساخنًا وأذناه تدويان، كأنه قد شرب بيرة. وكانت الطحالب اللدنة تجعل قدميه ترتدان، فكان من الصعب عليه أن يمشى مستقيمًا. حين انتهى حقل الطحالب، بدأ جون بتسلق خصر الجبل. أصبحت الأرض متباينة، مزيج من صخور البازلت الداكنة

www.ibtesama.com

ودروب حجر الخفان التى كانت تصر وتتفتت تحت نعاله.

أمامه، كان جدار الجبل يرتفع، شاهقًا إلى حد أنه لم يكن يرى القمة. ما من طريقة للتسلق فى هذا المكان. التف جون حول السور، وصعد شمالاً، بحثًا عن معبر. فجأةً وجده. ضربه هبوب الرياح الذى كان السور، إلى ذلك الحين، قد حماه منها، وجعلته يترنح إلى الوراء. أمامه، كان ثمة شق واسع يقسم الصخرة السوداء، مشكلاً بابًا عملاقًا. دخل جون.

كانت كتل كبيرة من البازلت قد سقطت، بين جدران الشق بصورة عشوائية، فكان لابد من الصعود ببطء، باستخدام كل شق، وكل صدع. كان جون يتسلق الأحجار الواحد تلو الآخر، دون أن يلتقط أنفاسه. كان ثمة نوع من الاستعجال بداخله، فكان يريد الوصول إلى أعلى الشق بأقصى سرعة ممكنة. كاد أن يسقط على قفاه مرات عديدة، لأن الكتل الحجرية كانت مغطاة بالندى والأشن. كان جون يتشبث بيديه الاثنتين، وعند لحظةٍ ما، كسر ظفر سبابته دون أن يشعر بشيء. استمرت الحرارة فى السريان فى دمه، رغم برودة الظل.

عند قمة الشق، التفت. كان وادى الحمم والطحالب يمتد على مدى البصر، والسماء شاسعة تدحرج غيومًا رمادية. لم ير جون أبدًا ما هو أجمل من ذلك. كانت الأرض كأنها قد أصبحت بعيدة

www.ibtesama.com

وخاوية، بلا بشر، بلا حيوانات، بلا أشجار، وباتساع عزلة المحيط. فى بعض الأماكن، فوق الوادى، كانت غيوم تساقط مطرًا فرأى جون الأشعة المنحرفة للمطر، وهالات الضوء.

كان جون ينظر إلى السهل بلا حراك، ظهره مستند إلى حائط الحجر. بحث بعينيه عن البقعة الحمراء لدراجته، وشكل بيت والده، فى الطرف الآخر من الوادى. لكنه لم يستطع رؤيتهما. كل ما يعرفه كان قد اختفى، كأن الطحالب الخضراء صعدت وغطت كل شىء. كان الجدول وحده يلتمع، عند سفح الجبل، شبيهًا بثعبان طويل من اللازورد. لكنه كان يختفى هو أيضًا، فى البعيد، كما لو كان يصب فى مغارة.

فجأةً، حدق جون بالشق المعتم، من فوقه، فارتجف؛ إذ لم ينتبه ـ وهو يتسلق الكتل ـ إلى أن كل قطعة بازلت كانت تشكل درجة سلم عملاق.

عندئذ، ومرةً أخرى، أحس جون بالنظرة الغريبة تحيط به. كان ذلك الحضور الغريب يُثقل رأسه، وكتفيه، وكل جسده، كانت نظرة معتمة وقوية تغطى الأرض بأكملها. رفع جون رأسه. كانت السماء، فوقه، مفعمة بضوء باهر يتلألأ من أفق إلى آخر بومضة واحدة. أغمض جون عينيه، كأنه أمام صاعقة. التمَّت من جديد الغيوم الخفيضة الواسعة الشبيهة بالدخان، مغطية الأرض بالظل. ظل جون مغمض العينين فترة

www.ibtesama.com

طويلة، كى لا يشعر بالدوار. كان يسمع صوت الرياح التى تنساب فوق الصخور الملساء، لكن الصوت الغريب والرخيم لم ينطق باسمه. كان يهمس فحسب، غيرَ مفهوم، فى موسيقى الرياح.

أكانت الرياح؟ كان جون يسمع أصواتًا مجهولة، أصوات نساء تهمهم، أصوات أجنحة، وأصوات أمواج. أحيانًا، كان يصَّاعد من عمق الوادى أزيزٌ غريب للنحل، وأزيز محركات. كانت الأصوات تتداخل، يتردد صداها على خصر الجبل، تنساب كمياه الينابيع، وتغوص فى الرمال والأشن.

فتح جون عينيه، وتشبثت يداه بجدار الصخرة. كان ثمة عرق يبلل جبينه، رغم البرد. الآن، كان كأنه على مركبة من الحمم، تتحرك ببطء وهى تلامس الغيوم. وكان الجبل ينساب فوق الأرض بخفة، وأحس جون بحركة تأرجح بندول. فى السماء، كانت الغيوم تنفتح، تفر كأمواج ضخمة، وهى تومض بالضوء.

دام ذلك وقتًا طويلاً، كالوقت الذى تستغرقه رحلة إلى جزيرة. ثم أحس جون بالنظرة تبتعد عنه. أفلت أصابعه من جدار الصخرة. فوقه، كانت قمة الجبل تتجلى بوضوح. كانت كقبة من الحجر الأسود، منتفخة كالبالون، ناعمة ولامعة فى ضوء السماء.

كانت تدفقات الحمم والبازلت تشكل منحدرًا خفيفًا على جوانب القبة، فاختار جون مواصلة صعوده من هناك. كان يصعد بخطى صغيرة، وهو يتعرج

www.ibtesama.com

كالعنزة، والنصف الأعلى من جسده مائل نحو الأمام. الآن أصبحت الرياح حرة، كانت تضربه بعنف، وتجعل ثيابه تصفق. ضم جون شفتيه، فيما كانت عيناه مضببتين بالدموع. لكنه لم يكن خائفًا، لأنه لم يعد يشعر بالدوار. ولم تعد النظرة المجهولة تُثقله. بل بالعكس، كانت تسند جسد جون، وتدفعه نحو الأعلى، بكل نورها.

لم يشعر جون يومًا بإحساس بالقوة كهذا. شخصٌ ما يحبه كان يمشي بجانبه، بنفس الخطى، ويتنفس بنفس الإيقاع. كانت النظرة المجهولة تشده إلى أعلى الصخور، وتساعده على التسلق. شخصٌ ما آت من أعماق حلم، كانت قدرته تكبر باستمرار، وتتضخم كالغيمة. كان جون يضع قدميه فوق ألواح الحمم، تمامًا حيث كان ينبغي، ربما لأنه كان يتبع آثارًا لا مرئية. كانت الرياح الباردة تقطع أنفاسه وتشوش نظره، لكنه لم يكن بحاجة لأن يرى. فقد كان جسده يستدل بمفرده، يوجه نفسه ويرتفع على طول منحنى الجبل.

كان وحيدًا وسط السماء. لم يعد من حوله أرض، ولا أفق، فقط الهواء، والضوء، والغيوم الرمادية. كان جون يتقدم منتشيًا نحو أعلى الجبل، وأصبحت حركاته بطيئة كحركات سباح. أحيانًا، كانت يداه تلامسان البلاطة الناعمة الباردة، وبطنه تحتك بها، فيما كان يحس بالحواف القاطعة للشقوق وآثار عروق الحمم. كان الضوء يملأ الصخرة، ويترع السماء،

www.ibtesama.com

ويكبر أيضًا داخل جسده، ويهتز فى دمه. كانت موسيقى صوت الرياح تملأ أذنيه، ويتردد صداها فى فمه. لم يعد جون يفكر بشىء، ولا ينظر إلى شىء. كان يصعد دفعةً واحدة، كل جسده كان يصعد، بلا توقف، نحو قمة الجبل.

وصل شيئًا فشيئًا. أصبح منحدر البازلت أقل انحدارًا، وأطول. فأصبح جون كأنه فى الوادى، عند سفح الجبل، لكنه وادٍ من حجر، جميل ورحب، ممتد فى منحنى طويل حتى بداية السُّحُب.

كانت الرياح والأمطار قد حكَّت الحجر، صقلته كالمِسَن. فى بعض الأماكن، كان يتوهج بللور أحمر قان وأثلام خضراء وزرقاء، وبقع صفراء كانت تموج فى الضوء. فى الأعلى، كان وادى الحجر يختفى فى السُّحُب؛ التى كانت تنساب فوقه تاركة وراءها خيوطًا دقيقة، وفتائل، كانت حين تذوب، يرى جون الخط الصافى لمنحنى الحجر من جديد.

بعد ذلك، أصبح جون فى أعلى قمة الجبل. لكنه لم ينتبه لذلك فورًا، لأنه تم تدريجيًا. لكنه حين نظر حوله، رأى تلك الدائرة الكبيرة السوداء التى كان هو مركزها، فأدرك أنه قد وصل. كانت قمة الجبل تلك الهضبة من الحمم، التى تلامس السماء. هنا، كانت الرياح تهب، لا فى عصفات، إنما باستمرار وقوة، حادةً على الحجر كالنصل. خطا جون بضع خطوات، وهو يترنح. كان قلبه يخفق بسرعة كبيرة فى صدره، ويدفع

www.ibtesama.com

بدمه فى صدغيه ورقبته. للحظة، اختنق، لأن الرياح كانت تضغط على منخريه وشفتيه.

بحث جون عن ملجأ. كانت قمة الجبل عارية، بلا أى عشب، وبلا أى تجويف. كانت الحمم تلتمع بشدة، كالقار، متشققة فى بعض الأماكن، حيث حفرت الأمطار مجاريها. وكانت الرياح تنتزع بعض الغبار الرمادى الذى كان يفر من التصلب، فى أدخنة قصيرة.

فى هذا المكان كان الضوء حاكمًا. كان قد ناداه، وهو يمشى عند سفح الجبل، ولهذا السبب ترك دراجته مقلوبة فوق ربوة الطحلب، على حافة الدرب. كان ضوء السماء يتزويع هنا، حرًا تمامًا. كان يتفجر بلا انتهاء من الفضاء ويضرب الحجر، ثم يرتد حتى السُّحُب. وكانت الحمم السوداء مخترَقةً بذلك الضوء، الكثيف، والعميق كالبحر فى فصل الصيف. كان ضوءًا بلا حرارة، قادمًا من أبعد نقطة فى الفضاء، ضوء كل الشموس والنجوم الخفية، فيشعل من جديد كل الجمرات القديمة، ويجعل النيران التى احترقت فوق الأرض منذ ملايين السنين تولد من جديد. كانت الشعلة تلتمع فوق الحمم، وداخل الجبل، وتتلألأ فى هبوب الرياح الباردة. أصبح جون يرى أمامه الآن، تحت الحجر الصلب، كل التيارات الغامضة التى تتحرك. العروق الحمراء التى كانت تزحف كأفاعٍ من نار؛ والفقاعات البطيئة المتجمدة فى قلب المادة التى تتلألأ كمولدات ضوء فى حيوانات بحرية.

www.ibtesama.com

توقفت الرياح فجأة. كما نحبس الأنفاس. فتمكن جون من المشى نحو منتصف سهل الحمم. توقف أمام ثلاث علامات غريبة. كانت ثلاثة أحواض محفورة فى الحجر. أحدها ملىء بماء المطر، والآخران يؤويان أشنا وشجيرة صغيرة نحيفة. حول الأحواض، كان ثمة أحجار سوداء متناثرة، وغبار حمم أحمر كان يتدحرج فى الشقوق.

كان هذا الملجأ الوحيد. جلس جون على حافة الحوض الذى يحوى الشجيرة الصغيرة. هنا، بدا أن الرياح لا تهب أبدًا بقوة. كانت الحمم مريحة وناعمة، دافئة بضوء السماء. استند جون على كوعيه إلى الوراء، وأخذ ينظر إلى السُّحُب.

لم يكن قد رأى قَط سُحبًا بهذا القرب. وكان يحب السُّحُب كثيرًا. فى الأسفل، فى الوادى، كان قد نظر إليها كثيرًا، وهو مستلق على ظهره خلف حائط المزرعة. أو وهو مختبئ فى خليج البحيرة. كان يقبع طويلاً ورأسه مقلوبة إلى الوراء إلى أن يشعر بأوتار رقبته تتصلب كالحبال. لكن هنا، فى قمة الجبل، لم يكن الأمر مماثلاً. كانت السُّحُب تأتى بسرعة، إلى سهل الحمم، فاتحة أجنحتها الشاسعة. تبتلع الهواء والأحجار، بلا عناء، وتوسع أغشيتها بإفراط. وحين تمر فوق قمة الجبل، كان كل شىء يصبح أبيض وفسفوريًا، ويتغطى الحجر الأسود باللآلئ. كانت السُّحُب تمر بلا ظل. بل بالعكس، كان الضوء يومض وقتها بقوة أكبر، فيما يصبح كل شىء بلون الثلج

www.ibtesama.com

والزبد. كان جون ينظر إلى يديه البيضاوين، وأظافره التى كانت تشبه قطعًا من المعدن. قلب رأسه وفتح فمه ليشرب القطرات الصغيرة المقترنة بالضوء المبهر. كانت عيناه المفتوحتان تنظران إلى الوميض الفضى الذى يترع الفضاء. فلم يعد هناك جبل، ولا وديان الطحلب، ولا قرى، ولا أى شىء؛ أى شىء، سوى جسد السحابة التى كانت تفر إلى الجنوب، وتسد كل ثقب، وكل شق. كان السديم الندى يدور لوقت طويل فوق قمة الجبل، ويُعمى العالم. ثم، وبسرعة خاطفة، كانت السحابة الكثيفة تذهب، مثلما جاءت، متدحرجةً نحو الطرف الآخر للسماء.

كان جون سعيدًا لوصوله إلى هنا، قرب السُّحُب. كان يحب موطنها، الشاهق، النائى عن الوديان وطرق البشر. كانت السماء تتشكل وتنحل بلا انتهاء، حول دائرة الحمم، وكان نور الشمس الوامض يتحرك كأضواء الفنارات. ربما لم يكن ثمة شىء آخر، بالفعل. ربما، الآن، كان كل شىء يتحرك بلا توقف، وهو يدخن، الزوابع العريضة، الأنشوطات، أشرعة، أجنحة؛ وأنهار شاحبة. كانت الحمم السوداء تنساب أيضًا، تنتشر وتسيل نحو الأسفل، تلك الحمم الباردة شديدة البطء التى كانت تفيض من شفاه البركان.

حين كانت السُّحُب ترحل، كان جون ينظر إلى ظهورها المستديرة التى كانت تجرى فى السماء. عندئذٍ كان الجو يعود للظهور مرةً ثانية، شديد

www.ibtesama.com

الزرقة، مهتزًا بضوء الشمس وتتصلب كتل الحمم من جديد.

انبطح جون على بطنه ولمس الحمم. فجأةً، رأى حصاة غريبة، موضوعة على حافة الحوض المملوء بماء المطر. اقترب على يديه وقدميه ليتفحصها. كانت كتلةً من حمم سوداء، انفصلت بلا شك عن الكتلة الأم بفعل عوامل التعرية. أراد جون أن يقلبها، لكنه لم يستطع. كانت ملتحمة بالأرض بثقل كبير لم يكن يتوافق مع حجمها.

عندئذٍ أحس جون بنفس الرعشة التى كان قد أحس بها، وهو يتسلق كتل المنحدر. كان للحصاة شكل الجبل بالضبط. لم يكن فى ذلك أدنى شك: كان لها نفس القاعدة العريضة، ذات الزوايا، ونفس القمة شبه الكروية. انحنى جون أقرب، فميز بوضوح الشق الذى صعد منه. كان بالحصاة، يتخذ شكل تشقق صغير، لكنه مُسنن مثل درجات السلم العملاق الذى كان قد تسلقه.

قرَّب جون وجهه من الحصاة السوداء، إلى أن تشوش نظره. كانت كتلة الحمم تكبر، وتملأ كل مجال رؤيته، وتمتد من حوله. شعر جون أنه يفقد جسده وثقله شيئًا فشيئًا. الآن، أصبح يطفو، ممددًا على الظهر الرمادى للسُّحب، والضوء يجتازه من جهة إلى أخرى. كان يرى من فوقه الصفائح الكبيرة للحمم متوهجة بالماء والشمس، والبقع الصدئة للأشن،

www.ibtesama.com

والدوائر الزرقاء للبحيرات. ببطء، انسل إلى أعلى الأرض، لأنه أصبح شبيهًا بغيمة، خفيفة متغيرة الشكل. كان دخانًا رماديًا، سديمًا، يتشبث بالصخور ويودع قطراته الصغيرة.

لم يعد جون يحيد بنظره عن الحجر. كان سعيدًا هكذا، ربت طويلاً على الواجهة الملساء بيديه المفتوحتين. كان الحجر يرتعش تحت أصابعه كبَشرة. كان يحس بكل نتوء، وبكل تشقق، وكل أثر صقله الزمن، فيما كانت الحرارة المعتدلة للضوء تشكل بساطًا خفيفًا، شبيهًا بالغبار.

توقف نظره عند قمة الحصاة. هنا، على الواجهة المستديرة واللامعة، رأى ثلاثة ثقوب بالغة الصغر. كانت رؤية المكان نفسه الذى كان موجودًا فيه تمثل نشوة غريبة. كان جون ينظر بانتباه شبه مؤلم إلى آثار الأحواض، لكنه لم يستطع رؤية الحشرة العجيبة التى كانت تقبع بلا حراك على قمة الحصاة.

بقى مدةً طويلة وهو ينظر إلى كتلة الحمم. أحس أنه يُفلت من نفسه شيئًا فشيئًا، من خلال نظرته. لم يفقد الوعى، لكن جسده كان يتخدر ببطء. أصبحت يداه باردتين، وراحتاها ملتصقتين بكل جانب من جوانب الجبل. كانت رأسه متكئة، وذقنه مستندة إلى الحجر، وعيناه ثابتتين.

فى تلك الأثناء، كانت السماء، من حول الجبل، تتحلل وتتشكل من جديد. وكانت السُّحُب تتسلل فوق

www.ibtesama.com

سهل الحمم، والقطرات الصغيرة تسيل على وجه جون، وتتشبث بشعره. كانت الشمس تتألق أحيانًا، بالتماعات حارقة. وهبوب الرياح يدور حول الجبل، طويلاً، تارةً فى اتجاه، وتارةً أخرى فى الاتجاه المعاكس.

ثم سمع جون ضربات قلبه. لكن بعيدًا داخل الأرض، بعيدًا، حتى عمق الحمم، حتى شريان النار، وحتى قاعدة أنهار الجليد. كانت الضربات تزعزع الجبل، تهتز فى عروق الحمم، وفى الجبس، وعلى اسطوانات البازلت. كانت تردد صداها فى عمق المغارات، وفى الشقوق، ولا شك أن نبضها المنتظم كان يجوب وديان الطحالب، وصولاً إلى منازل البشر.

"دم ـ دم، دم ـ دم، دم ـ دم، دم ـ دم، دم ـ دم، دم ـ دم."

كانت الصوت الثقيل الذى يقود إلى عالم آخر، كما فى يوم الولادة، وكان جون يرى أمامه الحجر الكبير الأسود الذى يخفق فى الضوء. مع كل نبضة، كان نور السماء كله يتذبذب، ثم يعود مرةً ثانية بشحنة وامضة. كانت السُّحُب تمتلئ بالكهرباء، تتألق بومضات فسفورية كتلك التى تنساب حول البدر.

سمع جون صوتًا آخر، صوت بحر عميق، يجتاح بثقل، وصوت بخار ينتشر، وحمله ذلك أيضًا بعيدًا. كان من الصعب مقاومة النعاس. وكانت أصوات أخرى تنبثق بلا انتهاء، أصوات جديدة، اهتزازات محركات،

www.ibtesama.com

صيحات طيور، صرير رافعات، وارتجاجات سوائل تغلى.

كانت كل الأصوات تولد، تأتى، تبتعد، وتعود من جديد، فتصدر موسيقى تحمله إلى البعيد. لم يعد جون الآن يبذل جهدًا كى يعود. ساكنًا تمامًا، أحس بأنه يهبط إلى مكانٍ ما، ربما نحو قمة الحصاة السوداء، على حافة الثقوب الثلاثة شديدة الصغر.

حين فتح عينيه من جديد، رأى على الفور الطفل ذا الوجه الصافى الذى كان يقف على بلاطة الحمم، أمام حوض الماء. كان الضوء قويًا حول الطفل، لأنه لم تعد ثمة سحب فى السماء.

"جون!"، قال الطفل. كان صوته رخيمًا وواهيًا، لكن وجهه الصافى كان مبتسمًا.

"كيف تعرف اسمى؟"، سأل جون.

لم يجبه الطفل. بقى ساكنًا على حافة حوض الماء، مستديرًا قليلاً إلى الجنب كما لو كان مستعدًا للهرب.

"وأنت، ما اسمك؟"، سأل جون. "أنا لا أعرفك"، لم يتحرك حتى لا يخيف الطفل.

"لماذا أتيت؟ لا أحد أبدًا يأتى فوق الجبل".

"كنت أريد رؤية المنظر من هنا"، قال جون. "كنت أظن أنه يمكن رؤية كل شىء من مكان شاهق، مثل الطيور".

www.ibtesama.com

تردد قليلاً، ثم قال:

"هل تسكن هنا؟"

واصل الطفل الابتسام. كان الضوء المحيط به يبدو كأنه يخرج من عينيه وشعره.

"هل أنت راعٍ؟ إنك تلبس مثل الرعاة".

"أنا أعيش هنا"، قال الطفل. "كل ما تراه هنا ملكي".

نظر جون إلى امتداد الحمم والسماء.

"أنت مخطئ"، قال. "إنه ليس ملك أحد".

قام جون بحركة كي يقف. لكن الطفل قفز إلى الجانب، كما لو كان سيرحل.

"لن أتحرك"، قال جون ليطمئنه. "ابق، لن أقف".

"لا يجب أن تنهض الآن"، قال الطفل.

"إذن تعال أنت لتجلس بجانبي".

تردد الطفل. كان ينظر إلى جون كأنه يريد أن يقرأ أفكاره. ثم اقترب وتربع بجوار جون.

"لم تجبني. ما اسمك؟"، سأل جون.

"ليس مهمّا، بما أنك لا تعرفني"، قال الطفل، "أنا، لم أسألك عن اسمك".

"صحيح"، قال جون. وأحس أنه كان عليه أن يستغرب.

www.ibtesama.com

"حسنًا، قُل لى، ماذا تفعل هنا؟ أين تسكن؟ لم أر منزلاً أثناء صعودى".

"هذا كله بيتى"، قال الطفل. كانت يداه تتحركان ببطء، وبحركات أنيقة لم يرها جون من قبل.

"أتعيش هنا حقًا؟"، سأل جون. "وأبوك، وأمك؟ أين هما؟".

"ليس لدىَّ أبوان".

"وأخوتك؟"

"أعيش بمفردى، قلت لك هذا للتو".

"ألا تخاف؟ أنت أصغر من أن تعيش بمفردك".

ابتسم الطفل مرةً ثانية.

"ولماذا أخاف؟ هل تخاف أنت، فى منزلك؟"

"لا"، قال جون. كان يفكر أن الوضع مختلف، لكنه لم يجرؤ على قول ذلك.

ظلاً صامتين للحظات، ثم قال الطفل:

"أعيش هنا منذ مدة طويلة جدًا. أعرف كل حجر فى هذا الجبل بأفضل مما تعرف غرفتك. هل تعلم لم أعيش هنا؟".

"لا"، قال جون.

"هى قصة طويلة"، قال الطفل. "منذ زمن بعيد، بعيد جدًا، وصل عدد كبير من الناس، وأقاموا منازلهم على السواحل، وفى الوديان، وأصبحت المنازل قرى،

www.ibtesama.com

والقرى أصبحت مدنًا. حتى الطيور فرت. وخافت الأسماك. فغادرتُ أنا أيضًا السواحل، والوديان، وأتيت فوق هذا الجبل. الآن أنت أيضًا جئت فوق هذا الجبل، وسيأتى الآخرون من بعدك".

"أنت تتحدث كأنك عجوز جدًا"، قال جون. "مع أنك لست سوى طفل!".

"نعم، أنا طفل"، قال الطفل. حدق بجون، وكانت نظرته الزرقاء مفعمة بضوء كبير اضطر جون إلى خفض عينيه.

كان ضوء شهر يونيو أجمل بكثير. فكر جون أنه ربما كان يخرج من عينى الراعى الغريب، وينتشر حتى السماء والبحر. أعلى الجبل، كانت السماء قد خلت من سحبها، وكان الحجر الأسود ناعمًا ودافئًا. لم يعد جون الآن يشعر بالنعاس. كان ينظر بكل قواه إلى الطفل الجالس بجانبه. لكن الطفل كان ينظر إلى جهة أخرى. كان ثمة صمت قوى، بلا هبة ريح.

التفت الطفل إلى جون من جديد.

"هل تجيد عزف الموسيقى؟"، سأل. "أنا أحب الموسيقى كثيرًا".

هز جون رأسه، ثم تذكر أنه كان يحمل فى جيبه ربابة صغيرة رديئة. أخرج الآلة وأراها للطفل.

"أتستطيع أن تعزف موسيقى بهذه؟"، سأل الطفل. فمد له جون الربابة الصغيرة فتفحصها الطفل للحظات.

www.ibtesama.com

"ماذا تريد أن أعزف لك؟"

"ما تعرف عزفه، أى شىء! أنا أحب كل أنواع الموسيقى".

وضع جون الربابة فى فمه، وهز بسبابته السلك المعدنى. وعزف لحنًا يحبه كثيرًا، درومكفايدى، لحن قديم كان والده قد علمه له فى الماضى.

كانت الأصوات الرخيمة للربابة يتردد صداها بعيدًا فى سهل الحمم، وكان الطفل يستمع محنى الرأس على الجنب قليلاً.

"هذا جميل"، قال الطفل حين انتهى جون.

دون أن يدرك السبب، أحس بسعادة أن موسيقاه أعجبت الراعى الصغير.

"أستطيع أن أعزف أيضا مانستو إيكى فينا"، قال جون. "إنها أغنية أجنبية".

وفيما كان يعزف، كان يضبط الإيقاع بضرب قدمه على بلاطة الحمم.

كان الطفل يستمع، وعيناه تلتمعان بالرضى.

"أحب موسيقاك"، قال أخيرًا. "هل تعرف عزف موسيقى أخرى؟"

فكر جون.

"أحيانًا يعيرنى أخى نايه. لديه ناى جميل، كله من الفضة، وأحيانًا يعيره لى لأعزف عليه".

www.ibtesama.com

"أود سماع هذه الموسيقى أيضًا".

"سأحاول استعارة الناى منه، فى المرة القادمة"، قال جون. "قد يرغب فى المجىء هو أيضًا، ليعزف لك الموسيقى".

ثم بدأ جون فى العزف على الربابة الصغيرة. كان سلك المعدن يهتز بقوة فى صمت الجبل، وفكر جون أنه ربما كان يُسمع حتى آخر الوادى، وحتى المزرعة. اقترب منه الطفل. كان يحرك يديه بطريقة منتظمة، ورأسه تنحنى قليلاً. كانت عيناه الفاتحتان تلتمعان، وبدأ يضحك، حين أصبحت الموسيقى خنَّاء للغاية. فأبطأ جون الإيقاع، وأخذ يعزف نبرات عالية كانت تهتز فى الجو، فأصبح وجه الطفل جادًا من جديد، واستعادت عيناه لون البحر العميق.

فى النهاية، توقف، منقطع الأنفاس. وأسنانه وشفتاه تؤلمه.

ضرب الطفل بيديه وقال:

"جميل! أنت تعزف موسيقى جميلة!".

"أعرف التكلم أيضًا بالربابة الصغيرة"، قال جون.

بدا الطفل مستغربًا.

"التكلم؟ كيف تستطيع الكلام بهذا الشىء؟"

أعاد جون الربابة إلى فمه، وببطء شديد، نطق بكلمات بهز سلك المعدن.

www.ibtesama.com

"هل فهمت؟"

"لا"، قال الطفل.

"أنصت بشكل أفضل".

أعاد جون الكرَّة، ببطء أشد. أضاء وجه الطفل.

"لقد قلت: صباح الخير صديقى!"

"صحيح".

أوضح جون:

"عندنا، فى الأسفل، فى الوادى، كل الأولاد يجيدون فعل هذا. حين يحل الصيف، نذهب إلى الحقول، خلف المزارع، ونتكلم هكذا مع البنات، كل واحد بربابته. وحين يجد أحدنا فتاة تعجبه، يذهب خلف منزلها، فى المساء، ويكلمها بهذه الطريقة، كى لا يفهم والداها. البنات يحببن ذلك. يضعن رءوسهن على نوافذهن ويسمعن ما نقوله لهن، بالموسيقى".

أطلع جون الطفل كيف تقال كلمة: "أحبك، أحبك، أحبك"، بمجرد نقر السلك المعدنى للربابة وتحريك لسانه فى فمه.

"إنه سهل"، قال جون. أعطى الآلة إلى الطفل، الذى حاول بدوره الكلام من خلال نقر السلك المعدنى. لكن ذلك لم يكن يشبه أية لغة أبدًا فانفجرا بالضحك معًا.

www.ibtesama.com

لم يعد الطفل مرتابًا، الآن. أراه جون أيضًا كيفية عزف ألحان موسيقية، فدوت النغمات الرخيمة فى الجبل مدة طويلة.

ثم أفل الضوء قليلاً. نزلت الشمس قرب الأفق، فى ضبابة حمراء. واشتعلت السماء بغرابة، كأن هناك حريقًا ما. نظر جون إلى وجه رفيقه، فبدا له أن لونه قد تغير. أصبحت يداه وشعره بلون الرماد، وأصبح لعينيه لون السماء. تناقصت الحرارة المعتدلة شيئًا فشيئًا. وحل البرد كالرجفة. عند لحظةٍ ما، أراد جون أن ينهض ليرحل، لكن الطفل وضع يده على كتفه.

"أرجوك، لا تذهب"، قال ببساطة.

"لابد أن أنزل الآن، لقد تأخر الوقت".

"لا تذهب. سيكون الليل مضيئًا، يمكنك أن تبقى هنا حتى صباح الغد".

تردد جون.

"أبى وأمى ينتظراننى فى المنزل"، قال.

فكر الطفل. والتمعت عيناه الرماديتان بشدة.

"لقد نام أبوك وأمك"، قال؛ "لن يستيقظا قبل صباح الغد. تستطيع البقاء هنا".

"كيف تعرف أنهما نائمان؟"، سأل جون. لكنه أدرك أن الطفل كان يقول الحقيقة. ابتسم الطفل.

"أنت تجيد عزف الموسيقى والتكلم بالموسيقى. وأنا أجيد أشياء أخرى".

www.ibtesama.com

أمسك جون بيد الطفل وشد عليها. لم يكن يعلم لماذا، لكنه لم يشعر أبدًا بسعادة كتلك من قبل.

"علمنى أشياء أخرى"، قال: "أنت تعرف الكثير من الأشياء!"

بدل أن يرد عليه، نهض الطفل بقفزة واحدة وركض نحو الحوض. غرف القليل من الماء بين يديه، وأحضره إلى جون. قرب يديه من فم جون.

"اشرب!"، قال.

أطاع جون. سكب الطفل الماء ببطء بين شفتيه. لم يشرب جون طوال حياته ماءً كهذا الماء. كان عذبًا وباردًا، لكنه كثيف وثقيل أيضًا، وبدا أنه يجوب جسده كالنبع. كان ماءً يشبع العطش والجوع، ويتحرك فى العروق كالضوء.

"إنه لذيذ"، قال جون. "ما هذا الماء؟"

"إنه يأتى من السُّحُب"، قال الطفل. "لم ينظر إليه أحد مطلقًا".

كان الطفل يقف أمامه فوق بلاطة الحمم.

"تعال، سأريك الآن السماء".

وضع جون يده بيد الطفل وتمشيا معًا فوق قمة الجبل. كان الطفل يمشى بخفة، يسبق بخطوة، وكانت قدماه الحافيتان تنسابان بالكاد فوق الأرض. سارا هكذا حتى آخر هضبة الحمم، حيث كان الجبل يطل على الأرض كالأنف.

www.ibtesama.com

نظر جون إلى السماء المفتوحة أمامه. كانت الشمس قد اختفت تمامًا وراء الأفق، لكن الضوء كان لا يزال ينير السُّحُب. فى الأسفل، بعيدًا جدًا، فوق الوادى، كان ثمة ظل خفيف يحجب تضاريس الأرض. لم تعد تُرى البحيرة، ولا التلال، ولم يستطع جون التعرف على البلاد. لكن السماء الشاسعة كانت مفعمة بالضوء، فرأى جون كل السُّحُب، طويلة، بلون الدخان، ممتدة فى الهواء الأصفر والوردى. فى الأعلى، كان الأزرق يبدأ، أزرق داكن ومعتم كان يهتز بالضوء أيضًا، فلمح جون النقطة البيضاء لڤينوس، التى كانت تلتمع وحدها كالفنار.

واحدةً تلو الأخرى، اشتعلت النجوم، ناشرةً أشعتها الثمانية الحادة. فشعر جون من جديد بالنبضة المنتظمة فى صدره وشرايين عنقه، لأنها كانت تأتى من مركز السماء، تجتازه ويتردد صداها فى الجبل كله. كان ضوء النهار يضرب أيضًا قريبًا جدًا من الأفق، مجيبًا على النبضات الليلية للسماء. توحد فى السمت اللونان الاثنان، المعتم الداكن، والفاتح الحار، وأصبحا يتحركان بنفس حركة تأرجح البندول.

تراجع جون فوق الحجر، واستلقى على ظهره، وعيناه مفتوحتان. الآن أصبح يسمع بوضوح الصوت الكبير الذى كان يأتى من كل أركان الفضاء ويتجمع فوقه. لم يكن كلمات، ولا موسيقى، ورغم ذلك كان يدرك ما يعنيه، ككلمات مقاطع أغان. كان يسمع

www.ibtesama.com

البحر، والسماء، والشمس، والوادى الذين كانوا يصرخون كالحيوانات. كان يسمع الأصوات الثقيلة المحبوسة فى المهاوى، والهمسات المختبئة فى قاع الآبار، وفى قلب الشقوق. والصوت المستمر الناعم لأنهار الجليد، قادمًا من مكانٍ ما فى الشمال، والحفيف الذى كان يتقدم ويصر فوق هضبة الحجر. كان البخار يندفع من مناجم الكبريت، مطلقًا صرخات حادة، فيما كانت الألسنة العالية للشمس تشخر كمصاهر الحديد. فى كل مكان، كان الماء ينساب، والطين يُفجر سحبًا من الفقاعات، والبذور القاسية تذوب وتتفتح تحت الأرض. كانت هناك ارتجاجات الجذور، وتقطير النسغ فى جذوع الأشجار، والغناء الهوائى للأعشاب القاطعة. ثم كانت تأتى أصوات أخرى أيضًا، كان جون يعرفها أفضل من سابقاتها، محركات الشاحنات والمضخات، وطقطقة السلاسل الحديدية، والمناشر الكهربائية، وطَرق المكابس، وصفارات البواخر. كانت طائرة تمزق الهواء بمحركاتها التوربينية الأربعة، بعيدًا فوق المحيط. وكان صوت رجل يتحدث فى مكانٍ ما داخل قاعة مدرسة، لكن هل كان رجلاً؟ بالأحرى، كان غناء حشرات، يتحول إلى أزيز قوى، إلى قرقرة، أو ينقسم إلى صفير صار. كانت أجنحة طيور البحر تموء فوق الجروف، فيما كانت طيور زمج الماء والنوارس تصىء. كانت كل الأصوات تحمل جون بعيدًا، وكان جسده الطافى على بلاطة الحمم، ينساب كأنه فوق عوامة من طحلب،

www.ibtesama.com

تدور فى الدوامة الخفية، فيما فى السماء، عند حدود الليل والنهار، كانت النجوم تتوهج ببريقها الثابت.

بقى جون طويلاً، هكذا، مقلوبًا، وهو ينظر ويستمع. ثم ابتعدت الأصوات، وخفتت، الواحد تلو الآخر. وأصبحت ضربات قلبه أكثر اعتدالاً، وأكثر انتظامًا، واحتجب الضوء بغشاء رمادى.

التفت جون إلى جانبه ونظر إلى رفيقه. على البلاطة السوداء، كان الطفل نائمًا متكورًا، ورأسه مستندة إلى ذراعه. كان صدره يعلو ببطء، فأدرك جون أنه قد غط فى النوم. فأغمض هو أيضًا عينيه، وانتظر نعاسه.

استيقظ جون حين ظهرت الشمس فوق الأفق. جلس ونظر من حوله، دون أن يفهم. لم يعد الطفل موجودًا. لم يكن هناك سوى امتداد الحمم السوداء، وعلى مدى البصر، الوادى حيث بدأت ترتسم الظلال الأولى. كانت الرياح تهب من جديد، وتكنس الفضاء. نهض جون، وبحث عن رفيقه. اتبع منحدر الحمم حتى الأحواض. فى أحدها، كان الماء بلون المعدن، مجعدًا بهبات الرياح. وفى حفرتها المغطاة بالطحالب والأشن، كانت الشجيرة الجافة الصغيرة تهتز وترتعش. على البلاطة، كانت الحصاة التى تتخذ شكل جبل لا تزال فى مكانها. بقى جون واقفًا للحظات فوق قمة الجبل، ونادى مرات عديدة، لكن ما من صدى كان يرد:

"أوى!"

"أوى!"

www.ibtesama.com

حين أدرك أنه لن يعثر على صديقه، أحس جون بوحدة كبيرة إلى حد أنه أحس بألم فى منتصف جسده، كوجع الخاصرة. أخذ فى نزول الجبل، بأقصى سرعة، وهو يقفز فوق الصخور. بلهفة، بحث عن الشق الذى يوجد فيه السلم العملاق. تزحلق على الحجر الكبير المبلول، ونزل باتجاه الوادى، دون أن يلتفت. كان الضوء الجميل يكبر فى السماء، وحين وصل إلى الأسفل، كان النهار قد طلع تمامًا.

ثم بدأ يركض فوق الطحالب، فكانت قدماه ترتدان وتدفعانه إلى الأمام بسرعة أكبر. بقفزة اجتاز الجدول ذا اللون السماوى، دون أن ينظر إلى عوامات الطحالب التى كانت تهبط وهى تدور فى الدوامات. غير بعيد، رأى قطيع أغنام يعدو وهو يثغو، فأدرك أنه قد أصبح فى إقليم البشر من جديد. قُرب الطريق الترابى، كانت دراجته الجميلة الجديدة فى انتظاره، ومقودها الكرومى مغطى بقطرات الندى. ركب جون دراجته، وبدأ يتحرك فى الطريق الترابى، إلى الأسفل. لم يكن يفكر، ولم يكن يشعر إلا بالفراغ، وبوحدة بلا حدود، وهو يدوس على الدواسات على طول الطريق الترابى. حين وصل إلى المزرعة. أسند جون الدراجة إلى الحائط، ودخل دون أى صوت، كى لا يوقظ أمه وأباه اللذين كانا لا يزالان نائمين.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

السَّاقية

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

- ١ -

لم تطلع الشمس فوق النهر بعد. من الباب الضيق للمنزل، ينظر جوبا إلى المياه الناعمة الملتمعة، على الجانب الآخر من الحقول الرمادية. يعتدل فوق فراشه، ويلقى بالملاءة التى تغطيه. يدفعه هواء الصباح إلى الارتعاش. داخل المنزل المعتم، ثمة أشكال أخرى ملفوفة فى الملاءات، أجساد أخرى نائمة. يتعرف جوبا على أبيه، من الناحية الأخرى للباب، وأخيه، وفى العمق تمامًا، أمه وأختيه المحشورتين تحت نفس الملاءة. ينبح كلب لمدة طويلة، فى مكان ما، بصوت غريب يصيح قليلاً ثم يختنق. لكن ما من أصوات كثيرة فوق الأرض، ولا فوق النهر، لأن الشمس لم تطلع بعد. الليل رمادى وبارد، مُحمَّل بهواء الجبال والصحراء، والضوء الشاحب للقمر.

ينظر جوبا إلى الليل وهو يرتعش، دون أن يتحرك من فراشه. تصَّاعد برودة الأرض عبر حصيرة

www.ibtesama.com

القصب، وتتشكل قطرات الندى فوق التراب. فى الخارج تلتمع الأعشاب قليلاً، كأنصال بليلة. أشجار الأكاسيا الكبيرة النحيفة سوداء، ساكنة فى الأرض المتشققة.

ينهض جوبا بلا صوت. يطوى الملاءة ويلف الحصيرة، ثم يمشى على الدرب الضيق الذى يجتاز الحقول الخالية. ينظر إلى السماء، من جهة الشرق، فيعرف أن النهار سيطلع فى التو. فهو يشعر بوصول الضوء إلى أعماق جسده، والأرض أيضًا تعرف ذلك، أرض الحقول المزروعة والأرض الترابية بين شجيرات الشوك وجذوع الأكاسيا. إنه كقلق، كشك يأتى عبر السماء، يعبر الماء البطىء للنهر، وينتشر على الأرض. أنسجة العنكبوت ترتعش، والأعشاب تهتز، والذباب الصغير يطير فوق البرك، لكن السماء خالية، لأنه لم تعد هناك خفافيش، وليس هناك بعد طيور. الدرب الضيق صلب تحت قدمى جوبا الحافيتين. الاهتزاز البعيد يمشى معه فى نفس الوقت، فيما بدأ الجراد الرمادى الكبير يتقافز عبر الأعشاب. ببطء، وفيما يبتعد جوبا عن البيت، تنجلى السماء عند أسفل النهر؛ وينزل الضباب بين الضفتين، بسرعة عوامة، وهو يمدد أغشيته البيضاء.

يتوقف جوبا على الدرب. ينظر إلى النهر برهة؛ على ضفتيه الرمليتين، تميل أعواد القصب المبلولة. جذع أسود كبير جانح يترنح فى التيار، يغطس ويُخرج أغصانه كعنق أفعى تسبح. لا يزال الظل فوق النهر،

www.ibtesama.com

وماؤه ثقيل وكثيف، يجرى بطياته البطيئة. لكن فيما وراء النهر، بدأت الأرض الجافة فى الظهور. التراب صلب تحت أقدام جوبا، والطين الأحمر متكسر كأصص قديمة، والشقوق تتعرج، شبيهة بالشقوق القديمة.

ينفتح الليل شيئًا فشيئًا، فى السماء، وعلى الأرض. يعبر جوبا الحقول الخاوية، يبتعد عن آخر منازل الفلاحين، ولم يعد يرى النهر. يتسلق تلاً من الحجر الجاف تتشبث به بعض الأكاسيا. يجمع جوبا من الأرض بعض أزهار الأكاسيا ويلوكها وهو يصعد التل. فينتشر نسغها فى فمه ويبدد خدر النعاس. على المنحدر الآخر لتل الحجر، تنتظر الأبقار. حين وصل جوبا بالقرب منها، بدأت الحيوانات الكبيرة تدهس الأرض وهى تعرج، وقلبت إحداها رأسها لتخور.

"تتتتا أوتا، أوتا!" قال جوبا، فتعرفت عليه الأبقار. دون أن يكف عن الطقطقة بلسانه، ينزع جوبا عقال بقرتين ويقودهما نحو أعلى تل الحجر. تتقدم البقرتان بصعوبة، وهما تعرجان، لأن العقال خدر قوائمها الخلفية. يخرج البخار من مناخيرها.

حين وصلوا أمام الساقية، توقفت البقرتان. نفختا وسحبتا رأسيهما إلى الخلف، أصدرتا أصواتا بحلقيهما، وحوافرهما تضرب الأرض وتفتت الحصى. يربط جوبا البقرتين عند طرف العارضة الطويلة. وفيما يربطهما إلى النير، لا يكف عن ضَرب لسانه

www.ibtesama.com

فى سقف فمه. بدأ الذباب يطير حول عيون ومناخير البقرتين، ويهش جوبا ما يحط على وجهه ويديه.

ينتظر الحيوانان أمام البئر، والعريش الخشبى الثقيل يطقطق ويصر حين تقومان بخطوة إلى الأمام. يشد جوبا الحبل المربوط إلى النير، فتبدأ الساقية فى الأنين، كقارب يرتج. تسير البقرتان الرماديتان بعناء على الدرب الدائرى. تحط حوافرهما فوق آثار الأمس، وتحفر الحفر القديمة فى التراب الأحمر، بين الحصى. عند طرف العريش الطويل، هناك العجلة الخشبية الكبيرة التى تدور بدوران البقرتين، ويجر مدارها تروس العجلة الأخرى العمودية. فينزل السير الطويل من الجلد المقوى إلى قاع البئر، حاملاً الدلاء حتى الماء.

يحفز جوبا البقرتين بطقطقة لسانه باستمرار. وبالكلام معهما أيضًا، بصوت خفيض، وببطء، لأن الظل لا يزال يلف النهر والحقول. الآلة الخشبية الثقيلة تصر وتطقطق، تقاوم، وتتحرك من جديد. تتوقف البقرتان من حين إلى آخر، فيضطر جوبا للركض وراءهما، ويسوط مؤخرتيهما بعصا صغيرة، ويشد على العريش. فتستأنف البقرتان سيرهما الدائرى، ورأساهما محنيتان، وهما تنفخان.

حين تطلع الشمس أخيرًا، تضىء الحقول دفعةً واحدة. فيكون التراب الأحمر مجعدًا بالشقوق، وتظهر كتله الصلصالية الجافة، وحصاه المسنون الملتمع. أعلى

www.ibtesama.com

النهر، فى الطرف الآخر للحقول، يتبدد الضباب، وينجلى الماء.

ينبثق سرب طيور محلقة بقوة من الضفتين، وبين أعواد القصب، وينفجر فى السماء الصافية مطلقًا صخبه. هى طيور القطا، وحجل الصحراء، التى تجعل صيحاتها الحادة جوبا ينتفض. يقف فوق حجر البئر، يتبعها بنظره للحظات. ترتفع الطيور عاليًا فى السماء، تمر أمام قرص الشمس، ثم تنكفئ نحو الأرض من جديد وتختفى وسط أعشاب النهر. بعيدًا، فى الطرف الآخر من الحقول، تخرج النساء من المنازل، يشعلن مواقد الجمر، لكن ضوء الشمس من الرهافة إلى حد أنه لا يستطيع تكدير الوهج الأحمر لفحم الخشب الذى يحترق. يسمع جوبا صرخات أطفال، وأصوات رجال. شخصٌ ما، فى مكان ما، ينادى، فيتردد صدى صوته الجهير طويلاً فى الهواء:

"جو ـ ووو ـ بااا!"

تسير البقرتان بسرعة أكبر، الآن. فالشمس تدفئ جسديهما وتمنحهما قوة أكبر. تئن الساقية وتَصر، وكل سِن من التروس تطقطق حين تنطبق على أخرى، ويُحدث السير الجلدى المشدود بفعل ثقل الدلاء اهتزازًا مستمرًا. تصعد الدلاء حتى حافة البئر، تنقلب فى المجرى الحديدى، ثم تنزل مرةً ثانيةً وهى تضرب جدران البئر. ينظر جوبا إلى الماء الذى يسيل بدفعات على طول المجرى، يجرى فى الساقية، وينزل فى دفعات منتظمة نحو تراب الحقول الأحمر.

www.ibtesama.com

ينساب الماء كرشفات بطيئة، وتشربه الأرض الجافة بشراهة. أصبح قاع مصرف الماء موحلاً، والدفق المنتظم يتقدم، مترًا مترا. ينظر جوبا إلى الماء، بلا ملل، جالسًا فوق حجر على حافة البئر. بجانبه، تدور العَجلة الخشبية ببطء شديد، وهى تصر، والطنين المستمر للسير يصّاعد فى الهواء، تضرب الدلاء المجرى الحديدى، وواحدًا تلو الآخر، تصب الماء الذى يسيل وهو يشخشخ. موسيقى بطيئة ومتأوهة كصوت بشرى، تملأ السماء الخالية والحقول. موسيقى يعرفها جوبا جيدًا، يومًا بعد يوم. ترتفع الشمس أعلى الأفق، ويهتز ضوء النهار فوق الأحجار، وسيقان النباتات، والماء الذى يجرى فى الساقية. يمشى الرجال فى البعيد، فوق منحنى الحقول، أطيافًا سوداء أمام السماء الشاحبة. يسخن الهواء شيئًا فشيئًا، وتبدو الأحجار كأنها تنتفخ، والتراب الأحمر يلتمع كبشرة إنسان. ثمة صرخات، من أقصى الأرض إلى أقصاها، صرخات رجال ونباح كلاب، وكل ذلك يتردد صداه فى السماء اللانهائية، فيما تدور العجلة الخشبية وهى تصر. لم يعد جوبا ينظر إلى البقرتين. أدار ظهره لهما، لكنه يسمع أنفاسهما التى تحك حلقيهما، ثم يبتعد، ويعود من جديد. لا تزال حوافر الحيوانين تضرب نفس الأحجار، فوق المسار الدائرى، وتغوص فى نفس الحفر.

عندئذٍ يلف جوبا رأسه فى القماشة البيضاء، ولا يتحرك. ربما ينظر فى البعيد، إلى الناحية الأخرى

www.ibtesama.com

من حقول التراب الأحمر، أو على الناحية الأخرى من النهر المعدنى. لا يسمع صوت الساقية التى تدور، ولا صوت العريش الخشبى الثقيل الذى يدور حول مداره.

"إى ـ أو!"

يغنى فى داخله، ببطء، هو أيضًا، وعيناه شبه مغمضتين.

"إى ى ـ أووو، أووو ـ أووو!"

تختبئ يداه ووجهه تحت القماشة البيضاء، وجسده ساكن، يغنى مع الساقية التى تدور. يفتح فمه بالكاد فيخرج غناؤه من حلقه طويلاً، كنخير البقرتين، كالطنين المستمر للسير الجلدى.

"إى ى ـ إى ى ـ إيااا ـ أو!"

يبتعد نخير البقرتين، ويعود من جديد، يدور بلا توقف على طول المسار الدائرى. يغنى جوبا لنفسه، ولا أحد يستطيع أن يسمعه، فيما ينساب الماء فى رشفات على طول الساقية. المطر، الريح، الماء الثقيل للنهر الكبير الذى ينزل نحو البحر، موجودون فى حلقه، وفى جسده الساكن. تصعد الشمس بلا استعجال فى السماء، فتهتز العجلات الخشبية والسير من الحرارة. ربما تكون نفس الحركة التى تحمل الشمس إلى منتصف السماء، فيما تتقدم البقرتان بعناء على طول المسار الدائرى.

"إيا ـ أووو، إيا ـ أووو، أوو ـ أو ـ أووو ـ أو!"

www.ibtesama.com

يستمع جوبا إلى الغناء الذى يصّاعد بداخله، ويجتاز بطنه وصدره، ذلك الغناء القادم من أعماق البشر. يسيل الماء بدفعات، بلون التراب، ينزل نحو الحقول الجرداء. يدور الماء أيضًا ببطء، يطوق الأنهار، يطوق الجدران، ويطوق سحبًا حول محور خفى. ينساب الماء وهو يطقطق، ويصر، يجرى بلا توقف نحو الهاوية المعتمة للبئر حيث تستعيده الدلاء الفارغة.

إنها موسيقى لا يمكن أن تنتهى، لأنها فى العالم بأكمله، وفى السماء نفسها، حيث يصعد القرص الشمسى، على طول مساره المنحنى. تصعد الأصوات العميقة، المنتظمة، الرتيبة، من الساقية الخشبية الكبيرة على التروس المتأوهة، وتدور الرافعة حول مدارها وهى تُصاعد أنينها، تنزل الدلاء المعدنية فى البئر، يهتز السير الجلدى كالصوت، ويواصل الماء السيلان فوق المجرى، فى دفعات، ويغرق قناة الساقية. ما من أحد يتكلم، ما من أحد يتحرك، والماء يسيل، يكبر كالسيل، ينتشر فى الشقوق، وفوق حقول الحجر والتراب الأحمر.

يقلب جوبا رأسه إلى الوراء قليلاً وينظر إلى السماء. فيرى الحركة الدائرية البطيئة التى ترسم آثارها الفوسفورية، ويرى الكواكب الشفافة، وتشابكات الضوء فى الفضاء. يملأ صوت الساقية الجو كله، ويدور بلا انتهاء مع الشمس. تسير البقرتان بنفس الإيقاع، الجبين محنى، والقفا متصلب بفعل ثقل النير. يسمع جوبا الصوت المخنوق لحوافرهما، وصوت

www.ibtesama.com

نخيرهما الذى يذهب ويجىء، فيكلمهما من جديد، يقول لهما كلمات قوية، تبقى أمدًا طويلاً، كلمات تمتزج بأنات السير، وصوت جهد تروس العجلات، ورنين الدلاء التى تصعد باستمرار، وتصب الماء.

"إيبا ـ أياااا، إيباااا ـ أو! إياااا ـ أو!"

بعد ذلك، وفيما تصعد الشمس ببطء، تجرجرها الساقية وخطى البقرتين، يغمض جوبا عينيه. تخلق الحرارة والضوء دوامة رهيفة تحمله فى تيارهما، على امتداد دائرة فى منتهى الاتساع إلى حد أن تبدو كأنها لا تنغلق أبدًا. جوبا فوق جناحى عقاب أبيض، عاليًا جدًّا فى السماء الخالية من السُّحُب. ينزلق على نفسه، عبر طبقات الهواء، ويتغير لون التربة الحمراء ببطء تحت أجنحته. والحقول العارية، الدروب، المنازل بسقوف السَّعف، النهر بلونه المعدنى، الكل، يدور حول البئر، مصدرًا صوتًا يقعقع ويَصِر. الموسيقى الرتيبة للسواقى، نخير البقرتين، قرقرة الماء فى الساقية، كل هذا يدور، يحمله بعيدًا، يختطفه. الضوء كبير، والسماء مفتوحة. لم يعد هناك بشر الآن، اختفوا. ليس هناك سوى الماء، والأرض، والسماء، أوساط متحركة تمر وتتقاطع، كل عنصر شبيه بعَجَلة مسننة تعض على ترس.

جوبا ليس نائمًا. يفتح عينيه من جديد، وينظر أمامه مباشرةً، فيما وراء الحقول. لا يتحرك. تغطى القماشة البيضاء رأسه وجسده، وهو يتنفس ببطء.

www.ibtesama.com

عندئذ ظهرت يُول. يول، مدينة غريبة، شديدة البياض وسط الأرض القاحلة والأحجار الحمراء. لاتزال أبنيتها العالية تتحرك، مترددة، خيالية، كأنها لم تستكمل. هى شبيهة بانعكاسات الشمس على بحيرات الملح الكبرى.

يعرف جوبا هذه المدينة جيدًا. فكثيرًا ما رآها، فى البعيد، حين يكون نور الشمس قويًا جدًا وتُغشى العيون قليلاً من التعب. كثيرًا ما رآها، لكن ما من أحد يقترب منها، بسبب أرواح الموتى. ذات يوم، سأل أباه عن اسم تلك المدينة، فائقة الجمال وشديدة البياض، فقال له أبوه إن اسمها يول، وإنها ليست مدينة للبشر، إنما لأرواح الموتى فحسب. حدثه أبوه أيضًا عن ذلك الذى كان يحكم المدينة، منذ زمن بعيد جدًا، ملك شاب قادم من الناحية الأخرى من البحر ويحمل اسمًا كاسمه.

الآن، فى الموسيقى البطيئة للسواقى، فى الضوء المبهر، حين استقرت الشمس عاليًا جدًا فى السماء، ظهرت يول، مرةً أخرى. تكبُر أمام جوبا، ويرى بوضوح أبنيتها الكبيرة التى ترتجف فى الهواء الساخن. بها أبراج عالية بلا نوافذ، وفيلات بيضاء وسط حدائق النخيل، وقصور، ومعابد. كتل الرخام تلتمع كأنها قُطعت لتوها. تدور المدينة ببطء حول جوبا، والموسيقى الرتيبة للساقية شبيهة بوشيش البحر. تطفو المدينة فوق الحقول الخالية، خفيفة كانعكاسات الشمس على البحيرات الكبرى للملح، وأمامها يجرى

www.ibtesama.com

ماء نهر آزان كطريق من الضوء. يستمع جوبا إلى وشيش البحر، من الطرف الآخر للمدينة. هو صوت ثقيل، يمتزج مع قرع الطبول والهدير الخفيض للأبواق الرومانية وأبواق النُّوبة. شعب حِميَر يحث الخطى فى شوارع المدينة. هناك العبيد السود القادمون من النوبة، وفرقة الجنود الخيالة، والفرسان ذوو العباءات الحمراء والخوذات النحاسية، والأطفال الشقر أبناء الجبليين. يصعد الغبار فى الهواء، وأعلى الطرقات والمنازل، فيشكل غيمة رمادية كبيرة تدور فى زوبعة عند أبواب الأسوار.

"إيا! إيا!" تصيح الحشود، فيما يمشى جوبا على طول الطريق الأبيض. شعب حِميَر هو الذى يناديه، يمد ذراعه نحوه. لكنه يتقدم دون أن ينظر إليهم، على طول الطريق الملكى. أعلى المدينة، أعلى الفيلات والأشجار، هناك معبد ديانا، شاسع، وأعمدته الرخامية شبيهة بجذوع متحجرة. ينير ضوء الشمس جسد جوبا فينتشى به، ويسمع الضوضاء المتواصلة للبحر وهى تكبر. المدينة من حوله خفيفة، تهتز وتموج كانعكاسات الشمس على بحيرات الملح الكبرى. يمشى جوبا، لكن قدميه تبدوان كأنهما لا تلامسان الأرض، كأن سحابة تحمله. شعب حِميَر، الرجال والنساء، يمشون معه، والموسيقى المختبئة تردد صداها فى الطرقات وفى الساحات، وأحيانًا تغطى الصيحاتُ المنادية ضوضاء البحر:

www.ibtesama.com

يتفجر الضوء دفعةً واحدة، حين يصل جوبا إلى قمة المعبد. إنه البحر الشاسع الأزرق الذى يمتد حتى الأفق. ترسم الحركة البطيئة الدائرية الخط الصافى للأفق، ويتردد صدى الصوت الرتيب للأمواج على الصخور.

"جوبا! جوبا!"

تصرخ أصوات شعب حِميَر، فيدوى اسمه فى المدينة كلها، أعلى الأسوار ترابية اللون، وفى الباحات المعمدة للمعابد، وساحات القصور البيضاء. يفعم اسمه الحقول الحمراء، حتى حدود نهر أزان.

يصعد جوبا الدرجات الأخيرة لمعبد ديانا. يرتدى الأبيض، وشعره الأسود مربوط بعصابة من خيط الذهب. وجهه الجميل النحاسى موجه صوب المدينة، وعيناه القاتمتان تنظران، لكن كأنهما تريان من خلال أجساد البشر، وعبر الجدران البيضاء للأبنية.

تخترق نظرة جوبا أسوار يول، تذهب إلى ما وراءها؛ تتبع تعرجات نهر أزان، تعبر المساحات الممتدة للحقول الخاوية، تذهب حتى جبال عمورة، وحتى نبع سبِّجاج. يرى الماء الصافى الذى يتفجر بين الصخور، ذلك الماء الشفاف والبارد الذى يجرى مصدرًا صوته الأليف.

تصمت الحشود الآن، فيما ينظر جوبا من عينيه الداكنتين. وجهه يشبه وجه إله شاب، ويبدو ضوء الشمس مضاعفًا عشر مرات على ملابسه البيضاء وعلى بشرته النحاسية.

www.ibtesama.com

تتبثق الموسيقى من جديد، كجلبة الطيور، وتدوى بين جدران المدينة. تملأ السماء والبحر، وتتسع ذبذبتها طويلاً.

"أنا جوبا"، يفكر الملك الشاب، ثم يقول بصوت عال وبقوة:

"أنا جوبا، ابن جوبا، حفيد هيمبسال!"

"جوبا! جوبا! إيا ـ أووو!"، تصيح الحشود.

"أنا جوبا، ملككم!"

"جوبا! جو ـ ووو ـ باااا!"

"لقد عدت اليوم، ويُول هى عاصمة مملكتى!"

تكبر ضوضاء البحر أكثر. الآن، تصعد امرأة شابة على درجات المعبد. جميلة، ترتدى فستانًا أبيض يتحرك فى الريح، وشعرها الفاتح مضعم بالبريق. يمسك جوبا بيدها ويمشى معها حتى حافة المعبد.

"كليوباترا سيلينى، ابنة أنطونيو وكليوباترا، ملكتكم!"، يقول جوبا.

صخب الحشود يغطى المدينة.

تنظر المرأة الشابة، بلا حراك، إلى الفيلات البيضاء، والأسوار، وامتداد الأرض الحمراء. بالكاد تبتسم.

لكن الحركة البطيئة للسواقى متواصلة، وصوت البحر أصبح أقوى من أصوات البشر. فى السماء،

www.ibtesama.com

تنزل الشمس شيئًا فشيئًا، فى طريقها الدائرى. يُغير ضوؤها من لونه على جدران الرخام، ويمدد ظلال الأعمدة.

كأنهما وحدهما الآن، جالسين أعلى درجات المعبد، بجانب أعمدة الرخام. من حولهما، الأرض والبحر يدوران مصدرين أنينهما المنتظم. تنظر كليوباترا سيلينى إلى وجه جوبا. تنظر بإعجاب إلى وجه الملك الشاب، إلى الجبين العالى، والأنف المعقوف، والعينين المسحوبتين اللتين يحيط بهما الرسم الأسود للرموش. تنحنى عليه وتكلمه بهدوء، بلغة لا يستطيع جوبا أن يفهمها. صوتها رخيم ونَفسها مُعطر. ينظر إليها جوبا بدوره، ويقول:

"كل شىء هنا جميل، منذ أمد طويل جدًا وأنا أرغب فى المجىء. كنت كل يوم، منذ طفولتى، أفكر باللحظة التى أرى فيها كل هذا من جديد. أريد أن أكون خالدًا، كى لا أغادر هذه المدينة وهذه الأرض أبدًا، ولكى أرى هذا دائمًا".

تلتمع عيناه الداكنتان بالمشهد المحيط به. لا يكف جوبا عن النظر إلى المدينة، والمنازل البيضاء، والشرفات، وحدائق النخيل. تهتز يول فى ضوء الظهيرة، خفيفة، خيالية، كانعكاسات الشمس على بحيرات الملح الكبرى. تحرك الريح التى تهب شعر كليوباترا سيلينى الذهبى، وتحمل الريح الضوضاء الرتيبة للبحر إلى قمة المعبد.

www.ibtesama.com

يسأله صوت المرأة الشابة، بنطق اسمه فقط:

"جوبا... جوبا؟"

"لقد توفى أبى مهزومًا هنا"، قال جوبا:

"أُخذت كعبد إلى روما. لكن هذه المدينة اليوم جميلة، وأريدها أن تصبح أجمل. أريد ألا تكون هناك مدينة أجمل منها فوق الأرض. سنعلِّم فيها الفلسفة، وعلم الفلك، وعلم الأرقام، وسيأتى البشر من كل أنحاء العالم ليتعلموا!"

تنصت كليوباترا سيلينى إلى كلام الملك الشاب دون أن تفهمه. لكنها تنظر أيضًا إلى المدينة، وتسمع ضوضاء الموسيقى التى تدور حول الأفق. صوتها يشدو تقريبًا حين تنادى:

"جوبا! إيااا! ـ أوا"

"فى الساحة، فى قلب المدينة، سيُعلم المعلمون لغة الآلهة. وسيتعلم الأطفال تبجيل المعرفة، سيقرأ الشعراء أعمالهم، وسيتكهن علماء الفلك بالمستقبل. لن تكون هناك أرض أكثر ازدهارًا، ولا شعب أكثر سلامًا. ستتألق المدينة بكنوز العقل، وبهذا الضوء".

يلتمع وجه الملك الشاب فى النور الذى يحيط بمعبد ديانا. وترى عيناه بعيدًا، فيما وراء الأسوار، وفيما أعلى التلال، وصولاً إلى مركز البحر.

"أكثر الرجال حكمةً فى أمتى سيأتون إلى هنا، فى هذا المعبد، مع النُّسَّاخ، وسأدون معهم تاريخ هذه

www.ibtesama.com

الأرض، تاريخ الرجال، والحروب، والمنجزات الكبرى للحضارة، وتاريخ المدن، والأنهار، والجبال، وضفاف البحر، من مصر إلى بلاد سِرنى".

ينظر جوبا إلى رجال شعب حِميَر الذين يحثون الخطى فى طرقات المدينة، وحول المعبد، لكنه لايسمع ضوضاء أصواتهم، إنه يسمع فحسب ضوضاء البحر الرتيبة.

"لم آت للانتقام"، يقول جوبا. ينظر أيضًا إلى الملكة الشابة التى تجلس بجواره.

"سيولد ابنى بطليموس"، يضيف. "وسيحكم هنا، فى يول، وأبناؤه سيحكمون من بعده، حتى لا ينتهى شىء".

ثم يقف، فى باحة المعبد، فى مواجهة البحر تمامًا. عليه الضوء المبهر، ذلك الضوء القادم من السماء، الذى تلتمع فيه جدران الرخام، والمنازل، والحقول، والتلال. هذا الضوء يأتى من مركز السماء، ويبقى ساكنًا فوق البحر.

يتوقف جوبا عن الكلام. وجهه يشبه قناعًا نحاسيًا، والضوء يومض على جبينه، ومنحنى أنفه، وعلى وجنتيه. ترى عيناه الداكنتان ما هو كائن، فيما وراء البحر. من حوله، ترتعش الجدران البيضاء ومسلات الكلس وتهتز كانعكاسات الشمس على بحيرات الملح الكبرى. وجه كليوباترا سيلينى ساكنٌ أيضًا، منير، وهادئ كوجه تمثال.

www.ibtesama.com

معًا، يقفان بجانب بعضهما البعض، الملك الشاب وزوجته فى باحة المعبد، والمدينة تدور من حولهما الهوينَى. وتفعم الموسيقى الرتيبة للسواقى الكبيرة المختبئة آذانهما، وتمتزج بصوت الأمواج على صخور الشاطئ؛ كأنشودة، كصوت بشرى يصرخ من بُعد سحيق، ينادى:

"جوبا! جو ـ ووو ـ بااا!"

تكبر الظلال فوق الأرض، فيما تنزل الشمس شيئًا فشيئًا نحو الغرب، إلى يسار المعبد. يرى جوبا الأبنية وهى ترتعش وتنحل. تنزلق على نفسها كالسُّحُب، فيما يصبح غناء السواقى، فى السماء والبحر، أكثر قوةً، أكثر أنينًا. ثمة دوائر كبيرة فى السماء، وموجات كبيرة تسبح. أما الأصوات البشرية فتصغر، تبتعد، تتبخر. أحيانًا أيضًا، تُسمع نغمات الموسيقى، وأصوات أبواق التوبة، والنايات الحادة، والطبول، أو الصيحات الحلقية للجمال التى ترغو، قرب أبواب الأسوار. يمتد الظل الرمادى والبنفسجى تحت التلال، يتقدم فى وادى النهر. وحده المعبد مضاء بالشمس، منتصبًا أعلى المدينة كمركبة من حجر.

جوبا الآن وحيد وسط أنقاض يول. تمر الموجات البطيئة فوق الرخام المهشم، وتشوش صفحة الماء. تنام الأعمدة فى عمق الماء، والجذوع الحجرية الكبيرة متوارية وسط الطحالب، والسلم مغمور. لم يعد ثمة رجال ولا نساء هنا، ولا أطفال. المدينة شبيهة بمقبرة

www.ibtesama.com

ترتعش فى أعماق البحر، وتأتى الأمواج لتضرب الدرجات الأخيرة لمعبد ديانا، كحاجز أمواج. لا يزال الصوت الرتيب، ضوضاء البحر. إنها حركة السواقى الكبيرة المسننة التى لا تزال تصر، وتئن، بينما يبطئ زوج الأبقار المربوط بالعريش سيره الدائرى. فى السماء الزرقاء القاتمة، يظهر الهلال، وهو يلتمع بضوئه البارد.

عندئذٍ يُبعد جويا الغطاء الأبيض الذى يلف رأسه. يرتجف، لأن برد الليل حل سريعًا. أعضاؤه مخدرة، وفمه جاف. فى راحة يده، يغرف قليلاً من الماء من دلو ساكن. أصبح وجهه الجميل داكنًا جدًا، شبه أسود، بسبب كل ذلك الحر الذى صبته الشمس. تنظر عيناه إلى امتداد الحقول الحمراء، حيث لا أحد الآن. البقرتان متوقفتان على الدرب الدائرى. لم تعد العَجلات الكبيرة تدور، لكنها تطقطق وتصر، وسير الجلد المقوى الطويل لا يزال يهتز.

بلا استعجال، يفك جويا حبال البقرتين، ويبعد العارضة الخشبية الثقيلة. الليل يصعد فى الطرف الآخر من الأرض، أسفل نهر أزان. قرب المنازل، تتقد نيران الجمر، والنساء واقفات أمام المواقد.

"جو ـ ووو ـ بااا! جو ـ ووو ـ باا"

هو نفس الصوت ينادى، الصوت المرتفع والشادى، فى مكان ما من الجانب الآخر للحقول الخالية. يلتفت جويا وينظر للحظات، ثم يهبط تل الحجر، وهو يقود

www.ibtesama.com

البقرتين من حبليهما. حين وصل إلى أسفل التل، ربط القيود إلى عراقيب البقرتين. الصمت، فى وادى النهر، هائل، يغطى الأرض والسماء كماء هادئ لاتتحرك فيه أية موجة. إنه صمت الحجر.

ينظر جوبا حوله طويلاً، ويستمع إلى صوت تنفس البقرتين. توقف الماء عن الجريان فى الساقية، آخر القطرات شربتها الأرض، من تشققات الأخاديد. غطى الظل الرمادى المدينة البيضاء ذات المعابد البسيطة، والأسوار، وحدائق النخيل. أربما بقى، فى مكان ما، نُصب فى شكل ضريح، قبة من حجر مهشمة تنمو فيها الأعشاب والشجيرات، غير بعيد عن البحر؟ أربما غدًا، حين تبدأ العجلات الخشبية الكبيرة فى الدوران من جديد، وحين تعود البقرتان للسير مرةً ثانية، ببطء، وهما تنفخان، على مسارهما الدائرى، ربما عندئذ ستظهر المدينة من جديد، شاهقة البياض، مرتعشة وخيالية كانعكاسات الشمس؟ يدور جوبا حول نفسه قليلاً، ينظر فحسب إلى امتداد الحقول التى تستريح من الضوء ويغمرها ضباب النهر. ثم يبتعد، يمشى بخطى سريعة على الدرب، نحو المنازل حيث ينتظر الأحياء.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

ذلك الذى لم يرَ البَحر أبدًا

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

ـ ١ ـ

كان اسمه دانييل، لكنه كم كان يود لو أن اسمه سندباد، لأنه قرأ مغامراته فى كتاب كبير مُجلَّد بالأحمر كان يحمله معه دائمًا، داخل الفصل وفى عنبر النوم. فى الواقع، أعتقد أنه لم يقرأ أبدًا كتابًا غيره. لم يكن يتحدث عنه، إلا أحيانًا حين يُسأل. حينها كانت عيناه السوداوان تلتمعان بقوة أكبر، وينتعش وجهه الطويل الدقيق فجأة. لكنه كان فتى لايتكلم كثيرًا. لم يكن يختلط بأحاديث الآخرين، إلا حين يتعلق الموضوع بالبحر، أو الأسفار. فمعظم البشر كائنات أرضية، هكذا هو الأمر. لقد وُلدوا على الأرض، والأرض وأشياء الأرض هو ما يهمهم. حتى البحارة هم أناس من الأرض؛ يحبون المنازل والنساء، ويتحدثون عن السياسة والسيارات. لكن هو، دانييل، كان كأنه من جنس آخر. كانت أشياء الأرض تُضجره، المحلات، السيارات، الموسيقى، الأفلام، وبطبيعة

www.ibtesama.com

الحال دروس الثانوية. لم يكن يقول شيئًا، بل لم يكن يتثاءب ليُبدى ضجره. كان يبقى فى مكانه، جالسًا فوق دكة، أو على درجات السلم، أمام السقيفة، ينظر إلى الفراغ. كان تلميذًا دون المتوسط، يجمع فى كل فصل دراسى فقط ما يتوجب عليه من علامات كى يستمر. وحين كان أحد المعلمين ينطق اسمه، كان يقف ويُسمِع درسه، ثم يجلس مرةً ثانية ولا يفعل شيئًا آخر. كان كأنه ينام وعيناه مفتوحتان.

حتى عندما كانوا يتحدثون عن البحر، لم يكن يهتم كثيرًا. كان يستمع لبرهة، يسأل سؤالين أو ثلاثة، ثم يكتشف أن الكلام لم يكن حقًا عن البحر، إنما عن السباحة، عن الصيد تحت أعماق البحر، عن الشواطئ وعن ضربات الشمس. فكان يغادر، ويعود للجلوس فوق دكته أو على درجات السلم، وينظر إلى الفراغ. لم يكن هذا هو البحر الذى كان يريد أن يسمع عنه. إنما بحر آخر، لا نعلم أى بحر، لكنه بحر آخر.

كان هذا قبل أن يختفى، قبل أن يرحل. لم يكن أحد يتوقع أنه سيرحل يومًا ما، أقصد فعليًا، بلا رجعة. كان بالغ الفقر، وكان والده لا يملك سوى قطعة أرض زراعية صغيرة على بُعد بضع كيلومترات عن المدينة، وكان دانييل يرتدى المئزر الرمادى للطلاب الداخليين، لأن عائلته كانت تسكن أبعد من أن يتمكن من العودة لمنزله كل مساء. كان له ثلاثة أو أربعة إخوة أكبر منه لم نكن نعرفهم.

www.ibtesama.com

لم يكن لديه أصدقاء، لم يكن يعرف أحدًا ولا أحد يعرفه. ربما كان يفضل أن يكون كذلك، كى لايرتبط بأحد. وكان له وجه غريب حاد طويل ودقيق، وعينان سوداوان جميلتان لا مباليتين.

لم يقل شيئًا لأحد. لكنه حينها كان قد أعد كل شىء، هذا مؤكد. كان قد أعد كل شىء فى رأسه، بتذكر الطرقات والخرائط، وأسماء المدن التى كان سيعبرها. ربما حلُم بأشياء كثيرة، يومًا بعد يوم، وكل ليلة، وهو ممدد على سريره فى عنبر النوم، فيما كان الآخرون يمزحون ويدخنون السجائر خلسة. كان قد فكر بالأنهار التى تنزل ببطء نحو مصباتها، وصيحات النوارس، والرياح، والعواصف التى تهب فى صوارى السفن وصفارات الفنارات.

كانت بداية الشتاء، عندما رحل، فى حدود منتصف شهر سبتمبر. حين استيقظ الطلاب الداخليون، فى عنبر النوم الرمادى، كان قد اختفى. لاحظوا غيابه على الفور، فور أن فتحوا أعينهم، لأن سريره لم يكن مُهوشًا. كانت البطاطين مسحوبة بعناية، وكل شىء مرتب. قالوا ببساطة: "لقد رحل دانييل!"، دون أن يستغربوا حقًا، لأنهم كانوا نوعا مًا يعلمون أن ذلك كان سيحدث. لكن لم يقل أحد شيئًا آخر، لأنهم لم يرغبوا فى أن يلحق به أحد.

حتى الأكثر ثرثرة من تلاميذ الفصل الثانى لم يقولوا شيئًا. على أية حال، ماذا كان يمكنهم أن يقولوا؟ فما كانوا يعرفون شيئًا. ولمدة طويلة، ظللنا

www.ibtesama.com

نهمس، فى الساحة، أو أثناء درس اللغة الفرنسية، لكنها لم تكن سوى شذرات جُمل لم يكن يعرف معناها سوانا.

"أتظن أنه وصل الآن؟"

"تظن؟ ليس بعد، فهو بعيد، تعلم..."

"غدًا؟"

"نعم، ربما..."

الأكثر جرأة كانوا يقولون:

"ربما هو فى أمريكا، بالفعل..."

والمتشائمون:

"أوه! ربما يعود اليوم".

لكن إن كنا نحن قد صمتنا، فإن القضية كانت تحدث ضجة لدى السلطات العليا. كان الأساتذة والمراقبون يُستدعون باستمرار إلى مكتب مدير الثانوية، وحتى إلى قسم الشرطة. وأحيانًا كان المفتشون يأتون ويستجوبون التلاميذ واحدًا واحدًا محاولين انتزاع معلومات منهم.

بطبيعة الحال، كنا نتكلم عن كل شىء باستثناء ما كنا نعرفه عنه، عن البحر. كنا نتكلم عن الجبال، والمدن، والفتيات، والكنوز، بل وحتى عن البوهيميين الرحَّالة خاطفى الأطفال والفرقة الأجنبية. كنا نقول كل ذلك لنخلط خيوط التحقيق، وكان الأساتذة والمراقبون يغضبون أكثر فأكثر، فيصبحون أشرارًا.

www.ibtesama.com

تواصلت هذه الضجة الكبيرة عدة أسابيع، عدة أشهر. نُشر خلالها فى الصحف إعلانان أو ثلاثة للبحث عن مفقود، فيها أوصاف دانييل وصوره لم تكن تشبهه. ثم هدأ كل شىء فجأةً، لأننا تعبنا جميعًا من هذه القصة. وربما لأننا فهمنا جميعًا أنه لن يعود، أبدًا.

عزَّى والدا دانييل نفسيهما، لأنهما كانا بالغى الفقر، ولأنه لم يكن هناك ما يمكن فعله. وأوقف رجال الشرطة البحث، هذا ما قالوه بأنفسهم، وأضافوا شيئًا كرره الأساتذة والمراقبون، كأن ذلك عادى، وبدا لنا نحن، نحن الآخرين، عجيبًا جدًا. قالوا إن هناك حالات كهذه، كل عام، عشرات الآلاف من الأشخاص يختفون بلا أثر، ولا يُعثر عليهم أبدًا. كان الأساتذة والمراقبون يكررون هذه الجملة الصغيرة، وهم يهزون أكتافهم، كأنها أتفه شىء فى العالم، لكننا حين سمعناها، جعلتنا نحلم، وتولَّد فى أعماق أنفسنا حلم سرى وجذاب لم ينته بعد.

الأرجح أن دانييل وصل فى الليل، على متن قطار بضائع طويل كان قد سار ليل نهار لمدة طويلة. فقطارات البضائع تسير ليلاً بالأخص، لأنها طويلة جدًا وتتقدم ببطء، من تقاطع سكك حديدية إلى آخر. كان دانييل ممددًا فوق الأرضية الصلبة، ملتفًا فى قطعة قديمة من الخيش. كان ينظر عبر فتحات الباب، حين كان القطار يبطئ السرعة ويتوقف وهو يصر على طول الأرصفة. فتح دانييل الباب، قفز فوق

www.ibtesama.com

الطريق، وركض على طول المنحدر، إلى أن عثر على ممر. لم تكن لديه أمتعة، فقط جراب بحر كحلى كان يحمله معه دائمًا، وهو الذى وضع فيه كتابه الأحمر القديم.

الآن، أصبح حرًا، ويشعر بالبرد. كانت ساقاه تؤلمانه، بعد كل تلك الساعات التى قضاها داخل عربة القطار. كان الليل، وكانت السماء تمطر. وكان دانييل يمشى بأقصى سرعة ممكنة ليبتعد عن المدينة. لم يكن يعلم إلى أين يذهب. كان يمشى إلى الأمام مباشرةً، بين جدران الحظائر، على الطريق التى كانت تلتمع فى ضوء المصابيح الأصفر. لم يكن ثمة أحد هناك، ولا أسماء مكتوبة على الجدران. لكن البحر لم يكن بعيدًا. خمن دانييل أنه فى مكان ما إلى اليمين، تواريه البنايات الأسمنتية الكبيرة، وأنه من الناحية الأخرى للجدران. كان هناك وسط العتمة.

فى لحظة ما، أحس دانييل أنه متعب من المشى. كان قد وصل إلى الريف، والمدينة تلتمع بعيدًا وراءه. كان الليل أسود، والأرض والبحر غير مرئيين. بحث دانييل عن مكان يحتمى فيه من المطر والرياح، فدخل إلى كوخ من ألواح الخشب، على حافة الطريق. بقى هناك للنوم حتى الصباح. فهو لم ينم منذ عدة أيام، والحقيقة أنه لم يأكل أيضًا، لأنه كان يراقب طول الوقت عبر باب عربة القطار. كان يعلم أنه لا يجب أن يلتقى برجال الشرطة. اختبأ جيدًا فى عمق كوخ الألواح الخشبية، قضم بعض الخبز ونام.

www.ibtesama.com

حين استيقظ، كانت الشمس فى السماء. خرج دانييل من الكوخ، وخطا بضع خطوات وهو يطرف بعينيه. كان ثمة طريق تؤدى إلى الكثبان، عليها سار دانييل. كان قلبه يدق بسرعة أكبر، لأنه كان يعلم أن البحر من الناحية الأخرى للكثبان، على بعد مائتى متر أو أقل. ركض على الطريق، وتسلق منحدر الرمال، فيما كانت الرياح تهب بقوة أكبر فأكبر، حاملة الضوضاء والرائحة المجهولة. بعد ذلك، وصل إلى قمة الكثبان، وفجأةً، رآه.

كان هناك، فى كل مكان، أمامه، شاسعًا، منتفخًا كمنحدر جبل، متألقًا بلونه الأزرق، داكنًا، قريبًا للغاية، بأمواجه العالية التى كانت تتقدم نحوه.

"البحر! البحر!": فكر دانييل، لكنه لم يجرؤ على قول ذلك بصوت عال. وقف عاجزًا عن الحركة، أصابعه منفرجة، ودون أن يصدق أنه قد نام بجانبه. كان يسمع الضوضاء البطيئة للأمواج التى تتحرك على الشاطئ. فجأةً لم تعد هناك رياح، فيما كانت الشمس تتوهج فوق البحر، مشعلةً ضوءًا فى قمة كل موجة. كانت رمال الشاطئ بلون الرماد، ناعمة، تقطعها جداول صغيرة وتغطيها برك واسعة تعكس السماء.

كرر دانييل الاسم الجميل عدة مرات، فى أعماق نفسه، هكذا،

"البحر، البحر، البحر..."

www.ibtesama.com

كانت رأسه مليئة بالصخب والدوار. وكان يرغب فى الكلام، بل وحتى الصراخ، لكن حلقه منع صوته من المرور. كان لابد عليه أن يذهب صارخًا، وأن يرمى بعيدًا جدًا جرابه الأزرق الذى تدحرج فوق الرمال، كان لابد أن يذهب وهو يحرك ساقيه وذراعيه كشخص يعبر الطريق السريع. قفز فوق أشرطة أعشاب البحر. كان يترنح فوق الرمال الجافة لأعلى الشاطئ. خلع حذاءه وجواربه، وركض بسرعة، حافى القدمين، دون أن يشعر بوخز نبات الشوك.

كان البحر بعيدًا، عند نهاية سهل الرمال. كان يتوهج فى الضوء، يغير لونه ومظهره؛ امتداد أزرق، فرمادى، فأخضر، فأسود تقريبًا، وأرصفة رملية مُصفَرة، وطيات بيضاء للأمواج. لم يكن دانييل يعلم أنه كان بعيدًا إلى ذلك الحد. واصل الركض، ذراعاه مضمومتان على جسده، وقلبه يخفق بكل قواه داخل صدره. أصبح الآن يشعر بالرمال الصلبة كالأسفلت، مبلولة وباردة تحت قدميه. وكلما كان يقترب، كان صوت الأمواج يكبر، يتضخم مثل صفير البخار. كان صوتًا بطيئًا للغاية ولطيفًا للغاية، ثم عنيفًا ومقلقًا كالقطارات فوق الجسور الحديدية، أو هاربًا إلى الوراء كمياه الأنهار. لكن دانييل لم يكن خائفًا. واصل الركض بسرعة بقدر استطاعته، إلى الأمام مباشرةً فى الهواء البارد، دون أن ينظر إلى جهة أخرى. وحين أصبح على بعد بضعة أمتار عن حافة الزبد، شم رائحة الأعماق فتوقف. كان ألم يحرق خصره، ومنعته الرائحة القوية للماء المالح من التقاط نَفَسه.

www.ibtesama.com

جلس فوق الرمال المبلولة، وأخذ ينظر إلى البحر وهو يصَّاعد أمامه تقريبًا حتى منتصف السماء. كان قد فكر كثيرًا بهذه اللحظة، وتخيل مرات عديدة ذلك اليوم الذى سيراه فيه أخيرًا، فعليًا، لا فى الصور أو السينما، إنما فعليًا، البحر بأكمله، مبسوطًا من حوله، منتفخًا، بالظهور الكبيرة للأمواج التى كانت تتدفق وتندفع، وسُحب الزبد، وأمطار الرذاذ كالهباء فى ضوء الشمس، وبالأخص، فى البعيد، ذلك الأفق المنحنى كجدار أمام السماء! كان ملهوفًا بشدة على هذه اللحظة إلى حد أن خارت قواه، كأنه سيموت، أو سينام. كان البحر حقًا بحره، له وحده الآن، وأدرك أنه لن يستطيع الرحيل أبدًا. مكث دانييل فوق الرمال الصلبة مدةً طويلة، وانتظر طويلاً، وهو ممدد على جنبه، إلى أن صعد البحر على طول المنحدر وبدأ يلامس قدميه العاريتين.

كان ذلك مَد البحر. قفز دانييل على قدميه، وكل عضلاته متقلصة استعدادًا للهرب. فى البعيد، على الصخور السوداء، كانت الأمواج تتدفق بصوت راعد. لكن قوة الماء لم تكن قد اشتدت بعد. كان يتحطم، يفور أسفل الشاطئ، ولم يكن يصل إلا زاحفًا. كان الزبَد الخفيف يطوق ساقى دانييل، ويحفر آبارًا صغيرة حول كعبيه. فى البداية، عض الماء البارد أصابعه وكاحليه، ثم خدرهما.

فى نفس وقت المد، جاءت الرياح. هبت من عمق الأفق، فتلبدت السماء بالسُّحُب. لكنها كانت سُحبًا

www.ibtesama.com

مجهولة، شبيهة بزبد البحر، وسافر الملح فى الرياح كحبيبات رمل. لم يعد دانييل يفكر فى الهرب. بدأ يمشى على طول البحر على حافة الزبد. مع كل موجة، كان يشعر بالرمال تفر بين أصابع قدميه المتباعدة ثم تعود من جديد. فى البعيد، كان الأفق ينتفخ وينخفض كأنه يتنفس، ويرمى دَفقاته نحو الأرض.

شعر دانييل بالعطش. تناول براحة يده قليلاً من الماء والزَّبد وشرب رشفة. أحرق الملح فمه ولسانه، لكن دانييل واصل الشرب، لأنه كان يحب طعم البحر. فقد فكر طويلاً جدًا بهذا الماء، الحُر، الذى بلا حدود، بكل هذا الماء الذى يمكن أن يشربه المرء طوال حياته! على الشاطئ، كان آخر مَد قد لفظ قِطعًا خشبية وجذورًا شبيهة بعظام كبيرة للموتى. بدأ الماء يستعيدها ببطء، يطرحها أعلى قليلاً، ويمزجها بالطحالب السوداء الكبيرة.

كان دانييل يمشى على حافة الماء، وينظر إلى كل شىء بلهفة، كأنه كان يريد أن يعرف فى لحظات كل ما يمكن للبحر أن يطلعه عليه. كان يأخذ فى يديه الطحالب اللزجة، وأجزاء من الأصداف، يحفر فى الوحل على طول ممرات الديدان، يفتش فى كل مكان فى الرمل المبلول، وهو يمشى، أو على يديه وقدميه. كانت الشمس قاسية وقوية فى السماء، والبحر يزمجر بلا انتهاء.

www.ibtesama.com

من حين إلى آخر، كان دانيل يتوقف، في مواجهة الأفق، وينظر إلى الأمواج العالية التي كانت تحاول العبور من فوق الصخور. كان يتنفس بكل قواه، ليحس بالنَّفس، وبدا كأن البحر والأفق كانا ينفخان رئتيه، وبطنه، ورأسه، وأنه بدأ يتحول إلى عملاق. كان ينظر إلى الماء القاتم، في البعيد، حيث لم يكن ثمة أرض ولا زبد، فقط السماء الخالية، وتحدث إليه، بصوت خفيض، كأنه يستطيع سماعه؛ قال:

"تعال! اصعد إلى هنا، تعال! تعال!"

"أنت جميل، ستأتي وتغطي كل الأرض، وكل المدن، وستصعد إلى أعلى الجبال!"

"تعال، بطحالبك، اصعد، اصعد! من هنا، من هنا!"

ثم تراجع إلى الوراء، خطوةً خطوة، نحو أعلى الشاطئ. هكذا اكتشف مسار الماء الذي يصعد، ينتفخ، وينتشر كالأيادي على طول وديان الرمل الصغيرة. كانت السلطعونات الرمادية تجري أمامه، بملاقطها المرفوعة إلى الأعلى، خفيفة كالحشرات. وكان الماء الأبيض يملأ الحُفر الغامضة، ويُغرق الممرات السرية. مع كل موجة كان يصعد أعلى قليلاً، ويوسع طبقاته المتحركة. ودانيل يرقص أمامه، مثل السلطعونات الرمادية، يجري مائلاً وهو يرفع ذراعيه فيما كان الماء يأتي ليعض عقبيه. ثم ينزل مرةً ثانية، ويحفر خنادق صغيرة في الرمل كي يصعد الماء بسرعة أكبر، وهو يدندن بكلمات ليساعده على المجيء:

www.ibtesama.com

"هيا، اصعد، هيا، يا أمواج، اصعدى إلى الأعلى، تعالى إلى الأعلى، هيا!"

الآن، أصبح داخل الماء حتى الحزام، لكنه لم يشعر بالبرد، ولم يكن خائفًا. كانت ملابسه المبلولة تلتصق ببشرته، وخصلات شعره تنزل على عينه كالطحالب. وكان البحر يفور من حوله، ينسحب بقوة أكبر كانت تجبره على التشبث بالرمال كى لا ينقلب ويسقط، ثم ينقض من جديد ويدفعه نحو أعلى الشاطئ.

كانت الطحالب الميتة تسوط ساقيه، وتتحاضن عند عرقوبيه. وكان دانييل ينتزعها كالأفاعى، ويرميها فى البحر وهو يصيح:

"إخ! إخ!"

لم يكن ينظر إلى الشمس، ولا إلى السماء. بل لم يعد يرى حتى الشريط البعيد للأرض، ولا خيالات الأشجار. لم يكن ثمة أحد هناك، لا أحد سوى البحر، وكان دانييل حُرًّا.

فجأةً، بدأ البحر فى الصعود بسرعة أكبر. تضخم فوق الصخور، وبدأت الأمواج تأتى من عرض البحر، دون أن يعترض طريقها شىء. كانت عالية وكبيرة، تصل بانحراف، بقممها الثائرة وبطونها الزرقاء الداكنة التى كانت تتجوف تحتها، محفوفة بالزبد. وصلت بسرعة هائلة لم تتح الوقت لدانييل للاحتماء. أدار ظهره للفرار، فمسته موجة فى كتفيه،

www.ibtesama.com

ومرت فوق رأسه. بالغريزة، غرس دانييل أظافره فى الرمل وتوقف عن التنفس. سقط الماء فوقه بصوت راعد، وهو يدور فى دوامة، ويخترق عينيه، وأذنيه، وفمه، ومنخريه.

زحف دانييل نحو الرمال الجافة، وهو يبذل جهدًا كبيرًا. كان دائخًا للغاية فقبع وقتًا طويلاً ممددًا على بطنه عند حافة الزبد، دون أن يتمكن من الحركة. لكن أمواجًا أخرى وصلت، وهى تزمجر. كانت قممها مرتفعةً إلى مستوى أعلى وبطونها تتجوف كالمغارات. فركض دانييل إلى أعلى الشاطئ، وجلس فوق رمال الكثبان، من الناحية الأخرى لحاجز أعشاب البحر. ولم يقترب من البحر مرةً ثانية، طيلة بقية اليوم. لكن جسده ظل يرتجف، وطعم الملح الحارق على كل بشرته، وحتى بداخله، وفى عمق عينيه، البقعة الباهرة للأمواج.

فى الطرف الآخر للخليج كان ثمة لسان بحرى أسود، مجوف بالمغارات. هناك عاش دانييل، الأيام الأولى، بعد وصوله أمام البحر. كانت مغارته عبارة عن تجويف صغير فى الصخور السوداء، مفروش بالحصى الأملس والرمل الرمادى. هناك عاش دانييل، خلال كل تلك الأيام، دون أن تفارق تقريبًا عيناه البحر.

حين كانت الشمس تظهر، بالغة الشحوب ورمادية، والأفق بالكاد يُرى كخيط وسط الألوان المتداخلة للبحر والسماء، كان دانييل يستيقظ ويخرج

www.ibtesama.com

من المغارة. يصعد أعلى الصخور السوداء ليشرب من ماء المطر فى الحفر. وكانت طيور البحر الكبيرة تأتى إلى هنا أيضًا. تُحلق حوله وهى تطلق صيحاتها الطويلة الصَّارة، فكان دانييل يحييها بالتصفير. فى الصباح، أثناء جَزر البحر، كانت الأعماق الغامضة تبين. كان ثمة برك كبيرة من الماء الداكن، وسيول تجرى فى شلالات بين الأحجار، ودروب زلقة، وتلال من الطحالب الحية. عندئذ كان دانييل يغادر اللسان البحرى وينزل على طول الصخور حتى منتصف السهل الذى عراه البحر. كان كأنه قد وصل إلى منتصف البحر نفسه، إلى بلد غريب، لا يوجد إلا لبضع ساعات.

كان لابد له أن يسرع. فالحافة السوداء للصخور كانت قريبة، وكان دانييل يسمع الأمواج تزمجر بصوت خفيض، والتيارات العميقة توشوش. فى هذا المكان، لم تكن الشمس تسطع طويلاً. فالبحر كان يعود بعد وقت قصير ليغطيها بظله، فينعكس عليه الضوء بعنف، دون أن يتمكن من تدفئته. كان البحر يكشف بعض الأسرار، التى لابد من التقاطها سريعًا، قبل أن تختفى. ودانييل يركض فوق صخور عمق البحر، بين غابات الطحالب. كانت الرائحة القوية تصعد من البرك والوديان السوداء، تلك الرائحة التى لم يكن يعرفها البشر مع أنها تمنحهم النشوة.

فى البرك الكبيرة، قُرب البحر، كان دانييل يبحث عن الأسماك، والقريدس، والأصداف. كان يغمر

www.ibtesama.com

ذراعه فى الماء، بين باقات الطحلب، وينتظر أن تأتى القشريات لتدغدغ أطراف أصابعه؛ ليمسك بها. فى البِرَك أيضًا، كانت شقائق النعمان البحرية، والبنفسجية، والرمادية، والحمراء القانية تفتح وتغلق تويجاتها.

فوق الصخور المُسطحة كانت تعيش البطلينوسات البيضاء والزرقاء، والحلزونات البحرية البرتقالية، والقواقع، وعروش نوح، والمحار. فى تجاويف البِرَك، كان الضوء يتألق فوق الظهور العريضة للتون، أو على الصدفة اللبنية لقواقع القمر. أو أحيانًا، كانت تنبثق كسحابة، فجأةً ـ بين أوراق الطحالب ـ الصَّدَفة الفارغة لإحدى قواقع أذن بحر عجوز بلون قوس قزح، أو شفرة سكين، أو الشكل المثالى لصدفة سان جاك. كان دانييل ينظر إليها، طويلاً، وهى فى مكانها، عبر زجاج الماء، وكأنه يعيش هو أيضًا داخل البِركَة، فى قاع شق صغير، مبهورًا بضوء الشمس فى انتظار ليل البحر.

كان يصطاد البطلينوسات، للأكل. كان لابد له أن يدنو منها بلا صوت، كى لا تلتصق بالحجارة. ثم أن يفصلها بضربة قدم، بضربها بطرف إبهام قدمه. لكن فى أغلب الأحيان كانت البطلينوسات تسمع صوت خطواته، أو أزيز تنفسه، فتلتصق بالصخور المُسطحة، مصدرةً سلسلة من الطقطقات. وحين كان دانييل يحصل على ما يكفى من القريدس والأصداف، كان يضع صيده فى بركة صغيرة، داخل تجويف صخرة،

www.ibtesama.com

كى يطهوه فيما بعد فى علبة مأكولات جاهزة فوق نار أعشاب البحر. ثم كان يذهب إلى الأبعد، فى آخر سهل أعماق البحر، حيث تتدفق الأمواج. فهناك كان يعيش صديقه الأخطبوط.

كان هو من تعرف عليه دانييل على الفور، فى أول يوم وصل فيه أمام البحر، حتى قبل أن يتعرف على طيور البحر وشقائق النعمان. كان قد جاء حتى حافة الأمواج التى كانت تسَّاقط فوق بعضها البعض وهى تتدفق، حين كف البحر والأفق عن الحركة، والانتفاخ، وبدت التيارات المعتمة كأنها تتمالك نفسها قبل أن تقفز. إنه المكان الأكثر سريةً فى العالم، بلا شك، حيث لا يتألق ضوء النهار سوى لبضع دقائق. كان دانييل قد سار ببطء، وهو يتشبث بجدران الصخور الزلقة، كأنه ينزل إلى مركز الأرض. وكان قد رأى البِركة الكبيرة ذات المياه الثقيلة، حيث تتحرك الطحالب الطويلة ببطء. قبع ساكنًا، ووجهه يلامس الواجهة تقريبًا. عندئذ رأى مجسات الأخطبوط وهى تطفو أمام جدران البركة. كانت تخرج من شق، قرب القاع، شبيهةً بالدخان، وتنساب ببطء على الطحالب. حبس دانييل أنفاسه، وهو ينظر إلى المجسات التى كانت تتحرك بالكاد، والمختلِطة بألياف الطحالب.

ثم خرج الأخطبوط. كان جسده الطويل أسطوانى الشكل يتحرك بحذر، ومجساته تموج أمامه. فى الضوء المنهَك للشمس الآفلة، كانت عينا الأخطبوط الصفراوين تتلألآن كالمعدن تحت الأهداب البارزة.

www.ibtesama.com

ترك الأخطبوط مجساته الطويلة ذات الأقراص البنفسجية تطفو لبعض الوقت، كأنه يبحث عن شيءٍ ما. ثم رأى خيال دانييل منحنيًا فوق البركة، فقفز إلى الوراء، وهو يضم مجساته ويطلق سحابة رمادية ـ زرقاء غريبة.

الآن، وككل يوم، وصل دانييل إلى حافة البركة، قرب الأمواج. انحنى فوق الماء الشفاف، ونادى الأخطبوط بهدوء. جلس فوق الصخرة تاركًا ساقيه العاريتين تغطسان فى الماء، أمام الشق الذى كان يسكن فيه الأخطبوط، وانتظر، بلا حراك. بعد وقت قصير، شعر بالمجسات تلامس بشرته، وتلتف حول كاحليه. كان الأخطبوط يربت عليه بحذر، أحيانًا بين أصابعه وتحت إخمص قدميه، فضحك دانييل.

"صباح الخير وِيات"، قال دانييل. كان الأخطبوبط يُدعى وِيات، لكنه، بطبيعة الحال، لم يكن يعرف اسمه. كلمه دانييل بصوت خفيض، كى لايخيفه. كان يطرح عليه أسئلة حول ما يحدث فى أعماق البحر، حول ما يمكن أن نراه ونحن تحت الأمواج. لم يكن وِيات يجيب، لكنه كان يواصل مداعبة قدمى وكاحلى دانييل، بلطف، كما نربت على الشَّعر.

كان دانييل يحبه. لم يكن يستطيع رؤيته لوقت طويل، لأن البحر كان يرتفع بسرعة. وحين يكون الصيد وفيرًا، كان دانييل يحضر له سلطعونات، أو قريدس، ويطلقها فى البركة. كانت المجسات الرمادية تنبثق كالسياط، تلتقط الفرائس وتأخذها نحو

www.ibtesama.com

الصخرة. لم ير دانييل الأخطبوط وهو يأكل. لأنه كان يقبع تقريبًا طوال الوقت مختبئًا داخل شقه الأسود، ساكنًا، بمجساته الطويلة الطافية أمامه. ربما كان مثل دانييل، ربما سافر مدةً طويلة ليعثر على منزله فى عمق البركة، وربما ينظر إلى السماء الصافية عبر الماء الشفاف.

فى أقصى جَزر البحر، كان ثمة شىء كالإشراقة. كان دانييل يمشى وسط الصخور، فوق أبسطة الطحالب، وبدأت الشمس تنعكس فوق الماء وعلى الأحجار، وتشعل أضواء مفعمة بالعنف. لم تكن هناك رياح فى ذلك الحين، ولا حتى هبة ريح. فوق عمق البحر، كانت السماء الزرقاء شاسعة، وتتوهج بضوء استثنائى. كان دانييل يشعر بالحرارة فوق رأسه وفوق كتفيه، أغمض عينيه كى لا يُعميه اللمعان المهول. لم يكن ثمة شىء آخر، لا شىء آخر: السماء، والشمس، والملح، الذين بدأوا فى التراقص فوق الصخور.

ذات يوم كان البحر قد هبط فيه بعيدًا إلى حد أنه لم يكن يُرى إلا كحاشية زرقاء نحيلة، باتجاه الأفق، أخذ دانييل يسير عبر صخور أعماق البحر. أحس فجأةً بنشوة مَن دخلوا الأرض العذراء، وهم يعلمون أنهم قد لا يستطيعون العودة. لم يكن هناك ما يشبه ذلك اليوم؛ كان كل شىء مجهولاً، وجديدًا. التفت دانييل فرأى اليابسة بعيدًا وراءه، شبيهة ببحيرة من الطين. أحس أيضًا بالوحدة، وبصمت الصخور العارية التى استهلكتها مياه البحر، وبالقلق الذى كان يخرج

www.ibtesama.com

من كل الشقوق، وبكل الآبار السرية، فأسرع الخُطى، ثم بدأ يركض. كان قلبه يخفق بقوة فى صدره، كما فى اليوم الأول الذى وصل فيه أمام البحر. كان دانييل يركض دون أن يلتقط أنفاسه، يقفز فوق البرك ووديان الطحالب، يتبع النتوءات الصخرية فاتحًا ذراعيه ليحافظ على توازنه.

كانت هناك أحيانًا بلاطات لزجة، مغطاة بطحالب متناهية الصِّغَر، أو صخور حادة كالشفرات، وأحجار غريبة تشبه جلود كلاب البحر. فى كل مكان، كانت برك الماء تتلألأ، وترتعش. كانت الأصداف الملتصقة بالصخور تفرقع فى الشمس، ولفافات الطحالب تصدر صوتًا غريبًا كالبخار.

كان دانييل يركض دون أن يعرف إلى أين يذهب، وسط سهل عمق البحر، دون أن يتوقف ليرى حدود الأمواج. الآن اختفى البحر، انسحب حتى الأفق كأنه تسرب من ثقب يفضى إلى مركز الأرض.

لم يكن دانييل خائفًا، لكنه لم يكن على سجيته. فهو لم يناد البحر، ولم يكلمه. كان ضوء الشمس ينعكس على ماء البرك كما على المرايا، وينكسر فوق قمم الصخور، يقوم بقفزات سريعة، ويضاعف ومضاته. كان الضوء فى كل مكان فى آن واحد، قريبًا إلى حد أنه كان يشعر بمرور أشعة قوية على وجهه، أو بعيدًا للغاية، مثل الشرارة الباردة للكواكب. بسببه كان دانييل يركض فى تعرجات عبر سهل الصخور. كان الضوء قد جعله حرًا ومجنونًا، فكان يقفز مثله،

www.ibtesama.com

دون أن يدرى. لم يكن الضوء خفيفًا وهادئًا، كضوء الشواطئ والكثبان. كان دوامةً جنونية تنبثق بلا انتهاء، وترتد بين مرآتى السماء والصخور.

كان هناك الملح، بوجه خاص. كان قد تراكم - منذ أيام - فى كل مكان، فوق الحجر الأسود، والحصى الأملس، وأصداف الرخويات، وحتى فوق الأوراق الصغيرة للنباتات كثيفة الورق، أسفل الجرف. كان الملح قد اخترق بشرة دانييل، وترسب فوق شفتيه، وعلى حاجبيه ورموشه، وعلى شعره وثيابه، وأصبح مثل قوقعة صلبة محرقة. دخل الملح حتى فى جسده، وحلقه، وبطنه، وحتى عمق عظامه؛ كان يخز ويَصِر كغبار الزجاج، ويشعل شرارات فوق شبكية عينيه المؤلمة. كان ضوء الشمس قد ألهب الملح، فأصبح كل موشور يلتمع حول دانييل وداخل جسده. فاجتاحه نوع من النشوة، ذلك النوع من الكهرباء التى تتذبذب، لأن الضوء والملح، لم يكونا يريدانه أن يبقى فى مكانه؛ كانا يريدانه أن يرقص، ويركض، ويقفز من صخرة إلى أخرى، كانا يريدانه أن يفر عبر أعماق البحر.

لم ير دانييل فى حياته بياضًا بذلك القدر. حتى ماء البرك، والسماء كانا أبيضين. كانا يحرقان شبكية العين. أغمض دانييل عينيه تمامًا وتوقف، لأن ساقيه كانتا ترتجفان عاجزتين عن حمله. جلس فوق صخرة مسطحة، أمام بحيرة من ماء البحر. كان يسمع صوت الضوء الذى يرتد فوق الصخور، وكل الطقطقات المخنوقة، والفرقعات، والأزيز، وبالقرب من أذنيه،

www.ibtesama.com

الهمس الحاد الشبيه بأزيز النحل. كان عطشانًا، لكن كأن ما من ماء يستطيع أن يروى عطشه أبدًا. واصل الضوء إحراق وجهه، ويديه، وكتفيه، كان يعض بآلاف الوخزات، والتنميل. راحت الدموع المالحة تسيل من عينيه المغمضتين، ببطء، راسمة أخاديد حارة على خديه. مواربًا جفنيه بصعوبة، نظر إلى سهل الصخور البيضاء، والصحراء الكبيرة حيث كانت تتألق برك الماء الأليم. كانت الحيوانات البحرية والأصداف قد اختفت، اختبأت فى الشقوق، تحت ستائر الطحالب.

مال دانييل إلى الأمام فوق الصخرة المسطحة، ووضع قميصه فوق رأسه، كى لا يرى الضوء والملح. ظل ساكنًا مدة طويلة، ورأسه بين ركبتيه، فيما كانت الرقصة الحارقة تمر وتعاود المرور فوق أعماق البحر.

ثم جاءت الريح، ضعيفة فى البداية، تمشى بصعوبة فى الهواء الكثيف. كبرت الريح، ريح باردة خارجة من الأفق، وبرك ماء البحر تختلج وتُغير لونها. وجاءت سُحب إلى السماء، فأصبح الضوء أكثر تناسقًا. سمع دانييل زمجرة البحر القريب، والأمواج الكبيرة التى كانت تضرب بطونها على الصخور. بللت قطرات ماء ثيابه فخرج من مخبئه.

كان البحر هنا، بالفعل. كان يأتى بسرعة كبيرة، ويحيط على عجل بالصخور الأولى كالجُزر، يُغرق الشقوق، وينساب بضوضاء نهر يفيض. كل مرة كان يُغرق فيها جزءًا من صخرة، كانت تُسمع ضوضاء مخنوقة تقلقل هضبة الأرض، وزمجرة فى الهواء.

www.ibtesama.com

نهض دانييل بقفزة واحدة. بدأ يركض نحو الشاطئ بلا توقف. الآن، لم يعد نعسانًا، ولم يعد يخشى الضوء والملح: كان يشعر بنوع من الغضب فى أعماق جسده، قوة ما لم يفهمها، كأنه تمكن من كسر الصخور وحفر الشقوق، هكذا، بضربة كعب. كان يركض أمام البحر، مُتبعًا طريق الرياح، ويسمع خلفه زمجرة الأمواج. ومن حين لآخر، كان يصرخ، هو أيضًا، كى يقلدها:

"رام! رام!"

لأنه هو مَن كان يتحكم فى البحر.

كان عليه أن يركض بسرعة! فالبحر كان يريد أن يستولى على كل شىء، الصخور، الطحالب، وأيضًا على ذلك الذى كان يركض أمامه. أحيانًا كان يمد ذراعًا، يمينًا، أو يسارًا، ذراعًا طويلة رمادية مبقعة بالزَّبد كانت تقطع طريق دانييل. كان يقفز إلى الجنب، ويبحث عن ممر عند قمة الصخور، فكان الماء ينسحب وهو يُمصمص حُفر الشقوق.

اجتاز دانييل سباحةً عدة بحيرات قلقة. لم يعد يشعر بالتعب. بالعكس، كان بداخله نوع من البهجة، كأن البحر، والرياح، والشمس قد أذابوا الملح وحرروه.

كان البحر جميلاً! ودفقاته البيضاء تندفع كالصاروخ فى الضوء، عاليًا جدًا وبشكل مستقيم تمامًا، ثم تسقط فى سُحب من البخار تنساب فى الرياح. وكان الماء الجديد يملأ تجاويف الصخور،

www.ibtesama.com

يغسل القشرة البيضاء، وينتزع باقات الطحالب. بعيدًا، قُرب الجروف، كانت الطريق البيضاء للشاطئ تتلألأ. فكر دانييل بغرق سفينة سندباد، حين حملته الأمواج حتى جزيرة الملك مِهراج، وهكذا كان الأمر تمامًا، الآن. كان يركض بسرعة فوق الصخور، وقدماه تختاران أفضل الممرات، دون أن يكون لديه وقت ليفكر بها. لا شك أنه عاش هنا منذ الأزل، فوق سهل قاع البحر. وسط السفن الغارقة والعواصف.

كان يجرى بنفس سرعة البحر، دون توقف، دون أن يلتقط أنفاسه، وهو يسمع صخب الأمواج. كانت تأتى من الطرف الآخر للعالم، عاليةً، منحنية إلى الأمام، حاملةً الزَّبد، لتنساب فوق الصخور الملساء وتتحطم فى الصدوع.

كانت الشمس تتألق ببريقها الثابت، قرب الأفق. ومنها كانت تأتى كل تلك القوة، وضوؤها يدفع بالأمواج على الأرض. كانت رقصة لا يمكن لها أن تنتهى، رقصة الملح فى جَزر البحر، رقصة الأمواج والرياح فى مده نحو الشاطئ.

دخل دانييل إلى المغارة حين بلغ البحر حاجز أعشاب البحر. جلس فوق الحصى لينظر إلى البحر والسماء. لكن الأمواج تجاوزت الطحالب فاضطر للتراجع إلى الخلف داخل المغارة. كان البحر لا يزال يضرب، ويرمى بطبقاته البيضاء التى ترتجف فوق الحصى كماء يغلى. واصلت الأمواج الصعود، هكذا،

www.ibtesama.com

واحدةً بعد الأخرى، حتى آخر حاجز من الطحالب وأغصان الأشجار. كان يصادف الطحالب الأكثر جفافًا، وأغصان الأشجار التى بيَّضها الملح، وكل ما تكوم عند مدخل المغارة منذ شهور. كان الماء يصطدم بالبقايا، يفرقها، ثم يأخذها فى ارتداد الأمواج. الآن، أصبح ظهر دانييل ملتصقًا بعمق المغارة. لم يعد بإمكانه الرجوع إلى الوراء أكثر. فنظر إلى البحر كى يوقفه. كان ينظر إليه بكل قواه، دون أن يتكلم، ويعيد الأمواج إلى الوراء، بصُنع أمواج معاكسة كانت تكسر اندفاع البحر.

مرات عديدة، قفزت الأمواج من فوق أسوار الطحالب والبقايا، ورشت عمق المغارة وأحاطت بساقى دانييل. ثم توقف البحر عن الصعود فجأة. هدأ الصخب المهول، وأصبحت الأمواج أكثر نعومة، وأكثر بطئًا، كأنها مُثقلة بالزبد. فأدرك دانييل أن الأمر انتهى.

تمدد فوق الحصى الأملس، عند مدخل المغارة، ورأسه ملتفتة إلى البحر. كان يرتجف من البرد والتعب، لكنه لم يعرف أبدًا سعادة بهذا القدر. ونام هكذا، فى السلام الهادئ، وخفت ضوء الشمس ببطء كشعلة تنطفئ.

ماذا حل به، بعد ذلك؟ ماذا فعل، خلال كل تلك الأيام، وكل تلك الشهور، داخل مغارته، أمام البحر؟ ربما ذهب فعلاً إلى أمريكا، أو وصل حتى الصين،

www.ibtesama.com

على متن سفينة شحن كانت تبحر الهوينى، من ميناء إلى آخر، ومن جزيرة إلى أخرى. فالأحلام التى تبدأ بهذا الشكل لا يجب أن تنتهى. هنا، بالنسبة إلينا نحن البعيدين عن البحر، كان كل شىء مستحيلاً وسهلاً. كل ما كنا نعرفه، هو أن شيئًا غريبًا قد حدث.

كان غريبًا، لأن فيه جانبًا غير منطقى يدحض كل ما كان الناس الجادون يقولونه. كانوا يتحركون فى كل الاتجاهات للعثور على دانييل سندباد، الأساتذة، والمراقبون، ورجال الشرطة، وطرحوا كمًّا من الأسئلة، وذات يوم، ابتداءً من تاريخ معين، بدأوا يتصرفون كأن دانييل لم يكن موجودًا ذات يوم. لم يعودوا يتكلمون عنه. أرسلوا كل متعلقاته، وحتى أوراق امتحاناته القديمة إلى والديه، ولم يبق من أثره شىء فى الثانوية عدا ذكراه. وحتى هذه، لم يعد الناس يريدونها. بدأوا يتحدثون عن أشياء أخرى، عن زوجاتهم ومنازلهم، عن سياراتهم والانتخابات الإقليمية، كما فى السابق، كأن شيئًا لم يحدث.

ربما لم يكونوا يتظاهرون بذلك. ربما نسوا دانييل فعلاً، من فرط تفكيرهم به لشهور. ربما لو كان قد عاد، وجاء أمام باب الثانوية، لما تعرف عليه الناس ولسألوه:

"من أنت؟ ماذا تريد؟"

لكن نحن، لم ننسه. لم ينسه أحد، فى عنبر النوم، فى الفصل، وفى الساحة، حتى أولئك الذين لم

www.ibtesama.com

يعرفوه. كنا نتحدث عن أمور الثانوية، عن المسائل والترجمات، لكننا كنا نفكر كثيرًا ودائمًا به، كأنه فعلاً سندباد وكأنه لا يزال يجوب العالم. من وقت إلى آخر، كنا نتوقف عن الكلام، ويطرح أحدنا السؤال، دائمًا نفس السؤال:

"أتعتقد أنه هناك؟"

لا أحد منا كان يعرف بالتحديد ما هو الـ"هناك"، لكننا كنا كأننا نرى ذلك المكان، البحر الشاسع، السماء، السُّحُب، صخور الشاطئ البرية، الأمواج، والطيور البيضاء الكبيرة المحلقة فى الرياح.

وحين كانت نسمات الرياح تحرك أغصان أشجار الكستناء، كنا ننظر إلى السماء، ونقول، بقليل من القلق، على طريقة البحارة:

"هناك عاصفة قادمة".

وحين كانت شمس الشتاء تسطع فى السماء الزرقاء، كنا نعلق:

"إنه محظوظ اليوم".

لكننا لم نكن نقول أكثر من هذا، كان كعهد قطعناه، دون أن ندرى، مع دانييل، تحالف سرى وصامت عقدناه معه ذات يوم، أو ربما كذلك الحلم الذى كنا قد بدأناه، ببساطة، ذات صباح، حين فتحنا أعيننا ورأينا فى الظل الخفيف لعنبر النوم سرير دانييل، الذى رتبه لبقية حياته، كأنه لن ينام أبدا.

www.ibtesama.com

أزران

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

ـ ١ ـ

"سد الفرنسيين"، لم تكن مدينةً حقًا، لأنها كانت بلا منازل، ولا شوارع، فقط أكواخ من ألواح خشبية وطين وورق مطلى بالقار. ربما كانت تُدعى هكذا لأن الإيطاليين كانوا يسكنونها، مع اليوغسلاف، والأتراك، والبرتغاليين، والجزائريين، والأفارقة، بناءون وعمال حفر وفلاحون لم يكونوا واثقين من العثور على عمل، ولا يعلمون أبدًا إن كانوا سيبقون عامًا أو يومين. كانوا يصلون إلى هنا، إلى "السد"، قُرب السبخات التى تحيط بمصب النهر، يستقرون حيثما استطاعوا ويبنون أكواخهم فى بضع ساعات. كانوا يبتاعون الألواح الخشبية من المغادرين، ألواحًا قديمة مليئة بالثقوب، إلى حد أن ضوء النهار كان يُرى من خلالها. وبالنسبة للسقف، فكانوا يضعون ألواحًا خشبية أيضًا، وأوراقًا كبيرةً مطلية بالقار، أو قطعًا من صفائح حديدية متموجة يشدونها بأسلاك حديدية وأحجار،

www.ibtesama.com

حين يحالفهم الحظ فى العثور عليها. وكانوا يسدون الثقوب بقطع صغيرة من الخِرق.

هنا كانت تعيش عَلّيَا، غرب "السد"، غير بعيد عن منزل مارتن. كانت قد وصلت إلى هنا فى الوقت نفسه الذى وصل فيه، فى البداية تمامًا، حين لم تكن هناك سوى عشرة أكواخ تقريبًا، ولا تزال الأرض طريةً بحقول كبيرة من الأعشاب والقصب، على حافة السبخة. كان أبوها وأمها قد توفيا فى حادث، حين كانت لا تجيد سوى اللعب مع بقية الأطفال، فأخذتها خالتها للعيش معها. الآن، وبعد أربع سنوات، توسعت "السد"، وأصبحت تغطى الضفة الشرقية لمصب النهر، ابتداءً من منحدر الطريق الكبير حتى البحر، بمئات من الممرات الطينية والكثير من الأكواخ التى بلا حصر. وكل أسبوع، كان عدد من الشاحنات يتوقف عند مدخل "السد" لتفريغ عائلات جديدة واصطحاب أخرى مغادرة. وفى طريقها لجلب الماء من المضخة، أو شراء الأرز والسردين من الجمعية التعاونية، كانت عَليَا تتوقف لرؤية الوافدين الجدد الذين كانوا يستقرون فى الأماكن التى لا تزال شاغرة. أحيانًا أيضًا كانت تأتى الشرطة عند مدخل "السد" للتفتيش، وتسجيل الذهاب والمغادرة فى كراسة.

كانت عَليَا تتذكر جيدًا يوم وصول مارتن. المرة الأولى التى رأته فيها، كان قد نزل من شاحنة مع أشخاص آخرين. كان وجهه وثيابه رماديين بالغبار،

www.ibtesama.com

لكنها انتبهت إليه على الفور. كان رجلاً غريبًا، طويلاً ونحيفًا، بوجه مكفهر بفعل الشمس، كالبحَّار. كان يمكن الظن أنه عجوز، بسبب التجاعيد على جبينه وخديه، لكن شعره كان كثًّا وشديد السواد، وعيناه تلتمعان بقوة كالمرايا. كانت عَليا ترى أن عينيه هما الأكثر جاذبية فى "السد"، وربما فى البلاد بأكملها، ولهذا انتبهت إليه.

كانت قد بقيت ساكنة حين مر بجانبها. كان يمشى ببطء، وهو ينظر حوله، كأنه لم يجئ إلا لزيارة المكان وستأخذه الشاحنة من جديد بعد ساعة من الزمن. لكنه بقى.

لم يستقر مارتن وسط "السد". ذهب إلى أقصى السبَخة، حيث يبدأ حصى الشاطئ. هناك بنى كوخه، وحيدًا فوق تلك القطعة من الأرض التى لم يكن أحد ليرضَى بها، لأنها كانت بعيدةً جدًّا عن الطريق ومضخات الماء العذب. كان بيته حقًّا آخر بيت فى المدينة.

كان مارتن قد بناه بنفسه، بلا مساعدة من أحد، وكانت عَليا ترى أيضًا أنه أجمل بيت فى المنطقة، على طريقته. كان كوخًا مستديرًا، بلا أية فتحة سوى الباب الواطئ الذى لم يكن مارتن يستطيع العبور منه واقفًا. كان السقف من الورق المطلى بالقار مثل الآخرين، لكن على شكل غطاء قِدر. وحين كان يُرى منزل مارتن، من بعيد، فى ضباب الصباح، وحيدًا تمامًا وسط الأراضى

www.ibtesama.com

البُور، على الحدود بين السبخة والشاطئ، كان يبدو أكبر وأعلى، كبرج قصر.

كان ذلك بالفعل الاسم الذى أطلقته عليه عَليَا، منذ البداية: القصر. كان الناس الذين لا يحبون مارتن ويسخرون منه نوعًا ما، مثل مدير الجمعية، على سبيل المثال، يقولون إنه أقرب إلى جُحر كلب، لكنهم يقولون ذلك لأنهم كانوا غيورين. بالمناسبة، هذا ما كان غريبًا، لأن مارتن كان بالغ الفقر، أفقر من أى شخص آخر فى هذه المدينة، لكن ذلك البيت بلا نوافذ كان ينطوى على شىءٍ ما غامض ومهيب لا ندركه، وكان يرهبنا.

كان مارتن يسكن هناك بمفرده، منعزلاً. كان ثمة صمت دائمًا حول بيته، خاصةً فى المساء، صمت كان يجعل كل شىء بعيدًا وخياليًا. وحين كانت الشمس تسطع فوق السبخة والوادى المترب، كان مارتن يجلس فوق صندوق أمام باب بيته. لم يكن الناس يذهبون من تلك الناحية كثيرًا، ربما لأن الصمت كان يرهبهم فعلاً، أو لأنهم لم يكونوا يرغبون فى إزعاج مارتن. فى الصباح والمساء، كان بعض النسوة يأتين، أحيانًا، للبحث عن الخشب الجاف، ويمر الأطفال العائدون من المدرسة. كان مارتن يحب الأطفال. كان يكلمهم بلطف، وكانوا الوحيدين الذين يبتسم لهم حقًا. آنئذٍ، كانت عيناه تصبحان جميلتين جدًا، وتلتمعان كمرايا من حجر، مفعمتين بضوء فاتح لم تره أبدًا عَليَا فى مكان آخر. كان الأطفال أيضًا يحبونه، لأنه كان يجيد

www.ibtesama.com

حكى القصص وطرح الأحاجى. بقية الوقت، لم يكن مارتن يعمل حقًا، لكنه كان يجيد إصلاح بعض الأشياء الصغيرة، كتروس الساعات، وأجهزة الراديو، ومكابس مواقد الكيروسين. كان يقوم بذلك مجانًا، لأنه لم يكن يقبل أخذ مال مقابل عمله.

لهذا السبب، كان الناس، منذ أن وصل إلى هنا، يبعثون أبناءهم ليأتوه ـ كل يوم ـ ببعض الطعام فى صحون، بطاطس، سردين، أرز، وخبز، أو قليل من القهوة الساخنة فى كوب. كانت النساء أيضًا يأتين أحيانًا لإعطائه طعامًا، وكان مارتن يعبر عن شكره بقول بضع كلمات. ثم، حين ينتهى من الأكل، كان يعيد الصحون إلى الأطفال. هذه هى الطريقة التى كان يحب أن يُدفع له بها مقابل عمله.

كانت عَليَا تحب زيارة مارتن، لتسمع حكاياته وترى لون عينيه. أخذت– ذات مرة– قطعة خبز من المخزن، وعبرت "السد" حتى القصر. حين وصلت، رأت الرجل جالسًا فوق صندوقه، أمام بيته، ويعكف على إصلاح مصباح غاز، فجلست أمامه على الأرض لتنظر إليه.

أول مرة جاءت إليه فيها لتحضر خبزًا، كان قد نظر إليها بعينيه المغمضتين بالضوء وقال لها:

"صباح الخير، يا قمر".

"لماذا تنادينى قمر؟"، سألت عَليَا.

ابتسم لها مارتن، وكانت عيناه أكثر التماعًا.

www.ibtesama.com

"لأنه اسم يعجبنى. ألا تريدين أن أناديك قمر؟"

"لا أدرى، لم أكن أعتقد أنه اسم".

"هو اسم جميل"، قال مارتن. "هل نظرتِ يومًا إلى القمر، حين تكون السماء صافيةً وشديدة السواد، فى ليالى البرد الشديد؟ إنه مستدير تمامًا وناعم، وأنا أراكِ هكذا".

ومنذ ذلك اليوم، ظل مارتن يناديها دائمًا بهذا الاسم: قمر، قمر صغير. وكان لديه اسم لكل واحد من الأطفال الذين يأتون لرؤيته، اسم نبتة، أو فاكهة أو اسم حيوان كان يضحكهم. لم يكن مارتن يتحدث عن نفسه، ولم يكن أحد ليجرؤ أن يسأله عن أى شىء. فى الواقع، كان كأنه موجود هنا منذ الأزل، فى "السد"، قبل الآخرين، بل قبل أن ينشأ الطريق، وجسر الحديد ومهبط الطائرات. لا شك أنه كان يعرف أشياء لم يكن يعرفها الناس هنا، أشياء بالغة القدم والجمال كان يحتفظ بها فى رأسه، وتجعل الضوء يتلألأ فى عينيه.

ذلك ما كان غريبًا، على نحو خاص. لأن مارتن لم يكن يملك شيئًا، ولا حتى كرسيًا أو سريرًا. لم يكن لديه سوى حصيرة على الأرض ينام عليها وجرة ماء فوق الصندوق. لم تكن علَيَا تفهم ذلك، لكنها كانت تشعر أنها رغبة لديه، كأنه لم يكن يريد الاحتفاظ بأى شىء. كان ذلك غريبًا، لأنه كان كجزء صغير من الضوء الفاتح الذى يتوهج دائمًا فى عينيه، كبِرك الماء تلك التى تصبح أكثر شفافيةً وجمالاً حين لا يوجد شىء فى قاعها.

www.ibtesama.com

بمجرد انتهائها من عملها، كانت عَليَا تخرج من بيت خالتها وهى تخبئ فى قميصها قطعة الخبز، وتذهب للجلوس أمام مارتن. كانت تحب أيضًا النظر إلى يديه أثناء إصلاحه للأشياء. كانت له يدان كبيرتان مسودّتان بالشمس، بأظافر مكسورة كالبنائين وعمال الحفر، لكنهما كانتا أكثر خفةً ومهارة، وتجيدان صُنع عُقد بخيوط صغيرة وإدارة مسامير حلزونية بالكاد تُرى. كانت يداه تعملان بدلاً منه، دون أن ينشغل بهما، دون أن ينظر إليهما، وكانت عيناه تحدقان فى البعيد، كأنه يفكر فى شىء آخر.

"بماذا تفكر؟"، سألت عَليَا.

نظر إليها الرجل وهو يبتسم.

"لماذا تسألينى عن هذا يا قمر صغير؟ وأنتِ، بم تفكرين؟"

ركزت عَليَا وفكرت.

"أفكر فى أن المكان الذى جئتَ منه جميل بالتأكيد".

"ما الذى يجعلكِ تظنين ذلك؟"

"لأن ـ"

لم تجد الرد فاحمرَ وجهها.

"أنتِ مُحقة"، قال مارتن. "إنه جميلٌ جدًا".

"أعتقد أيضًا أن الحياة بائسةٌ هنا"، أضافت عَليَا.

www.ibtesama.com

"لماذا تقولين ذلك؟ لا أظن ذلك".

"لأنه لا يوجد هنا شيء، والمكان قذر، ولابد من جلب الماء بالمضخة، وهناك ذباب، وجرذان، والجميع مدقعو الفقر".

"أنا أيضًا، فقير"، قال مارتن. "ورغم ذلك فلا أعتبر ذلك سببًا لأحزن".

فكرت عَليَا ثانيةً.

"إذا كان المكان الذى أتيتَ منه بهذا الجمال- فلماذا إذن غادرته، لماذا أتيت إلى هنا حيث كل شىء شديد- شديد القذارة والقبح؟"

كان مارتن ينظر إليها بإمعان، فيما كانت عَليَا تبحث فى ضوء عينيه عن كل ما تستطيع رؤيته من ذلك الجمال الذى كان الرجل قد حدق فيه مليًا فى الماضى؛ البلد الشاسع، ذو الانعكاسات العميقة والذهبية التى بقيت حيةً فى لون حدقتيه. لكن صوت مارتن كان أكثر نعومةً، مثلما حين يحكى القصص.

"هل يمكن أن تشعرى بالسعادة؛ لأنك أكلتِ كل ما تحبين، يا قمر صغير، إن علمتِ أن بجوارك عائلة لم تأكل شيئًا منذ يومين؟"

هزت عَليَا رأسها.

"هل يمكن أن تشعرى بالسعادة بالنظر إلى السماء، والبحر، والورود، أو الاستماع لتغريد الطيور، إن علمتِ أن بجانبكِ، فى المنزل المجاور، طفلاً

www.ibtesama.com

محبوسًا بلا سبب، ولا يستطيع رؤية شىء، ولا سماع شىء، ولا شَم شىء؟"

"لا"، قالت عَليَا. "سأذهب أولاً لأفتح باب منزله، كى يتمكن من الخروج".

وفيما كانت تقول ذلك أدركت أنها قد أجابت على سؤالها. نظر إليها مارتن ثانيةً وهو يبتسم، ثم واصل إصلاح الشىء، بلا انتباه نوعًا ما، دون أن ينظر إلى يديه تتحركان.

لم تكن عَليَا متأكدةً تمامًا أنها اقتنعت. فقالت أيضًا:

"رغم ذلك، لابد أنه بالغ الجمال، هناك، بلدك".

حين انتهى الرجل من العمل، نهض وأمسك بيد عَليَا. اصطحبها ببطء حتى نهاية الأرض البور، أمام السبخة.

"انظرى"، قال حينها. كان يشير إلى السماء، والأرض المسطحة، ومصب النهر الذى كان ينفتح على البحر.

"ها هو، هذا كله، المكان الذى أتيت منه".

"كل هذا؟"

"كله، نعم، كل ما ترينه".

بقيت عَليَا مدةً طويلةً واقفة، ساكنة، وهى تنظر قدر ما تستطيع، إلى أن آلمتها عيناها. كانت تنظر بكل قواها، كأن السماء ستنفتح أخيرًا وتكشف عن كل تلك

www.ibtesama.com

القصور، والقلاع، والحدائق المليئة بالفواكه والطيور، لكن الدوار أرغمها على أن تغمض عينيها.

حين التفتت، كان مارتن قد رحل. كان خياله العالى النحيل يمشى بين صفوف الأكواخ، باتجاه الطرف الآخر من المدينة.

ابتداءً من ذلك اليوم، بدأت عَليَا تنظر إلى السماء، تنظر إليها فعلاً، كأنها لم ترها من قبل. حين كانت تعمل فى منزل خالتها، كانت تخرج أحيانًا لبرهة، لترفع رأسها فى الهواء، وحين تدخل مرةً ثانيةً، كانت تشعر بشىء لا يزال يهتز فى عينيها وداخل جسدها، فتصطدم بالأثاث، لأن شبكيتها كانت مبهورة.

حين علم باقى الأطفال من أين أتى مارتن، استغربوا كثيرًا. وفى تلك الفترة، كان ثمة أطفالٌ كثيرون هنا، فى "السد"، يتجولون ورءوسهم مرفوعة فى الهواء، ينظرون إلى السماء، فيصطدمون بالأبواب، فيما كان الناس يتساءلون عما يمكن أن يكون قد أصابهم. ربما كانوا يعتقدون أنها لعبة جديدة.

وأحيانًا، لم يكن أحد يعرف، لِمَ كان مارتن يرفض أن يأكل. كان الأطفال يأتون له بالأكل فى صحون، ككل صباح، فكان يرفض بأدب، ويقول:

"لا شكرًا، ليس اليوم".

حتى حين كانت تأتى عَليَا، بقطعة الخبز المخبأة فى قميصها، كان يبتسم بلطف ويهز رأسه. لم تكن

www.ibtesama.com

عَليَا تفهم لِم كان الرجل يرفض أن يأكل، لأن كل شىء، حول البيت، وفوق الأرض، وفى السماء، كان طبيعيًا. فى السماء الزرقاء، كانت هناك الشمس، وسحابة أو اثنتان، ومن وقت إلى آخر طائرة نفاثة كانت تقلع أو تحط. فى ممرات "السد"، كان الأطفال يلعبون ويصرخون، والنساء ينادين عليهم ويعطينهم أوامر بكل أنواع اللغات. لم تكن عَليَا ترى ما الذى يمكن أن يكون قد تغير. لكنها رغم ذلك، كانت تجلس أمام مارتن، مع طفلين أو ثلاثة آخرين، وينتظرون أن يكلمهم.

لم يكن مارتن كما فى الأيام الأخرى. حين يكف عن الأكل، كان وجهه يبدو مُسنًا أكثر، وعيناه تلتمعان بطريقة مختلفة، بالبريق القلق للمصابين بالحُمَّى. كان مارتن ينظر إلى مكان آخر، فوق رءوس الأطفال، كأنه كان يرى ما هو أبعد من الأرض والسبخة، من الجانب الآخر للنهر والتلال، بعيدًا جدًا إلى حدٍّ يتطلب شهورًا وشهورًا للوصول إلى هناك.

فى تلك الأيام، لم يكن يتكلم تقريبًا، ولم تكن عَليَا تطرح أسئلة عليه. كان الناس يأتون، كما فى باقى الأيام، ليطلبوا منه خدمة، إعادة إلصاق زوج حذاء، إصلاح بندول، أو فقط كتابة رسالة. لكن مارتن كان بالكاد يرد عليهم، يهز رأسه ويقول بصوت خفيض، دون تحريك شفتيه تقريبًا:

"ليس اليوم، ليس اليوم..."

www.ibtesama.com

أدركت عَليَا أنه لم يكن هنا خلال تلك الأيام، وأنه كان بالفعل فى مكان آخر، حتى وإن بقى جسده ساكنًا، ممددًا فوق الحصيرة، داخل البيت. ربما كان قد عاد إلى بلده الأصلى، حيث كل شىء جميل للغاية، وحيث كل الناس أمراء وأميرات، ذلك البلد الذى كشف ذات يوم عن طريقه الذى يمر عبر السماء.

كل يوم، كانت عَليَا تعود بقطعة خبز جديدة، وتنتظر دورها. كانت خائفةً قليلاً لرؤية وجهه الذى كان يتجوف، ويصبح رماديًا كأن الضوء قد توقف عن الاحتراق ولم يبق سوى الرماد. ثم ذات صباح، عاد، واهنًا للغاية، بالكاد يستطيع المشى من فراشه حتى الأرض البور أمام بيته. وحين رأى عَليَا، نظر إليها أخيرًا، وهو يبتسم بوهن، وعيناه ذابلتان بالتعب.

"أنا عطشان"، قال. كان صوته بطيئًا ومبحوحًا.

وضعت عَليَا قطعة الخبز على الأرض، وركضت عبر المدينة لتأتى بدلو ماء. حين عادت، منقطعة الأنفاس، شرب مارتن طويلاً من الدلو. ثم غسل وجهه ويديه، وجلس فوق الصندوق، فى الشمس، وأكل قطعة الخبز. قام ببضع خطوات حول المنزل، ونظر حوله. كان ضوء الشمس يدفئ وجهه ويديه، فعاد إلى عينيه البريق من جديد.

نظرت عَليَا إلى الرجل بلهفة. وتجرأت على سؤاله:

"كيف كان؟"

www.ibtesama.com

بدا أنه لم يفهم.

"كيف كان ماذا؟"

"كيف كان، حيث ذهبت؟"

لم يجب مارتن. ربما لم يكن يتذكر شيئًا، كما لو أنه مر فحسب عبر حلم. بدأ من جديد فى العيش والتكلم كالسابق، جالسًا فى الشمس أمام باب بيته، لإصلاح الآلات المكسورة، أو سائرًا فى ممرات "السد" وهو يحيى الناس لدى مروره.

فيما بعد، سألت عَليَا من جديد:

"لماذا لا تريد أن تأكل، أحيانًا؟"

"لأن علىَّ أن أصوم"، قال مارتن.

فكرت عَليَا.

"ماذا يعنى الصوم؟"

وأضافت على الفور:

"أهو مثل السفر؟"

ضحك مارتن:

"يا لها من فكرة غريبة! لا، الصوم، هو حين نفقد الرغبة فى الأكل".

كيف يمكن ألا تكون لدينا رغبة فى الأكل؟ فكرت عَليَا. لم يقل لها أحد شيئًا غريبًا كهذا. رغمًا عنها، فكرت أيضًا بكل أطفال "السد" الذين كانوا يبحثون طوال اليوم عن شىء يأكلونه، حتى أولئك الذين ليسوا

www.ibtesama.com

بجائعين. فكرت بأولئك الذين كانوا يذهبون للسرقة من المحلات الكبيرة، قرب المطار، وأولئك الذين كانوا يذهبون لاختلاس الفواكه والبيض من حدائق المنطقة.

رد مارتن على الفور، كأنه سمع ما كانت تفكر به.

"هل شعرتِ بالعطش الشديد يومًا ما؟"

"نعم"، قالت عَليَا.

"حين كنتِ عطشانة، أكانت لديك رغبة فى الأكل؟"

هزت رأسها.

"لا، أليس كذلك؟ كانت لديكِ رغبة فى الشرب فقط، رغبة شديدة. كان يبدو لكِ أنكِ تستطيعين أن تشربى كل ماء المضخة، وفى تلك اللحظة، لو كان قد أُعطى لك صحن كبير من الطعام، لكنتِ رفضتِه، لأن الماء هو ما كنتِ تحتاجين إليه".

توقف مارتن عن الكلام برهة. وابتسم.

"كذلك، حين كنت جائعة، لم تكونى لتحبى أن تُعطى لك جرة ماء. كنت ستقولين، لا، ليس الآن، أريد أن آكل أولاً، آكل قدر ما أستطيع، وبعد ذلك، إن بقى مكان صغير، سأشرب الماء".

"لكنك لم تكن تأكل ولا تشرب!"، تعجبت عَليَا.

"هذا ما كنت أريد قوله لك، يا قمر صغير"، قال مارتن.

www.ibtesama.com

"حين نصوم، معناه أننا لا نريد طعامًا ولا ماءً، لأننا نرغب بشدة فى شىء آخر، أهم من الأكل والشرب".

"وبماذا نرغب، إذن؟"، سألت عليا.

"بالله"، قال مارتن.

قال ذلك ببساطة، كأنه بديهى، ولم تطرح عَليَا عليه أسئلة أخرى. كانت المرة الأولى التى يتحدث فيها مارتن عن الله، وقد أخافها ذلك قليلاً، ليس خوفًا بالضبط، لكنه أبعدها فجأةً، دفعها بعيدًا إلى الوراء، كأن كل امتداد "السد" بأكواخها الخشبية والسبخة على حافة النهر كانا يفصلانها عن مارتن.

لكن بدا أن الرجل لم يلاحظ ذلك. الآن، نهض، ونظر إلى سهل السبخة حيث كانت أعواد القصب تتمايل. مرر يده على شعر عَليَا، ومضى ببطء على الطريق الذى كان يعبر المدينة، فيما كان الأطفال يركضون أمامه وهم يصيحون احتفالاً بعودته.

فى تلك الفترة، كان مارتن قد بدأ تعليمه، لكن ما من أحد كان يعلم بذلك. لم يكن تعليمًا بالفعل، أقصد، كتعليم كاهن أو معلم، لأنه كان يتم بلا مراسم، وكان المرء يتعلم دون أن يعرف ما تعلمه. اعتاد الأطفال على المجىء إلى آخر "السد"، أمام قصر مارتن، وكانوا يجلسون على الأرض للتحدث واللعب، أو الاستماع للحكايات. أما مارتن فلم يكن يتحرك من فوق صندوقه، ويواصل إصلاح ما بين يديه، قدر، صمام قدر ضاغطة، أو قفل، فكان التعليم يبدأ.

www.ibtesama.com

كان الأطفال بالذات هم من يأتون، بعد وجبة الغداء، أو لدى عودتهم من المدرسة. لكن أحيانًا كان رجال ونساء يأتون أيضًا، حين تنتهى أعمالهم، ويكون الجو أكثر حرارةً من أن يناموا. كان الأطفال يجلسون فى الأمام، قرب مارتن، وهناك كانت عَليَا تحب الجلوس أيضًا. كانوا يصدرون ضجة كبيرة، ولا يبقون فى أماكنهم مدة طويلة، لكن مارتن كان سعيدًا دائمًا لرؤيتهم. كان يتحدث معهم، ويسألهم عما فعلوه وما رأوه، فى "السد"، أو على شاطئ البحر. كان منهم من يحب الكلام، فيحكون أى شىء لساعات. وكان ثمة آخرون يبقون صامتين، ويختبئون وراء أيديهم حين يوجه مارتن الكلام إليهم.

ثم كان مارتن يحكى قصةً ما. كان الأطفال يحبون كثيرًا سماع القصص، ولهذا كانوا يأتون إليه. حين كان مارتن يبدأ قصته، كان حتى أكبر المشاغبين منهم يجلسون ويتوقفون عن الكلام.

لكن مارتن كان يعرف حكايات كثيرة، طويلة وغريبة نوعًا ما تدور أحداثها فى بلدان مجهولة كان قد زارها، بلا شك، فى الماضى.

كانت هناك حكاية الأطفال الذين نزلوا نهرًا، على عوامة من القصب، وعبروا هكذا ممالك خيالية، وغابات، وجبالاً، ومدنًا غامضة، حتى البحر. وهناك حكاية الرجل الذى اكتشف بئرًا كانت تؤدى إلى مركز الأرض، حيث توجد دُول النار. وهناك حكاية ذلك

www.ibtesama.com

التاجر الذى اعتقد أنه سيُكوِّن ثروة ببيع الثلج، الذى كان ينزل به فى أكياس من أعلى الجبل، لكنه حين كان يصل إلى الأسفل، لا يكون لديه سوى بركة ماء. وهناك حكاية الولد الذى وصل إلى القصر الذى كانت تعيش فيه أميرة الأحلام، التى ترسل الأحلام والكوابيس إلى الأرض، وحكاية العملاق الذى كان ينحت الجبال، وحكاية الطفل الذى آلف دلفينا، أو حكاية القبطان تيكوم الذى أنقذ حياة طائر القطرس، ولكى يعبِّر الطائر عن شكره له علمه سر الطيران. كانت حكايات جميلة، ومن فرط جمالها كان الأطفال أحيانًا ينامون قبل سماع نهاياتها. كان مارتن يحكيها ببطء، وهو يقوم بحركات، أو بالتوقف من حين إلى آخر كى يتمكنوا من طرح الأسئلة. وأثناء حديثه، كانت عيناه تلتمعان بشدة، كأنه مستمتع هو أيضًا.

من بين كل الحكايات التى كان مارتن يحكيها، كانت حكاية أزران المفضلة لدى الأطفال. لم يكونوا يفهمونها جيدًا، لكنهم جميعًا كانوا يحبسون أنفاسهم حين تبدأ.

كانت هناك فتاة صغيرة تُدعى تريفل، كان اسمًا غريبًا أُسميت به، لا شك بسبب العلامة الصغيرة التى كانت على خدها، قرب أذنها اليسرى، والتى كانت تشبه التريفل. كانت فقيرةً، فقيرة جدًا، ومن شدة فقرها لم يكن لديها ما تأكله سوى القليل من الخبز والفواكه التى كانت تجمعها فى الدغل. كانت تعيش وحيدة فى كوخ فلاحين، بعيدًا وسط العليق والصخور،

www.ibtesama.com

دون مَن يعتنى بها. لكن عندما رأتها الحيوانات الصغيرة التى كانت تعيش فى الحقول، وحيدة وحزينة، أصبحت صديقتها. كانت تأتى كثيرًا لرؤيتها، فى الصباح، أو المساء، وتكلمها للترفيه عنها، تتجول معها وتحكى لها القصص، لأن تريفل كانت تعرف التكلم بلغة الحيوانات. وكانت هناك نملة اسمها زُوى، وعظاية اسمها زوت، وطائر دورى اسمه بيبيت، ويعسوب اسمه زيل، وشتى أنواع الفراشات، الصفراء، والحمراء، والسمراء، والزرقاء. كان هناك أيضًا جعران حكيم يدعى كيبر، وجرادة خضراء كبيرة كانت تتشمس فوق أوراق الشجر. وكانت تريفل الصغيرة طيبة معهم، ولهذا كانوا يحبونها. ذات يوم كانت فيه تريفل أكثر حزنًا من العادة، لأنها لم يكن لديها ما تأكله، نادتها الجرادة الكبيرة. هل تريدين أن تغيرى حياتك؟ قالت لها، بالتصفير. كيف أستطيع أن أغير حياتى، ردت عليها تريفل. ليس لدىَّ ما آكله وأنا وحيدة. تستطيعين إن كنت تريدين، قالت الجرادة. عليك فقط الذهاب إلى بلاد أزران. ما هو هذا البلد، سألت تريفل. لم أسمع أبدًا عن هذا المكان. لدخوله، عليك أن تجيبى على الأسئلة التى سيطرحها عليك حارس أبواب أزران. لكن يجب أولاً أن تكونى عالمة، عالمةً جدًا، كى تتمكنى من الإجابة على الأسئلة. ذهبت تريفل لرؤية الجعران كيبر، الذى يسكن فوق غصن شجرة ورد، وقالت له: كيبر، علمنى ما يجب معرفته، لأنى أريد الذهاب إلى أزران. ولمدة طويلة، قام

www.ibtesama.com

الجعران والجرادة بتعليم الفتاة الصغيرة كل ما كانا يعرفانه. علماها أن تخمن حالة الطقس، أو ما يفكر به الناس سرًا، أو أن تُشفى الحُمَّى والأمراض. علماها أن تسأل السرعوفة الراهبة ما إذا كان الأطفال الذين سيولدون إناثًا أم ذكورًا، لأن السرعوفة الراهبة تعرف ذلك وتجيب برفع ملاقطها إلى أعلى للذكر، وبخفضها إلى الأسفل للأنثى. تعلمت تريفل الصغيرة كل هذا، وأيضًا أشياء أخرى كثيرة، أسرارًا وألغازًا. وذات يوم، حين انتهى الجعران والجرادة من تعليمها ما كانا يعرفانه، وصل رجل إلى القرية. كان يرتدى ثيابًا فاخرة ويبدو أميرًا أو وزيرًا. كان الرجل يجوب القرية ويقول: أنا أبحث عن شخصٍ ما. لكن الناس لم يفهموا. فذهبت تريفل إلى الرجل، وقالت له: أنا مَن تبحث عنه. أريد الذهاب إلى أزران. استغرب الرجل، لأن تريفل الصغيرة كانت فقيرة جدًا وتبدو جاهلة للغاية. هل تعرفين الإجابة على الأسئلة؟ سأل الوزير. إن كنتِ لا تستطيعين الإجابة، فلن تتمكنى أبدًا من الذهاب إلى بلاد أزران. سأجيب على الأسئلة، قالت تريفل. لكنها كانت خائفة، لأنها لم تكن واثقة من قدرتها على الإجابة. إذن أجيبى على الأسئلة التى سأطرحها عليك. إذا عرفتِ الأجوبة، ستصبحين أميرة أزران. ها هى ذى الأسئلة، وعددها ثلاثة.

توقف مارتن عن الكلام لبرهة، والأطفال ينتظرون.

www.ibtesama.com

ها هو السؤال الأول، قال الوزير. فى وجبة طعام دُعيت إليها، يعطينى والدى ثلاث أكلات شهية جدًا. ما يمكن ليدى أن تأخذه، لا يمكن لفمى أن يأكله. وما يمكن ليدى أن تأخذه، لا يمكن ليدى أن تحتفظ به. وما يمكن لفمى أن يأخذه، لا يمكن لفمى أن يحتفظ به. فكرت الفتاة الصغيرة، ثم قالت: أستطيع أن أجيب على هذا السؤال. نظر إليها الوزير باندهاش، لأنه- حتى ذلك الحين ـ لم يكن أحد قد استطاع الإجابة على هذا السؤال. ها هو اللغز الثانى، أكمل الوزير. دعانى أبى إلى بيوته الأربعة. الأول فى الشمال، وهو فقير وحزين. الثانى فى الشرق، وهو ملىء بالورود. الثالث فى الجنوب، وهو الأجمل. الرابع فى الغرب، وحين دخلته، تلقيت هدية ورغم ذلك فأنا أكثر فقرًا. أستطيع أن أجيب على هذا السؤال، قالت تريفل أيضًا. كان الوزير أكثر اندهاشًا، لأن ما من أحد استطاع أن يجيب على هذا السؤال أيضًا. وها هو اللغز الثالث، قال الوزير. وجه أبى جميل جدًا، ورغم ذلك لا أستطيع أن أراه. له، يرقص خادمى كل يوم. لكن أمى أكثر جمالاً، شعرها أسود جدًا ووجهها أبيض كالثلج. وهى مزينة بالحلى، وترعانى حين أنام. فكرت تريفل أيضًا، ثم أومأت بإشارة بأنها ستفسر الألغاز. ها هى ذى الإجابة الأولى، قالت: الوجبة التى دُعيت إليها هو العالم الذى وُلدت فيه. والأكلات الشهية الثلاث التى يعطيها لى أبى هى التراب، والماء، والهواء. يمكن ليدى أن تأخذ التراب، لكنى لا أستطيع

www.ibtesama.com

ان آكله. يمكن ليدى أن تأخذ الماء لكنها لا تستطيع أن تحتفظ به. وفمى يستطيع أخذ الهواء لكن يخرجه مرةً ثانية فى التنفس.

توقف مارتن من جديد عن الكلام لبرهة فأخذ الأطفال التراب بين يديهم وسرَّبوا الماء بين أصابعهم. ونفخوا الهواء أمامهم.

ها هى إجابة السؤال الثانى: البيوت الأربعة التى يدعونى إليها أبى هى الفصول الأربعة للسنة. بيت الشمال، الحزين والفقير، هو بيت الشتاء. وذلك البيت الموجود فى الشرق، حيث يوجد الكثير من الورود، هو بيت الربيع. والبيت الموجود فى الجنوب، وهو الأجمل، هو بيت الصيف. أما ذلك الموجود فى الغرب، فهو بيت الخريف، وحين أدخله أحصل على سنة جديدة هديةً تجعلنى فقيرة من القوة، لأننى أصبحت أكبر سنًا. أومأ الوزير برأسه بالرضا، لأنه تفاجأ بالعلم الواسع للفتاة الصغيرة. أما الإجابة الثالثة فهى بسيطة، قالت تريفل. من نسميه أبى هو الشمس التى لا يمكن أن أنظر إليها مباشرة. والخادم الذى يرقص له هو الظل. ومن نسميها أمى هو الليل، وشعرها شديد السواد ووجهها أبيض كوجه القمر. حُليها هى النجوم. هذا هو معنى الألغاز. بعد أن سمع الوزير إجابات تريفل، أصدر أوامره، فأتت كل طيور السماء لتحمل الفتاة الصغيرة إلى بلد أزران. إنه بلد بعيد جدًا، بعيد جدًا، ومن فرط بُعده حلقت الطيور أيامًا وليال، لكن تريفل عندما وصلت كانت مذهولة، لأنها

www.ibtesama.com

لم تتصور يومًا شيئًا بذلك القدر من الجمال، ولا حتى فى أحلامها.

هنا توقف مارتن قليلاً مرةً أخرى، فيما كان الأطفال متلهفين وقالوا: كيف كان؟ كيف كان بلد أزران.

حسنًا، كان كل شىء فيه كبير وجميل، به حدائق مليئة بالورود والفراشات، وأنهار من شدة شفافيتها تبدو كالفضة، وأشجار عالية جدًا مغطاة بفواكه من كل الأنواع. وهناك كانت تعيش الطيور، كل طيور العالم. كانت تطير من غصن إلى آخر، وتغرد طوال الوقت، وحين وصلت تريفل أحاطت بها لترحب بها. كانت مكسوة بريش من كل الألوان وترقص أمام تريفل أيضًا، لأنها كانت سعيدة بأن يكون لديها أميرة مثلها. ثم جاءت طيور الشحرور، التى كانت وزيرات لملك الطيور، واصطحبتها إلى قصر أزران. كان الملك عندليبًا يشدو بطريقة فى منتهى الجمال إلى حد أن الجميع كانوا يكفون عن الكلام ليسمعوه. من بعد عاشت تريفل فى قصرها، وفضلاً عن أنها كانت تجيد الكلام بلغة الحيوانات، فقد تعلمت أن تُغنى هى أيضًا، كى ترد على الملك أزران. بقيت فى هذا البلد، وربما لاتزال تعيش فيه حتى الآن، وحين تريد زيارة الأرض، تأخذ شكل طائر قرقب، وتأتى محلقةً لرؤية أصدقائها الذين بقوا على الأرض. ثم تعود إلى بلدها، فى الحديقة الكبيرة التى أصبحت أميرتها.

حين انتهت الحكاية، غادر الأطفال الواحد تلو الآخر، وعادوا إلى منازلهم. لكن عَليًا كانت آخر مَن

www.ibtesama.com

بقى أمام بيت مارتن. ولم ترحل إلا بعد أن دخل الرجل إلى قصره وبسط حصيرته لينام. كانت تمشى ببطء فى ممرات "السد"، فيما كانت مصابيح الغاز تشتعل داخل الأكواخ، ولم تعد تشعر بالحزن. كانت تفكر باليوم الذى سيأتى فيه ربما رجل يرتدى ثياب وزير، وينظر من حوله ويقول:

"أتيت لأصطحب شخصًا ما"

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

ـ ٢ ـ

في حدود تلك الفترة بدأت الحكومة في المجيء إلى هنا، إلى "سد الفرنسيين". كانوا أناسًا غريبين يأتون مرةً أو اثنتين في الأسبوع، في سيارات سوداء وشاحنات برتقالية تتوقف على الطريق، قبل بداية المدينة بقليل؛ كانوا يقومون بأشياء مختلفة بلا سبب، كقياس المسافة في الممرات وبين المنازل، وأخذ قليل من التراب في عُلب حديدية، وقليل من الماء في أنابيب زجاجية، وقليل من الهواء في بالونات صفراء. كانوا أيضًا يطرحون أسئلة كثيرة على الناس الذين يلتقون بهم، على الرجال خاصةً، لأن النساء لم يكن يفهمن ما كانوا يقولونه، وفي كل الأحوال، لم يكن ليجرؤن على الرد.

في طريقها لجلب الماء من المضخة، توقفت عَليَا لتنظر إليهم يمرون، لكنها كانت تعلم جيدًا أنهم لم يأتوا بحثًا عن شخصٍ ما. لم يأتوا لطرح الأسئلة التي

www.ibtesama.com

تسمح بالوصول إلى بلد أزران. بل إنهم لم يكونوا ليهتموا بالأطفال، ولا يطرحون عليهم الأسئلة أبدًا. كان من بينهم رجال بسيماء جادة يرتدون بذلات رمادية ويحملون حقائب صغيرة من الجلد، وطلبة، إناث وذكور يرتدون صدريات صوفية وسترات رياضية بقلنسوات. وهؤلاء هم الذين كانوا الأكثر غرابة، لأنهم كانوا يطرحون أسئلة كان يمكن للجميع أن يفهمها، حول الطقس، أو حول العائلة، لكن ما لم يفهمه الجميع هو سبب طرحهم لتلك الأسئلة. كانوا يدونون الأجوبة فى كراسات، كما لو كانت أشياء فى غاية الأهمية، ويلتقطون صورًا كثيرة لبيوت ألواح الخشب كأنها فعلاً تستحق العناء. حتى أنهم صوروا ما بداخل المنازل بمصباح صغير كان يشتعل ويضىء بأقوى من الشمس.

فيما بعد فُهم وعُرف أنهم كانوا رجال وطلبة الحكومة، وقد أتوا لنقل كل شىء، المدينة والناس، إلى مكان آخر. فقد قررت الحكومة أن مدينة "السد" يجب أن تختفى، لأنها كانت قريبة للغاية مِنَ الطريق ومهبط الطائرات، أو ربما لأنهم كانوا بحاجة إلى الأراضى لبناء عمارات ومكاتب. عُرف ذلك لأنهم وزعوا أوراقًا على كل العائلات ليقولوا إن على الجميع أن يرحلوا، وأن المدينة ستُسوى بالأرض بالآلات والشاحنات. وأطلع طلبة الحكومة الرجال على رسوم كانت تمثل المدينة الجديدة التى سيشيدونها، أعلى النهر. كانت رسوما غريبة أيضًا، بمنازل لا تشبه شيئًا كانوا

www.ibtesama.com

يعرفونه، منازل كبيرة مسطحة بنوافذ متشابهة كثقوب قرميدة. وفى مركز كل بيت ثمة باحة كبيرة وأشجار، وكانت الشوارع شديدة الاستقامة كسكك الحديد. كان الطلبة يطلقون على ذلك مدينة المستقبل، وحين كانوا يتكلمون عنها لرجال ونساء "السد"، كانوا يبدون فى منتهى السعادة وأعينهم تلتمع، وهم يقومون بحركات كبيرة. على الأرجح لأنهم هم من أنجز الرسوم.

حين قررت الحكومة أن تدمر "السد"، وألا يبقى فيها أحد، كان لابد لها من الحصول على موافقة المسئول. لكن لم يكن ثمة مسئول "بالسد"؛ فقد عاش الناس هكذا دائمًا، بلا مسئول، لأن أحدًا لم يكن بحاجة إليه حتى ذلك الحين. فبحثت الحكومة عن شخص ما يريد أن يكون مسئولاً، وكان مدير الجمعية هو من عينته. لذلك كانت الحكومة كثيرًا ما تذهب إلى بيته للحديث عن مدينة المستقبل، وأحيانًا أيضًا، كانوا يصطحبونه فى سيارة سوداء ليذهب إلى المكاتب لتوقيع الأوراق، كى يتم ذلك وفقًا للقانون. ربما كان يجدر بالحكومة أن تذهب لرؤية مارتن فى قصره، لكن أحدًا لم يتحدث عنه، وكان يسكن بعيدًا للغاية، فى آخر "السد"، قرب السبخة. على أية حال، فما كان ليقبل بالتوقيع على أى شىء، وكان الناس سيفكرون انه عجوز جدًا.

حين سمع مارتن بالخبر، لم يقل شيئًا، لكن كان واضحًا أن ذلك لم يعجبه. كان قد بنى قصره حيث اراد، ولم تكن لديه أبدًا رغبة فى السكن فى مكان

www.ibtesama.com

آخر، خاصة فى منزل من منازل مدينة المستقبل الذى كان يشبه قطعة من القرميد.

بعد ذلك، بدأ يصوم، لكنه لم يكن صيامًا لبضعة أيام، كما كان معتادًا. كان صيامًا مرعبًا، بدا أنه لايجب أن ينتهى، واستمر لأسابيع.

كل يوم، كانت عَليَا تأتى أمام بيته لتحضر له خبزًا، وكان باقى الأطفال يأتون أيضًا بصحون الطعام، على أمل أن ينهض مارتن. لكنه كان يبقى ممددًا على حصيرته، ووجهه إلى الباب، فيما أصبحت بشرته بالغة الشحوب تحت اسمرارها القديم. كانت عيناه الداكنتان تلتمعان بضوء ردىء، لأنهما كانتا متعبتين ومتألمتين من النظر باستمرار. وفى الليل، لم يكن ينام. كان يبقى هكذا، بلا حراك، ممددًا على الأرض، وجهه إلى فتحة الباب، وهو ينظر إلى الليل.

جلست عَليَا بجانبه، ومسحت وجهه بقطعة قماش مبلولة لتزيل عنه الغبار الذى حطته الرياح عليه كما على حجر. كان يشرب القليل من ماء الجرة، فقط بضع رشفات طوال اليوم. قالت عَليَا:

"ألا تريد أن تأكل الآن؟ لقد أحضرت لك خبزًا".

كان مارتن يحاول أن يبتسم، لكن فمه كان متعبًا للغاية، وحدها عيناه كانتا قادرتين على الابتسام. شعرت عَليَا بقلبها ينقبض لأنها ظنت أن مارتن سيموت عن قريب.

www.ibtesama.com

"إنك لا تريد الرحيل لذلك لا تشعر بالجوع، اليس كذلك؟"، سألت عَليَا.

لم يرد مارتن، لكن عينيه ردتا، بضوئهما المليء بالتعب والألم. كانتا تنظران إلى الخارج، من فتحة الباب الواطئ، إلى الأرض، والقصب، والسماء الزرقاء.

"ربما لا ينبغى أن تذهب معنا إلى هناك، إلى المدينة الجديدة. ربما عليك العودة إلى بلدك الجميل، من حيث أتيت، وحيث الجميع كالأمراء والأميرات".

لم يعد طلبة الحكومة يأتون إلا نادرًا. ثم توقفوا تمامًا عن المجىء. كانت عَليَا تراقبهم وهى تعمل فى منزل خالتها، وأيضًا وهى ذاهبة لجلب الماء من المضخة. نظرت ما إذا كانت سياراتهم متوقفة على الطريق، عند مدخل المدينة. ثم ركضت حتى قصر مارتن.

"لم يأتوا اليوم أيضًا!"؛ كانت تحاول أن تتكلم، لكن نَفَسها كان منقطعًا. "لن يعودوا أبدًا إلى هنا! آتسمعنى؟ انتهى الموضوع، لن يعودوا أبدًا، سنبقى هنا!".

كان قلبها يخفق بقوة، لأنها ظنت أن مارتن قد نجح فى إبعاد الطلبة، بمجرد الصيام.

"هل أنت متأكدة؟"، سأل مارتن. كان صوته بطيئًا للغاية، ثم اعتدل قليلاً فوق فراشه.

"لم يأتوا منذ ثلاثة أيام!"

www.ibtesama.com

"ثلاثة أيام؟"

"لن يعودوا أبدًا بعد الآن، أنا متأكدة!"

اقتطعت قطعة من الخبز ومدتها لمارتن.

"لا، ليس الآن"، قال الرجل. "يجب أن أغتسل أولاً".

مستندًا على عَليَا، سار بضع خطوات فى الخارج، وهو يترنح. اصطحبته حتى النهر، عبر أعواد القصب. جثم مارتن على ركبتيه وغسل وجهه ببطء، ثم حلق لحيته ومشط شعره، بلا استعجال، لأنه كان قد استيقظ لتوه. بعد ذلك، ذهب للجلوس فوق صندوقه، فى الشمس، وأكل خبز عَليَا. ثم أتى الأطفال البعض تلو الآخر حاملين الطعام، وأخذ مارتن كل ما أُعطى له، وهو يشكرهم. عندما شبع، دخل إلى بيته من جديد، وتمدد فوق فراشه.

"سأنام، الآن"، قال.

لكن الأطفال بقوا جالسين على الأرض أمام بيته، ينظرون إليه وهو نائم.

خلال نومه عادت السيارات الجديدة من جديد. فى البداية جاء الرجال ذوو البذلات الرمادية بحقائبهم السوداء. ذهبوا مباشرةً إلى منزل مدير الجمعية. ثم وصل الطلبة، بأعداد أكبر من المرة الأولى.

بقيت عَليَا ساكنة، ظهرها مستند إلى حائط بيت، فيما كانوا يمرون أمامها ويمشون بسرعة حتى

www.ibtesama.com

الساحة حيث كانت مضخة الماء العذب. تجمعوا هناك وبدا أنهم كانوا ينتظرون شيئًا ما. ثم جاء الرجال المرتدون الرمادى، وكان مدير الجمعية يمشى معهم. كان الرجال يتحدثون إليه، لكنه كان يهز رأسه، وفى النهاية، كان أحد رجال الحكومة هو من أعلن للجميع، بصوت مرتفع كان يصل بعيدًا. قال ببساطة إن الرحيل سيتم غدًا ابتداء من الساعة الثامنة صباحًا. وأن شاحنات الحكومة ستأتى لنقل الجميع إلى قطعة الأرض الجديدة، حيث سيبنون قريبًا مدينة المستقبل. وقال أيضًا إن طلبة الحكومة قد تطوعوا لمساعدة السكان على شحن الأثاث والمتعلقات فى الشاحنات.

لم تجرؤ عَليَا على الحركة، حتى بعد أن رحل الرجال المرتدون الرمادى والطلبة ذوو السترات الرياضية فى سياراتهم. كانت تفكر بمارتن الذى كان حتمًا سيموت الآن، لأنه لن يقبل أبدًا أن يأكل مرةً ثانية.

عندئذ ذهبت للاختباء فى أبعد مكان ممكن، وسط أعواد القصب، قرب النهر. بقيت جالسةً فوق الحصى، تنظر إلى الشمس وهى تنزل. عندما ستكون الشمس فى المكان نفسه، غدًا، لن يكون هناك أحد، فى "السد". ستكون الجرافات قد راحت وجاءت على المدينة، وهى تدفع أمامها المنازل كما لو كانت مجرد علب كبريت، ولن يبقى سوى آثار العجلات والجنزير على الأرض المسحوقة.

بقيت عَليَا مدةً طويلة بلا حراك، وسط أعواد القصب، قرب النهر. حل الليل، ليل بارد يضيئه القمر

www.ibtesama.com

الأبيض المستدير. لكن عَليَا لم تكن ترغب فى العودة إلى بيت خالتها. بدأت تمشى عبر القصب، على طول النهر، إلى أن وصلت إلى السبخة. أعلى قليلاً، كانت تخمن الشكل الدائرى لقصر مارتن. كانت تسمع نقيق الضفادع والصوت المنتظم لماء النهر، من الناحية الأخرى للسبخة.

حين وصلت أمام بيت مارتن، رأته، واقفًا، ساكنًا. كان ضوء القمر يضىء وجهه، وكانت عيناه كماء النهر، داكنتين ولامعتين. كان مارتن ينظر باتجاه السبخة، نحو المصب العريض للنهر، حيث كان يمتد سهل الأحجار الفسفورية.

التفت الرجل نحوها وكانت نظرته مفعمة بقوة غريبة، كانت كأنها تشع بالضوء.

"كنت أبحث عنكِ"، قال مارتن ببساطة.

"هل سترحل؟"؛ تكلمت عَليَا بصوت خفيض.

"نعم، سأذهب فورًا".

نظر إلى عَليَا كأنه مستمتع.

"أتريدين أن تأتى معى؟"

شعرت عَليَا بفرحة تنفخ فجأةً رئتيها وحلقها. قالت، فى صوت يقارب الصراخ:

"انتظرنى! انتظرنى!"

راحت تركض عبر شوارع المدينة، وتدق على كل الأبواب وهى تصرخ:

www.ibtesama.com

"تعالوا بسرعة! تعالوا! سنرحل الآن!"

خرج الأطفال والنساء أولاً، لأنهم فهموا. ثم جاء الرجال أيضًا، البعض تلو الآخر. بدأ حشد أهالى "السد" يكبر فى الممرات. كانوا يحملون ما استطاعوا تحت ضوء مصابيح الجيب، أكياسًا، وكراتين، وأدوات المطبخ. وكان الأطفال يصرخون ويركضون عبر الممرات وهم يكررون نفس الجملة:

"نحن ذاهبون! نحن ذاهبون!"

حين وصل الجميع أمام منزل مارتن، سادت لحظات صمت، نوع من التردد. حتى مدير الجمعية لم يجرؤ على قول شيء، لأن ذلك كان سرًّا أحس به الجميع.

أما مارتن، فبقى ساكنًا أمام الدرب الذى كان ينفتح بين أعواد القصب. ثم دون أن ينطق بكلمة واحدة للحشد الذى كان ينتظر، بدأ يمشى على الدرب، باتجاه النهر. انطلق الآخرون خلفه. كان يتقدم بخطواته المنتظمة، دون أن يلتفت، دون أن يتردد، كأنه يعرف إلى أين هو ذاهب. حين بدأ يمشى فى ماء النهر، عبر المخاضة ، أدرك الناس إلى أين كان يتجه، ولم يعودوا خائفين. كان الماء الأسود يتلألأ حول جسد مارتن وهو يتقدم عبر المخاضة. أمسك الأطفال بأيدى النساء والرجال، وببطء شديد، تقدم الحشد أيضًا فوق الماء البارد للنهر. أمامها، على الضفة الأخرى للنهر الأسود، بأرصفته من الأحجار

www.ibtesama.com

الفسفورية، وفيما كانت تسير فوق القاع المنساب، وفستانها يلتصق ببطنها وفخذيها، كانت عَليَا تنظر إلى الشريط الأسود للضفة الأخرى، حيث لم يكن ضوء واحد يلتمع.

www.ibtesama.com

شعَب السَّماء

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

ـ ١ ـ

أكثر ما كانت "بُوتيت كُروَا" تحب فعله هو هذا:
كانت تذهب إلى آخر القرية وتجلس مُشكِّلة زاوية قائمة مع الأرض المتصلبة، من شدة حرارة الشمس. لم تكن تتحرك، أو تقريبًا لا تتحرك، لساعات، جذعها مستقيم، وساقاها ممدودتان تمامًا أمامها. أحيانًا كانت يداها تتحركان، كأنهما منفصلتان عنها، فتشدان الياف الأعشاب لتضفرا سلالاً أو حبالاً. كانت كأنها تنظر إلى الأرض تحتها، دون أن تفكر فى شىء ولا تنتظر شيئًا، فقط جالسة بزاوية مستقيمة فوق الأرض المتصلبة، فى آخر القرية، حيث كان الجبل يتوقف فجأةً تاركًا المكان للسماء.

كان بلدًا بلا بشر، بلد الرمال والتراب، بهضاب مستطيلة فقط كحدود، عند الأفق. كانت الأرض أفقر من أن تمنح البشر ما يأكلون، ولم يكن المطر يهطل من السماء. كانت الطريق الأسفلتية تقطع البلد من

www.ibtesama.com

أقصاه إلى أقصاه، لكنها كانت طريقًا للمرور بلا توقف، ودون النظر إلى القرى الترابية، والسير مباشرةً إلى الأمام وسط السراب، وفى الصوت المنفعل لإطارات العطلات مفرطة السخونة.

هنا، كانت الشمس قويةً للغاية، أقوى من الأرض. كانت "بُوتيت كُروَا" جالسة، وتحس بقوتها على وجهها وجسدها. لكنها لم تكن خائفة منها. كانت تتبع طريقها بالغ الطول عبر السماء دون اكتراث بها. تحرق الحجارة، وتجفف الجداول والآبار، وتشقق الأشجار الصغيرة والأجمات الشائكة. حتى الأفاعى، والعقارب كانوا يخشونها ويحتمون فى مخابئهم حتى الليل.

لكن "بُوتيت كُروَا" لم تكن تخشاها. أصبح وجهها الساكن شبه أسود، وكانت تغطى رأسها بطرف بطانيتها. كانت تحب مكانها، فى أعلى الجرف، حيث تتكسر الأرض والصخور فجأةً ويشقون الرياح الباردة كصدر سفينة. كان جسدها يعرف جيدًا مكانها، وكان يليق بها تمامًا. مكان صغير، على مقاسها، فوق الأرض الصلبة، متجوِّف حسب شكل مؤخرتها وساقيها. لذا كانت تستطيع البقاء هناك مدة طويلة، جالسة بزاوية مستقيمة تمامًا مع الأرض، حتى تبرد الشمس ويأتى العجوز باتى ويأخذها من يدها لوجبة العشاء.

كانت تلمس الأرض براحتَى يديها، وتتبع بأطراف أصابعها ببطء التجاعيد الصغيرة التى تركتها الرياح

www.ibtesama.com

والتراب، والأخاديد، والنتوءات. كان غبار الرمل يصنع مسحوقًا ناعمًا كمسحوق التَّلك ينساب تحت راحتى يديها. وحين كانت الرياح تهب، كان التراب يفلت من بين أصابعها، لكن خفيفًا، كالدخان، ويختفى فى الهواء. وكانت الأرض الصلبة ساخنة للغاية تحت الشمس. منذ أيام، وشهور و"بُوتيت كُروَا" تأتى إلى هذا المكان. هى نفسها لم تعد تتذكر كيف عثرت على هذا المكان. كل ما كانت تتذكره هو السؤال الذى كانت قد طرحته على العجوز باتى، بخصوص السماء، لون السماء.

"ما هو اللون الأزرق؟"

كان هذا هو ما سألت عنه، أول مرة، وبعدها عثرت على هذا المكان، بذلك التجويف فى الأرض، الذى كان جاهزًا لاستقبالها.

أهالى الوادى بعيدون، الآن. لقد مضوا فى طريقهم كحشرات مزركشة، وسط الصحراء، ولم نعد نسمع صخبهم. أو يمضون فى شاحناتهم الصغيرة ويستمعون لموسيقى تخرج من أجهزة الراديو، تهسهس وتصر كالحشرات. يسيرون مباشرةً على الطريق الأسود، عبر الحقول الجافة وبحيرات السراب، دون أن ينظروا حولهم. ماضون كأنهم لن يعودوا أبدًا.

تحب "بُوتيت كُروَا" ألاَّ يكون أحد حولها. خلف ظهرها، شوارع القرى خالية، وشديدة النعومة إلى حدٍّ لا تستطيع معه الرياح التوقف فيها أبدًا، رياح الصمت

www.ibtesama.com

الباردة. جدران المنازل المتهدمة جزئيًا شبيهة بالصخور، ساكنة وثقيلة، متآكلة بالرياح، بلا صوت، ولا حياة.

أما الرياح، فلا تتكلم، لا تتكلم أبدًا. فهى ليست كالرجال والأطفال، ولا حتى كالحيوانات. تمر فحسب بين الجدران، وعلى الصخور، وفوق الأرض الصلبة. تصل حتى "بُوتيت كُروَا" وتلفها، تزيل للحظات وقدة الشمس من على وجهها، وتصفق أطراف البطانية.

لو توقفت الرياح، لسُمعت ربما أصوات الرجال والنساء فى الحقول، وصوت البكرة قرب الخزان، وصرخات الأطفال أمام المبانى الجاهزة للمدرسة، فى الأسفل، فى قرية منازل الصفائح الحديدية. وربما تسمع "بُوتيت كُروَا" أيضًا، فى البعيد، قطارات البضائع التى تَصر فوق السكك الحديدية، وزمجرة الشاحنات ذات الثمانى عجلات فوق الطريق الأسود، وهى متجهة نحو مدن أكثر صخبًا، نحو البحر.

تحس "بُوتيت كُروَا" الآن بالبرد الذى يدلف داخلها. وهى لا تقاومه. فقط تتحسس الأرض براحتى يديها، ثم تلمس وجهها. فى مكانٍ ما، خلفها، كلاب تنبح، بلا سبب، ثم تعود للنوم متكورة فى زوايا الجدران، وأنوفها فى التراب.

هذا هو الوقت الذى يكون فيه الصمت كبيرًا إلى حد يمكن معه أن يحدث أى شىء. تتذكر "بُوتيت كُروَا" السؤال الذى تطرحه، منذ عدة سنوات، السؤال الذى

www.ibtesama.com

تود كثيرًا معرفة إجابته، حول السماء، ولونها. لكنها لم تعد تقول بصوت مسموع:

"ما هو اللون الأزرق؟"

بما أن أحدًا لا يعرف الإجابة الصحيحة. تبقى ساكنة، جالسة بزاوية مستقيمة تمامًا، فى آخر الجرف، أمام السماء. تعلم جيدًا أن شيئًا ما سيأتى. تنتظره كل يوم، فى مكانها، جالسة على الأرض الصلبة، التى تملكها هى وحدها. ووجهها الأسود تقريبًا تحرقه الشمس والرياح، ومرفوع قليلاً إلى الأعلى حتى لا يصل الظل إلى بشرتها. هادئة، ولا تشعر بالخوف. فهى تعلم جيدًا أن الإجابة ستأتى، ذات يوم، دون أن تدرك كيف. لا شىء سيئ يمكن أن يأتى من السماء، هذا مؤكد. أما صمت الوادى الخالى، وصمت القرية خلفها، فذلك كى تتمكن من سماع إجابة سؤالها بشكل أفضل. وحدها تستطيع سماعها. فحتى الكلاب نائمة، دون أن تلحظ ما هو آت.

فى البدء هو الضوء. يُصدر صوتا رهيفًا فوق الأرض، كحفيف مكنسة ورق الشجر، أو كستارة من قطرات تتقدم. تنصت "بُوتيت كُروَا" بكل قواها، وهى تحبس نفَسها قليلاً، فتسمع بوضوح الصوت القادم. إنه يقول شّشّشش، وأيضًا دت دت دت! فى كل مكان، على الأرض، فوق الصخور، وفوق الأسقف المسطحة للمنازل. هو صوت نار، لكنه لطيف جدًا وبطىء، نار هادئة غير مترددة، ولا تطلق ألسنتها. يأتى ذلك

www.ibtesama.com

بالأخص من الأعلى، فى مواجهتها، وبالكاد يحلق عبر الهواء، وهو يحف بأجنحته الصغيرة. تسمع "بُوتيت كُروَا" الهمس يكبر، ثم يتسع من حولها. الآن أصبح يأتى من كل مكان، لا من الأعلى فحسب، إنما أيضًا من الأرض، والصخور، ومنازل القرية، ينبثق من كل اتجاه كالقطرات، ويصنع عُقدًا، ونجومًا، وشتى أنواع الورود. يرسم منحنيات طويلة تتقافز فوق رأسها، وأقواسًا عملاقة، وباقات.

ها هو، الصوت الأول، الكلمة الأولى. حتى قبل أن تمتلئ السماء، تسمع مرور أشعة الضوء المجنونة، فيبدأ قلبها بالخفقان بشكل أسرع وأقوى.

لا تحرك "بُوتيت كُروَا" رأسها، ولا جذعها. ترفع يديها عن الأرض الجافة، وتمدهما أمامها، وراحتاها نحو الخارج. هذا ما يتوجب عليها فعله؛ لتشعر بالحرارة تمر على أطراف أصابعها، كتربيت يذهب ويجىء. يطقطق الضوء فوق شعرها الكثيف، وعلى زغب البطانية، وعلى رموشها. بشرة الضوء ناعمة وترتعش، حين ينساب ظهره وبطنه الشاسعة فوق راحتى الفتاة الصغيرة المفتوحتين.

هكذا هو الأمر دائمًا، فى البداية، مع الضوء الذى يحوم من حولها، ويحتك براحتَى يديها كخيول العجوز باتى. لكن هذه الخيول أكبر وأكثر نعومة، وتأتى فورًا نحوها كأنها سيدتها.

www.ibtesama.com

لقد جاءت من عمق السماء، قفزت من جبل إلى آخر، قفزت فوق المدن، فوق الأنهار، بلا ضوضاء، فقط بالحفيف الناعم لشعرها الزغبى.

تسعد "بُوتيت كُروَا" بوصولها. فهى لا تأتى إلا من أجلها، ربما للإجابة على سؤالها، لأنها الوحيدة التى تفهمها، والوحيدة التى تحبها. أما الآخرون فيخافونها، ويخيفونها، ولهذا لا يرون أبدًا خيول الأزرق. أما "بُوتيت كُروَا" فتناديها، وتكلمها بهدوء، بصوت خفيض، وهى تغنى، لأن خيول الضوء كخيول الأرض، تحب الأغانى والأصوات الرخيمة.

"يا خيول، يا خيول،

يا خيول الأزرق الصغيرة

فيما تحلِّقين خذينى

فيما تحلِّقين خذينى

يا خيول الأزرق الصغيرة"

إنها تقول "خيول صغيرة" من أجل نيل إعجابها، لأنها بالتأكيد لن يعجبها أن تعرف أنها عملاقة.

هكذا هو الأمر فى البداية. ثم تأتى السُّحُب. والسُّحُب ليست كالضوء. فهى لا تربت على راحات الأيادى بظهورها وبطونها، لأنها هشة وخفيفة وقد تتعرض لفقدان فرائها والتبدد فى خيوط كأزهار أشجار القطن.

www.ibtesama.com

تعرفها "بُوتيت كُروَا" جيدًا. وتعلم أن السُّحُب لاتحب ما يمكن أن يحُلها ويذيبها، لذا تحبس أنفَاسها، وتتنفس بجرعات صغيرة، ككلاب ركضت مدةً طويلة. يبث ذلك البرد فى حلقها ورئتيها، فتشعر أنها أصبحت واهنة وخفيفة، هى أيضًا، كالسُّحُب. عندئذ يمكن للسحب أن تأتى.

فى البداية تكون بعيدة فوق الأرض، تتمدد وتتكوم، تغير شكلها، تذهب وتجىء أمام الشمس ويتسلل ظلها فوق الأرض الصلبة وعلى وجه "بُوتيت كُروَا" كنفثات مروحة.

على بشرة خديها شبه السوداء، على جبينها، على جفنيها، وعلى يديها، تتسلل الظلال، تطفئ الضوء، تصنع بقعًا باردة، بقعًا خاوية. ها هو، الأبيض، لون السُّحُب. فالعجوز باتى وجاسبير معلم المدرسة قالا ذلك لبُوتيت كُروَا: الأبيض هو لون الثلج، ولون الملح، والسُّحُب، ورياح الشمال. هو لون العظام والأسنان أيضًا. الثلج بارد ويذوب فى اليد، والرياح باردة ولا يمكن لأحد أن يمسك بها. والملح يحرق الشفاه، والعظام ميتة، أما الأسنان فهى كالأحجار فى الفم. ذلك أن الأبيض هو لون الفراغ، فلا وجود لشىء بعد الأبيض، ولا يبقى بعده شىء.

السُّحُب هكذا. بعيدة جدًا، وتأتى من بعيد جدًا، من مركز الأزرق، باردة كالرياح، خفيفة كالثلج، وهشة؛ لا تصدر أى صوت لدى وصولها، فهى صامتة تمامًا

www.ibtesama.com

كالأموات، أكثر صمتًا من الأطفال الذين يمشون حفاة على الصخور، حول القرية.

لكنها تحب المجىء لرؤية "بُوتيت كُروَا"، فهى لاتخافها. إنها تنتفخ الآن من حولها، أمام الجرف الهاوى. تعلم أن "بُوتيت كُروَا" شخص صامت. وتعرف أنها لن تؤذيها. السُّحُب منتفخة وتمر بالقرب منها، وتحيط بها، فتشعر بالنداوة العذبة لفرائها، وملايين القطرات الصغيرة التى تندى بشرة وجهها وشفتيها كرذاذ الليل، وتسمع الضوضاء بالغة العذوبة التى تطفو من حولها، فتغنى من جديد، لها،

"يا سُحُب، يا سُحُب،

يا سُحُب السماء الصغيرة

فيما تحلِّقين خذينى

فيما تحلِّقين خذينى

فى قطيعك"

تقول أيضًا "سُحُب صغيرة"، لكنها تعلم جيدًا أنها كبيرة جدًا جدًا، لأن فراءها النَّدِى يغطيها مدة طويلة، ويحجب حرارة الشمس وقتًا طويلاً جدًا إلى حد أن ترتعش.

تتحرك "بُوتيت كُروَا" ببطء حين تكون السُّحُب فوقها، كى لا تخيفها. أما أهل المنطقة فلا يعرفون كيف يتحدثون إلى السُّحُب. إنهم يصدرون صخبًا كبيرًا، ويقومون بحركات كثيرة، فتبقى السُّحُب عاليًا

www.ibtesama.com

فى السماء. ترفع "بُوتيت كُروَا" يديها ببطء إلى وجهها، وتضغط راحتيها على خديها.

ثم تبتعد السُّحُب. تذهب إلى مكان آخر، لتنجز مهامها هناك، أبعد من أسوار الهضاب، وأبعد من المدن. تذهب حتى البحر، حيث كل شىء أزرق على الدوام، لتهطل ماءها، لأن ذلك أكثر ما تحبه فى العالم: المطر فوق الامتداد الأزرق للبحر. البحر، قال العجوز باتى، هو أجمل مكان فى العالم، مكان فيه كل شىء أزرق بالفعل. هناك كل أنواع الأزرق فى البحر، قال العجوز باتى. كيف يمكن أن تكون هناك أنواع متعددة للأزرق، سألت "بُوتيت كُروَا". هو هكذا، هناك أنواع كثيرة للأزرق، كالماء الذى نشربه، ويملأ الفم ويسيل فى البطن، باردًا تارةً، وساخنًا تارة.

لا تزال "بُوتيت كُروَا" تنتظر الآخرين القادمين. تنتظر رائحة العشب، ورائحة النار، والغبار الذهبى الذى يتراقص حول نفسه وهو يدور على ساق واحدة، والطير الذى ينعق مرةً واحدة ويلامس وجهها بطرف جناحه. يأتون دائما، حين تكون هنا. فهم لا يخافونها. يسمعون سؤالها، الدائم، عن السماء ولونها، ويمرون قريبًا منها إلى أن تشعر بالهواء يتحرك فوق رموشها وفى شعرها.

ثم وصل النحل. كان قد غادر مبكرًا، من خلاياه أسفل الوادى. زار كل الزهور البرية، فى الحقول، وبين أكوام الصخور. إنه يعرف الزهور جيدًا، ويحمل طلعها فى أرجله، التى تتدلى من الثقل.

www.ibtesama.com

تسمعه "بُوتيت كُروَا" وهو قادم، دائمًا فى التوقيت نفسه، حين تكون الشمس عالية جدًا فوق الأرض الصلبة. تسمعه من كل النواحى دفعةً واحدة، لأنه يخرج من أزرق السماء. عندئذ تفتش "بُوتيت كُروَا" فى جيوب سترتها، وتخرج حبيبات سكر. يهتز النحل فى الهواء، وغناؤه الحاد يعبر السماء، يقفز فوق الصخور، ويلامس أذنَى "بُوتيت كُروَا" وخديها.

كل يوم، فى الساعة نفسها، يأتى. فهو يعلم أن "بُوتيت كُروَا" تنتظره، وهو يحبها أيضًا. يصل بالعشرات، من كل اتجاه، مصدرًا موسيقاه فى الضوء الأصفر. يحط فوق يدى "بُوتيت كُروَا" المفتوحتين، ويلتهم مسحوق السكر بشراهة كبيرة. ثم يتجول على وجهها، وعلى خديها، وعلى فمها، ويمشى ببطء شديد وأرجله الخفيفة تدغدغ بشرتها فتضحكها. لكن "بُوتيت كُروَا" لا تضحك بقوة، كى لا تخيفه. يهتز النحل فوق شعرها الأسود، قرب أذنيها، فتنتج عن ذلك أنشودة رتيبة تتحدث عن الأزهار والنباتات، عن كل الأزهار وكل النباتات التى زارها ذلك الصباح. "اسمعينا"، يقول النحل، "لقد رأينا الكثير من الأزهار، فى الوادى، وذهبنا إلى آخر الوادى بلا توقف، لأن الرياح كانت تحملنا، ثم عدنا، من زهرة إلى أخرى". "ماذا رأيتم؟"، تسأل "بُوتيت كُروَا". "رأينا الزهرة الصفراء لعبَّاد الشمس، وزهرة الشوك الحمراء، وزهرة الأوكوتيو التى تشبه أفعى برأس حمراء. رأينا أيضًا الزهرة البنفسجية الكبيرة لصبار البيتايا،

www.ibtesama.com

والزهرة المسنَّنة للجَزر البرى، وزهرة الغار الشاحبة. رأينا الزهرة المسمومة لنبتة الشيخة، والزهرة المجعدة لشجر النّيلة، والزهرة الخفيفة للقويصة الحمراء". "وماذا أيضًا؟"، "حلَّقنا حتى الأزهار البعيدة، التى تتألق فوق الفلوكس البرى، ملتهم النحل، رأينا النجمة الحمراء للكامبيون المكسيكى، وعجلة النار، وزهرة الحليب. حلَّقنا فوق الكشمش، وشربنا طويلاً من رحيق زهر اليارو، وماء النعناع الليمونى. بل حلَّقنا فوق أجمل زهرة فى العالم، تلك التى تنبثق عاليًا جدًا فوق أوراق اليكَّة، المسننة كنصل سيف، والبيضاء كالثلج. كل هذه الأزهار لك، يا "بُوتيت كُروَا"، نحملها لك لنشكرك".

هكذا يتكلم النحل، وعن أشياء أخرى أيضًا. يتكلم عن الرمل الأحمر والرمادى الذى يلتمع فى الشمس، عن قطرات الماء التى تتوقف، سجينة لزغب نبات الفَرَبْيون، أو فى توازن على إبر شجرة الغاف. يتكلم عن الشمس التى تصعد فى السماء، ثم تنزل من جديد، وعن النجوم التى تشق الليل.

لا يتكلم لغة البشر، لكن "بُوتيت كُروَا" تفهم كل ما يقول، والاهتزازات الحادة لآلاف الأجنحة تجعل بقعًا ونجومًا وأزهارًا تبدو على شبكية عينيها. فالنحل يعرف أشياء كثيرة. تفتح "بُوتيت كُروَا" يديها جيدًا ليتمكن من أكل آخر ذرات السكَّر، وتغنى له أيضا أغنية، وهى بالكاد تفتح شفتيها، فيصبح صوتها حينها شبيها بطنين الحشرات.

www.ibtesama.com

"يا نحل، يا نحل،

يا نحل السماء الأزرق

فيما تحلِّق خذنى

فيما تحلِّق خذنى

محلقةً

فى قطيعك".

كان ثمة صمت، وقت طويل من الصمت، حين رحل النحل.

هبت الرياح الباردة على وجه "بُوتيت كُروَا"، فأدارت رأسها قليلاً كى تتنفس. كانت يداها تتلاقيان عند بطنها تحت البطانية، وبقيت ساكنة، بزاوية قائمةً تمامًا على الأرض الصلبة. من سيأتى الآن؟ كانت الشمس عاليةً فى السماء الزرقاء، وترسم ظلالاً على وجه الفتاة الصغيرة، وتحت أنفها، وتحت قوسى حاجبيها.

كانت "بُوتيت كُروَا" تفكر بالجندى الذى كان بالتأكيد يسير، الآن، قادمًا إليها. عليه أن يمشى على طول الدرب الضيق الذى يصعد النتوء الجبلى حتى القرية القديمة المهجورة. تنصت "بُوتيت كُروَا"، لكنها لا تسمع وقع خُطاه. كما أن الكلاب لم تنبح. لا تزال نائمة فى زوايا قديمة للجدران، وأنوفها فى التراب.

تهب الرياح وتئن فوق الحجارة، وفوق الأرض الصلبة. إنها حيوانات طويلة سريعة، حيوانات بأنوف طويلة وآذان صغيرة تتقافز فى التراب مصدرةً

www.ibtesama.com

ضوضاء خفيفة. تعرف "بُوتيت كُروَا" الحيوانات الصغيرة جيدًا. تخرج من أوكارها، فى الطرف الآخر من الوادى، وتركض، تعدو، وتلهو بالتقافز فوق السيول، والأودية، والصدوع. ومن حين إلى آخر، تتوقف، لاهثةً، والضوء يتلألأ على فرائها الذهبى. ثم تعاود من جديد قفزاتها فى السماء، وطرادها المجنون، تلامس بالكاد "بُوتيت كُروَا"، وتدفع شعرها وثيابها، وتسوط ذيولها الهواء وهى تصفر. تمد "بُوتيت كُروَا" ذراعيها، محاولة إيقافها، والإمساك بها من ذيولها.

"توقفوا! توقفوا! أنتم تركضون بسرعة! توقفوا!"

لكن الحيوانات لا تصغى إليها. تلهو بالتقافز قربها، والتسلل بين ذراعيها، وتنفخ أنفاسها على وجهها. تسخر منها. لو تتمكن من الإمساك بأحدها، واحد منها فقط، فلن تفلته أبدًا. إنها تعلم جيدًا ما ستفعله. ستقفز فوق ظهره، كما على ظهر حصان، وتضم بقوة ذراعيها حول عنقه، و ياهو ياب! بقفزة واحدة سيحملها الحيوان حتى منتصف السماء. ستطير، تركض معه، بسرعة فائقة إلى ألا يتمكن أحد من رؤيتها. ستذهب عاليًا فيما أعلى من الوديان والجبال، فيما أعلى القرى، حتى البحر رأسًا، ستذهب طوال الوقت إلى أزرق السماء. أو تنزلق إلى الأرض، على أغصان الأشجار وعلى الأعشاب مصدرة ضوضاءها بالغة العذوبة كالماء الجارى. وسيكون ذلك رائعًا.

www.ibtesama.com

لكن "بُوتيت كُروَا" لا تتمكن أبدًا من الإمساك بحيوان. تشعر بجلده المائع يتسلل بين أصابعها، ويدور كالزوبعة فى ملابسها وشعرها. أحيانًا تكون الحيوانات بطيئَة جدًا وباردة كالثعابين.

لا أحد فوق النتوء الجبلى. لم يعد أطفال القرية يأتون إلى هنا، إلا من وقت لآخر، لصيد الحنش. ذات يوم، جاءوا دون أن تسمعهم "بُوتيت كُروَا". قال أحدهم: "لقد أحضرنا لكِ هدية." "ماذا؟"، سألت "بُوتيت كُروَا". "افتحى يديك، وستعرفين"، قال الطفل. فتحت "بُوتيت كُروَا" يديها، وحين وضع الطفل الحنش فى يديها، ارتجفت لكنها لم تصرخ. ارتعشت من رأسها حتى قدميها. ضحك الأطفال، لكن "بُوتيت كُروَا" تركت الثعبان ينزلق إلى الأرض ببساطة، دون أن تقول شيئًا، ثم خبأت يديها تحت بطانيتها.

الآن، أصبحوا أصدقاءها، كل أولئك الذين يتسللون بلا أى صوت فوق الأرض الصلبة، أولئك الذين لهم أجساد طويلة باردة كالماء، الثعابين، وحيات الزجاج، والعظايات. تعرف "بُوتيت كُروَا" مخاطبتهم. تناديهم بهدوء، بالتصفير بين أسنانها، فيأتون إليها. لاتسمعهم وهم قادمون، لكنها تعلم أنهم يقتربون، بالدبيب، من شق إلى آخر، ومن جحر إلى آخر، وينصبون رءوسهم عاليًا ليسمعوا الصفير اللطيف بشكل أفضل، وحلوقهم تخفق.

"يا ثعابين،

www.ibtesama.com

يا ثعابين"

وتغنى لهم "بُوتيت كُروَا" أيضًا. ليسوا كلهم ثعابين، لكنها تسميهم هكذا.

"يا ثعابين

يا ثعابين

فيما تحلِّقون خذونى

فيما تحلِّقون خذونى"

فيأتون، بلا شك، ويصعدون فوق ركبتيها، يمكثون برهة فى الشمس وهى تحب ثقلهم الخفيف فوق ساقيها. ثم يرحلون فجأةً، لأنهم يشعرون بالخوف، حين تهب الرياح، أو تطقطق الأرض.

تسمع "بُوتيت كُروَا" وقع خطى الجندى. يأتى كل يوم فى الساعة نفسها، حين تسطع الشمس فى مواجهتها تمامًا وتصبح الأرض الصلبة دافئة تحت يديها. لا تسمعه "بُوتيت كُروَا" كل مرة وهو قادم، لأنه يمشى بلا صوت بنعاله المطاطى. يجلس على حجَر بجانبها، وينظر إليها مدةً طويلة دون أن يقول شيئًا. لكن "بُوتيت كُروَا" تشعر بنظرته عليها، وتسأل:

"من هناك؟"

إنه أجنبى، لا يتكلم جيدًا لغة البلد، كأولئك الذين يأتون من المدن الكبيرة، قرب البحر. حين سألته "بُوتيت كُروَا" مَن يكون، قال إنه جندى، وتحدث عن

www.ibtesama.com

الحرب التى نشبت فى الماضى، فى بلاد بعيدة. لكنه ربما لم يعد جنديًا الآن.

حين يصل، يقدم لها بعض الأزهار البرية التى يقطفها وهو يمشى على طول الدرب الذى يصعد حتى اعلى الجرف. أزهار نحيفة وطويلة، بتلاتُها متباعدة، وتفوح منها رائحة كرائحة الأغنام. لكن "بُوتيت كُروَا" تحبها، وتضمها بين يديها.

"ماذا تفعلين"، يسأل الجندى.

"انظر إلى السماء"، تقول "بُوتيت كُروَا". "إنها جميلة جدًا اليوم، أليس كذلك؟"

"نعم"، يقول الجندى.

هكذا ترد "بُوتيت كُروَا" دائمًا، لأنها لا تستطيع أن تنسى سؤالها. ترفع رأسها قليلاً إلى الأعلى، ثم تمرر يديها ببطء على جبينها، وخديها، وجفنيها.

"أظن أنى أعرف ما هو"، قالت.

"ماذا؟"

"الأزرق. إنه ساخن جدًا على وجهى".

"إنها الشمس"، قال الجندى.

يُشعل سيجارة إنجليزية، ويدخن بلا استعجال، وهو ينظر أمامه مباشرة. تلف رائحة التبغ "بُوتيت كُروَا" وتدوخها قليلاً.

"قل لى... احك لى".

www.ibtesama.com

تطلب منه دائمًا ذلك. يكلمها الجندى بهدوء، ويقاطع نفسه من وقت إلى آخر ليسحب سيجارة.

"هذا رائع"، يقول. "أولاً هناك سهل كبير به مساحات من الأراضى الصفراء، قد يكون ذرة لم تُحصد بعد، على ما أظن. وهناك درب من التراب الأحمر يذهب مباشرة وسط الحقول، وكوخ خشبى..."

"هل هناك حصان؟"، تسأل "بُوتيت كُروَا".

"حصان؟ انتظرى... لا، لا أرى حصانًا".

"إذن ليس بيت عمى".

"هناك بئر، قرب الكوخ، لكنها جافة على ما أظن.. وصخور سوداء لها أشكال غريبة، تبدو ككلاب مستلقية.. أبعد قليلاً هناك الطريق، وأعمدة التلغراف. ثم هناك خور، لكن أظن أنه جاف لأنه يمكن رؤية الحصى فى القاع.. رمادى، ملىء بالحصى والتراب.. ثم، السهل الكبير الممتد بعيدًا، بعيدًا، حتى الأفق، عند الهضبة الثالثة. هناك تلال نحو الشرق، لكن السهل فى كل مكان، مسطح وناعم كفضاء للطيران. غربًا، هناك الجبال، حمراء داكنة وسوداء، تبدو هى أيضًا كحيوانات نائمة، أفيال..."

"ألا تتحرك؟"

"لا، لا تتحرك، تنام لآلاف السنين، بلا حراك".

"وهل الجبل نائم، هنا أيضًا؟"، تسأل "بُوتيت كُروَا". تضع يديها مسطحتين فوق الأرض الصلبة.

www.ibtesama.com

"نعم، نائم هو أيضًا".

"لكنه أحيانًا يتحرك"، تقول "بُوتيت كُروَا".

"يتحرك قليلاً، يهز نفسه قليلاً، ثم ينام من جديد".

لا يقول الجندى شيئًا للحظات. "بُوتيت كُروَا" الآن فى مواجهة المشهد الطبيعى تمامًا لتشعر بما حكاه الجندى. السهل الكبير طويل وناعم على خدها، لكن الأودية والدروب الحمراء تُحرقها قليلاً، والغبار يشقق شفتيها.

تعدل وجهها فتشعر بحرارة الشمس.

"ماذا فى الأعلى؟"، تسأل "بُوتيت كُروَا".

"فى السماء؟"

"نعم".

"حسنا.."، يقول الجندى. لكنه لا يعرف كيف يحكى ذلك. يُقطب عينيه بسبب ضوء الشمس.

"هل هناك الكثير من الأزرق اليوم؟"

"نعم، السماء شديدة الزرقة".

"ألا يوجد الأبيض؟"

"لا، ولا أية نقطة بيضاء".

تمد "بُوتيت كُروَا" يديها إلى الأمام.

"نعم، لابد أنها زرقاء جدًا، فهو يحرق بقوة اليوم، كالنار".

www.ibtesama.com

تخفض رأسها لأن الحرق يؤلمها.

"هل هناك نار فى الأزرق؟"، تسأل "بُوتيت كُروَا".

بدا أن الجندى لم يفهم جيدًا.

"لا..."، قال أخيرًا. "النار حمراء، وليست زرقاء".

"لكن النار مختبئة"، تقول "بُوتيت كُروَا". "النار مختبئة فى عمق أزرق السماء، كثعلب، وتنظر نحونا، تنظر وعيناها حارقتان".

"خيالك واسع"، يقول الجندى. يضحك قليلاً، لكنه يتفحص السماء، هو أيضًا، ويداه كواق أمام عينيه.

"ما تشعرين به، هو الشمس".

"لا، الشمس لا تختبئ، ولا تحرق بهذا الشكل"، تقول "بُوتيت كُروَا". "الشمس لطيفة، لكن الأزرق، كحجارة الموقد، يؤلم فى الوجه".

فجأة، أطلقت "بُوتيت كُروَا" صرخة صغيرة، وانتفضت.

"ماذا جرى؟"، سأل الجندى.

مررت الفتاة الصغيرة يديها على وجهها وتأوهت قليلاً. أحنت رأسها نحو الأرض.

"لقد وخزنى..."، قالت.

أبعد الجندى شعر "بُوتيت كُروَا"، ومرر أطراف أصابعه الخشنة على خدها.

www.ibtesama.com

"ما الذى وخزك؟ لا أرى شيئًا..."

"ضوء... زنبور"، قالت "بُوتيت كُروَا".

"ليس هناك أى شىء، يا بُوتيت كُروَا"، قال الجندى. "كنتِ تحلمين".

بقيا مدةً طويلة بلا كلام. لا تزال "بُوتيت كُروَا" جالسة بزاوية قائمة على الأرض الصلبة، والشمس تضىء وجهها ذا اللون البرونزى. السماء هادئة، كأنها تعلق نَفسها.

"ألا نرى البحر اليوم؟"

تسأل "بُوتيت كُروَا".

يضحك الجندى.

"أوه لا! إنه بعيد جدًا عن هنا".

"ألا يوجد هنا غير الجبال؟"

"البحر، على بعد أيام عن هنا. حتى بالطائرة، نستغرق ساعات قبل رؤيته".

رغم ذلك تود "بُوتيت كُروَا" رؤيته. لكن ذلك صعب، لأنها لا تعرف كيف هو البحر. أزرق، بالتأكيد، لكن كيف؟

"هل يحرق مثل السماء، أم أنه بارد كالماء؟"

"حسب الظروف. أحيانًا، يحرق العينين كالثلج فى الشمس. وأحيانًا أخرى، يكون حزينًا ومعتمًا، كماء الآبار. لا يبقى على الحال نفسه دائمًا".

www.ibtesama.com

"وهل تحبه حين يكون باردًا أم حين يحرق؟"

"حين تكون هناك سحب خفيضة، ويصبح مبقعًا بظلال صفراء تتقدم عليه كجُزر كبيرة من الطحالب، هكذا أحبه".

تركز "بُوتيت كُروَا"، فتشعر على وجهها بالسُّحُب الخفيضة وهى تمر فوق البحر. لكن لا يمكنها أن تتصور كل هذا إلا حين يكون الجندى هنا. ربما لأنه قد نظر كثيرًا إلى البحر، فى الماضى، فهو نوعًا ما يخرج منه وينتشر حوله.

"البحر ليس كما هنا"، يضيف الجندى. "إنه حى، كحيوان كبير حى، يتحرك، ويقفز، ويتغير شكله ومزاجه، ويتكلم طول الوقت، ولا يبقى ثانيةً واحدة دون أن يفعل شيئًا، ومعه لا يمكن أن تشعرى بالملل".

"هل هو خطير؟"

"أحيانًا، نعم، يمسك بالناس، والسفن، ويلتهمهم، هوب! لكن ذلك فقط حين يكون غاضبًا جدًا، ومن الأفضل البقاء فى المنازل".

"سأذهب لرؤية البحر"، تقول "بُوتيت كُروَا".

ينظر إليها الجندى برهةً دون أن يقول شيئًا.

"سآخذكِ"، يقول فيما بعد.

"أهو أكبر من السماء؟"، سألت "بُوتيت كُروَا".

"هما مختلفان. وليس هناك ما هو أكبر من السماء".

www.ibtesama.com

ولأنه تكلم كثيرًا، يشعل سيجارة إنجليزية أخرى ويبدأ فى التدخين من جديد. تحب "بُوتيت كُروَا" رائحة التبغ اللطيفة. وحين يشارف على إنهاء سيجارته، يعطيها لبُوتيت كُروَا كى تأخذ بضع نفثات قبل أن يطفئها. تدخن "بُوتيت كُروَا" بالتنفس بقوة. وحين تكون الشمس حارة وأزرق السماء حارقًا، يصنع دخان السيجارة حجابًا ناعمًا للغاية، ويجعل الفراغ يُصفر فى رأسها، كأنها تسقط من أعلى الجرف.

حين أنهت "بُوتيت كُروَا" السيجارة، رمتها أمامها، فى الفراغ.

"هل تعرف الطيران؟"، سألت.

ضحك الجندى من جديد.

"ماذا تعنين بالطيران؟"

"فى السماء، مثل الطيور؟"

"أوه، لا أحد يستطيع فعل هذا".

ثم فجأةً، سمع صوت طائرة تعبر الطبقة الثانية من طبقات الجو، عاليًا جدًّا إلى حد أنه لم يكن يُرى سوى نقطة فضية عند طرف الأثر الأبيض الطويل الذى كان يقسم السماء. دوى صدى المحركات التوربينية متأخرًا فوق السهل وتجاويف السيول، كرعد بعيد.

"إنها طائرة ستراتوفورتريس، إنها عالية"، قال الجندى.

www.ibtesama.com

"إلى أين تتجه؟"

"لا أدرى".

مدت "بُوتيت كُروَا" وجهها نحو أعلى السماء، وتابعت التقدم البطىء للطائرة. اكفهر وجهها، وزُمت شفتاها، كأنها تشعر بالخوف، أو بالألم.

"كيف هو الصقر"، قالت. "حين يمر الصقر فى السماء، أحس بظله، باردًا جدًا، ويدور ببطء، الهوينى، لأن الصقر يبحث عن فريسته".

"إذن، أنتِ كالدجاج. يتلاحم حين يمر الصقر من فوقه!". كان الجندى يمزح، لكنه أحس بذلك، هو أيضًا، وجعل صوت النفاثات فى طبقة الجو العليا قلبه يخفق بسرعة أكبر.

كان يتذكر تحليق طائرة الستراتوفورتريس فوق البحر، باتجاه كوريا، لساعات طويلة؛ والأمواج فى البحر شبيهة بالتجاعيد، والسماء الناعمة الصافية زرقاء داكنة فى السمت، وزرقاء فيروزية فى الأفق، كأن الغسق لا ينتهى أبدًا. وفى عنابر الطائرة العملاقة، تتراص القنابل بجانب بعضها البعض، موت بالأطنان.

ثم ابتعدت الطائرة نحو صحرائها، ببطء، وكنست الرياح شيئًا فشيئًا أثرها الأبيض. كان الصمت الذى تبعها ثقيلاً، شبه مؤلم، وبذل الجندى جهدًا لينهض من فوق الحجر الذى كان يجلس عليه. بقى واقفًا لبرهة، وهو ينظر إلى الفتاة الصغيرة الجالسة بزاوية قائمة على الأرض الصلبة.

www.ibtesama.com

"أنا ذاهب"، قال.

"عُد غدًا"، قالت "بُوتيت كُروَا".

تردد الجندى فى أن يقول لها إنه لن يعود غدًا، ولا بعده ولا فى أى يوم آخر ربما، لأنه سيطير هو أيضًا إلى كوريا. لكنه لم يجرؤ على قول شىء، فكرر فقط مرة أخرى، بصوت أخرق:

"أنا ذاهب".

كانت "بُوتيت كُروَا" تسمع وقع خطاه وهى تبتعد فوق الدرب الترابى. ثم عادت الرياح، باردة هذه المرة، فارتعشت قليلاً تحت بطانيتها الصوفية. كانت الشمس تنزل، تقريبًا أفقية، وحرارتها تصل فى نفثات، كالنَّفَس.

الآن، هو التوقيت الذى ينحف فيه الأزرق، يُمتص. تحس "بُوتيت كُروَا" بذلك على شفتيها المتشققتين، وعلى جفنيها، وأطراف أصابعها. الأرض نفسها تصبح أقل صلابة، كأن الضوء اخترقها، وأنهكها.

تنادى "بُوتيت كُروَا" النحل من جديد، وأيضًا أصدقاءها العظايات، والسمادل المنتشية بالشمس، والحشرات الورقية، والحشرات العصوية، والنمل فى صفوفه المتراصة. تناديهم جميعًا، وهى تغنى الأغنية التى علمها لها العجوز باتى،

"يا حيوانات، يا حيوانات،

www.ibtesama.com

خذونى

خذونى

فيما تحلقون خذونى

فيما تحلقون خذونى

فى قطيعكم"

تمد يديها إلى الأمام، لتمسك بالهواء والضوء. لاتريد أن ترحل. تريد أن يبقى الجميع، أن يمكث الجميع، ولا يعودوا إلى مخابئهم.

الآن حان الوقت الذى يُحرق فيه الضوء ويؤلم، الضوء الذى ينبثق من عمق الفضاء الأزرق. لا تتحرك "بُوتيت كُروَا"، والخوف يكبر بداخلها. ومكان الشمس ثمة نجم شديد الزرقة ينظر، ونظرته تضغط على جبين "بُوتيت كُروَا". إنه يضع قناعًا من الحراشف والريش، ويأتى راقصًا، ضاربًا الأرض بقدميه. يأتى محلقًا كالصقر والطائرة، ويغطى ظله الوادى كمعطف.

إنه وحيد، سكاسوهو(*) كما يُسمى، ويمشى نحو القرية المهجورة، على طريقه الأزرق فى السماء. عينه الوحيدة تنظر إلى "بُوتيت كُروَا"، بنظرة رهيبة تُحرق وتُجمِّد فى آن واحد.

(*) سكاسوهو: هى النجمة الزرقاء وقد وردت بإحدى أساطير الهنود الحمر. وتروى الأسطورة أنه عندما ستظهر النجمة الزرقاء فى السماء فإن العالم الخامس سيتجلى. وسيكون ذلك اليوم هو يوم التطهر وسيتحقق ذلك حين ترقص النجمة الزرقاء فى الساحة وتنزع قناعها (المترجمة).

www.ibtesama.com

تعرفه "بُوتيت كُروَا" جيدًا. فهو الذى وخزها كالزنبور منذ قليل، عبر الامتداد الشاسع للسماء الخالية. كل يوم، فى التوقيت نفسه، حين تغرب الشمس وتدخل العظايات فى شقوق الصخور، ويثقل الذباب فيحط فى أى مكان، يأتى.

إنه كمحارب عملاق، واقف فى الطرف الآخر للسماء، وينظر إلى القرية بنظرته الرهيبة التى تُحرق وتُجمِّد. ينظر إلى "بُوتيت كُروَا" فى عينيها، كما لم ينظر إليها أحد من قبل.

تشعر "بُوتيت كُروَا" بالضوء الفاتح، الصافى والأزرق الذى يصل إلى عمق جسدها كالماء العذب للينابيع ويجعلها تنتشى. ضوء عذب كرياح الجنوب، التى تحمل أريج النباتات والأزهار البرية.

الآن، اليوم، لم يعد النجم ساكنًا. يتقدم ببطء عبر السماء، محلقًا، طائرًا، كجريان نهر قوى. نظرته المنيرة لا تحيد عن عينى "بُوتيت كُروَا"، وتلتمع بوميض باهر للغاية إلى حد أن يكون عليها أن تحمى عينيها بيديها الاثنتين.

يخفق قلب "بُوتيت كُروَا" بسرعة كبيرة. فهى لم تر شيئًا أكثر جمالاً منه.

"من أنت؟"، تصرخ.

لكن المحارب لا يجيب. ساكاسوهو واقف فوق النتوء الحجرى، أمامها.

www.ibtesama.com

فجأة، أدركت "بُوتيت كُروَا" أنه النجمة الصغيرة التى تعيش فى السماء، ونزلت إلى الأرض لترقص فى ساحة القرية.

أرادت أن تنهض وتذهب ركضًا، لكن الضوء الذى يخرج من عين ساكاسوهو موجود بداخلها ويمنعها من الحركة. وحين سيبدأ المحارب رقصته، سيبدأ الرجال والنساء والأطفال فى الموت فى العالم. تدور الطائرات ببطء فى السماء، عاليًا جدًا إلى حد أن تُسمع بالكاد، لكنها تبحث عن فرائسها. النار والموت موجودان فى كل مكان، حول النتوء الجبلى، والبحر نفسه يشتعل كبحيرة من القار. والقرى تشتعل بضوء قوى ينبثق من عمق السماء. تسمع "بُوتيت كُروَا" هزيم الرعد، والانفجارات، وصرخات الأطفال والكلاب، الذين سيموتون. تدور الرياح حول نفسها بكل قواها، ولم تعد أبدًا رقصةً، بل شيئًا يشبه ركض حصان مجنون.

تضع "بُوتيت كُروَا" يديها أمام عينيها. لماذا يريد البشر هذا؟ لكن الوقت قد تأخر، ربما، ولن يعود عملاق النجمة الزرقاء إلى السماء. لقد جاء ليرقص فى ساحة القرية، كما قال العجوز باتى أنه فعل فى هوتّفيلا، قبل الحرب الكبرى.

العملاق ساكاسوهو متردد، واقف أمام الجرف، كأنه لا يجرؤ على الدخول. ينظر إلى "بُوتيت كُروَا" وضوء نظرته يخترق رأسها ويحرق بشدة داخلها إلى حد يفوق احتمالها. صرخت، وقفت بوثبة واحدة،

www.ibtesama.com

وبقيت ساكنة، ذراعاها مرميتان إلى الوراء، ونفَسها متوقف فى حلقها، وقلبها منقبض، لأنها رأت لتوها، فجأةً، السماء الزرقاء أمامها، وكأن العين الوحيدة للعملاق انفتحت عن آخرها.

لم تقل "بُوتيت كُروَا" شيئًا. تملأ الدموع جفنيها، لأن ضوء الشمس والأزرق بالغ القوة. ترنحت على حافة جرف الأرض الصلبة، ورأت الأفق يدور الهوينى من حولها، تمامًا كما قال الجندى، السهل الأصفر، والأودية القاتمة، والدروب الحمراء، والخيالات الضخمة للهضاب. ثم انطلقت، راحت تركض فى شوارع القرية المهجورة، فى الظل والضوء، تحت السماء، دون أن تطلق صيحة واحدة.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الرُّعَـاة

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

ـ ١ ـ

كان الطريق المستقيم والطويل يعبر بلد الكثبان. لم يكن هنا سوى الرمال، وشجيرات الشوك، والأعشاب الجافة التى تتقصف تحت الأقدام، وفوق كل هذا، سماء الليل الكبيرة السوداء. فى الرياح، كانت كل الأصوات تُسمع بوضوح، أصوات الليل الغامضة المخيفة نوعًا ما. نوعٌ من الطقطقات الصغيرة، التى تصدرها حجارة تنكمش، صرير الرمال تحت نعال الأحذية، وتكسر الغصون الصغيرة. كانت الأرض تبدو شاسعة بسبب تلك الأصوات، وبسبب السماء السوداء أيضًا والنجوم التى تلتمع ببريق ثابت. وكان الوقت يبدو شاسعًا، بطيئًا للغاية، مع تسارع غير مفهوم، فى لحظات معينة، ودُوار، كما لو كنا نعبر تيار نهر. كنا نمشى فى الفضاء، كالمعلقين فى الفراغ وسط كوكبات النجوم.

كانت أصوات الحشرات تأتى من كل ناحية، صريرٌ متواصل يتردد صداه فى السماء. ربما كان

www.ibtesama.com

صوت النجوم، والرسائل الصَّارَّة القادمة من الفراغ. لم يكن ثمة ضوء على الأرض، فقط ضوء اليراعات الذى يتعرج فوق الطريق. وفى الليل الأسود كعمق البحر، كانت الحدقات الواسعة تبحث عن أدنى مصدر للضوء.

كان كل شىء كامنًا. وحيوانات الصحراء تركض بين الكثبان: أرانب الرمال البرية، والجرذان، والثعابين. كانت الرياح تهب أحيانًا من البحر، فتُسمع زمجرة الأمواج المتدفقة على الشاطئ. والرياح تدفع الكثبان. فى الليل، كانت تتلألأ بوهن، شبيهةً بأشرعة السفن. كانت الرياح تهب، وتثير سُحبًا من الرمل تحرق بشدة الوجه واليدين.

لم يكن هناك أحد، ورغم ذلك كنا نشعر بوجود الحياة، والنظرات، فى كل مكان. كان ذلك شبيهًا بوجود المرء ليلاً فى مدينة كبيرة نائمة، وهو يمشى أمام كل تلك النوافذ التى توارى الناس.

كانت الأصوات تردد صداها كلها معًا. كانت أقوى فى الليل، وأكثر دقة. وكان البرد يجعل الأرض ترتجف، وتُردد الصدى؛ امتدادات رمل كبيرة مدندنة، وبلاطات حجر كبيرة متكلمة. كانت الحشرات تَصِر، وأيضًا العقارب، وأمهات أربع وأربعين، وثعابين الصحراء. ومن حين إلى آخر كان يُسمع البحر، والزمجرة المخنوقة لأمواج المحيط التى كانت تأتى لتنهار فوق رمال الشاطئ. كانت الرياح تحمل صوت البحر، إلى هنا، فى نفثات، مع قليل من الرذاذ.

www.ibtesama.com

أين نحن الآن؟ لم تكن هناك أية نقاط استدلال. ليس سوى الكثبان، صفوف من الكثبان، والامتداد غير المرئى للرمال حيث كانت ترتجف باقات العشب، وتفرقع أوراق الشجيرات، جميعًا، على مدى البصر. رغم ذلك، غير بعيد، كانت هناك بلا شك المنازل، والمدينة المسطحة، والفوانيس، ومصابيح الشاحنات. لكن لم يعد يُعرف الآن أين هى. فالرياح الباردة كنست كل شىء، غسلت كل شىء، وتآكل كل شىء بحبيباتها الرملية.

كانت السماء السوداء الكبيرة فى غاية النعومة، هوية، تشقها أضواء صغيرة بعيدة. وكان البرد هو من يحكم هذا البلد، وهو من كان صوته مسموعًا.

ربما أينما ذهبنا، فلن نستطيع العودة، أبدًا، إلى الوراء. ربما كان للرياح أن تغطى آثاركم، ببساطة، برملها، وتُغلق كل الممرات خلفكم. ثم تتحرك الكثبان ببطء، بطريقة غير محسوسة، كأمواج البحر العكسية الطويلة. وكان للَّيل أن يلفكم. يفرغ رءوسكم، ويجعلكم تدورون فى حلقات مفرغة. ويصل الصخب المزمجر للبحر كأنه آتٍ عبر الضباب. يبتعد صرير الحشرات، يعود، يذهب من جديد، وينبثق من كل ناحية فى آن واحد، وكان للأرض بأكملها والسماء أن تصرخا.

كم كان الليل طويلاً فى هذا البلد! كان طويلاً جدًا إلى حد أننا نسينا كيف كان يبدو فى النهار. وكانت النجوم تدور ببطء فى الفراغ، وتنزل نحو الأفق. أحيانًا، كان نيزك يخط السماء. يتسلل فوق

www.ibtesama.com

النجوم الأخرى، بسرعة خاطفة، ثم ينطفئ. كانت اليراعات أيضًا تفر فى الرياح، وتتشبث بأغصان الدغل. تبقى هناك، وهى تومض ببطونها. أعلى الكثبان، كانت الصحراء تُرى وهى تشتعل وتنطفئ باستمرار، من كل النواحى.

ربما لهذا السبب كنا نحس بذلك الحضور، بتلك النظرات. فضلاً عن ذلك، فقد كان هناك كل تلك الأصوات، الأصوات الغريبة الخافتة التى كانت تعيش حولنا. كانت الحيوانات الصغيرة تهرول إلى تجاويف الرمال، وتدخل جحورها. وكنا فى بيتها، فى بلدها. كانت تطلق إشارات الإنذار الخاصة بها. وطيور السُبَد تطير من دغل إلى آخر. واليرابيع تتبع ممراتها الصغيرة، بين بلاطات الحجر الباردة، فيما كان الحنش يتسلل بجسده. كانوا هم، السكان، يركضون، يتوقفون، قلوبهم خافقة، وأعناقهم منتصبة، وأعينهم شاخصة. كان هذا عالمهم.

قبل الفجر بقليل، حين بدأت السماء تتحول إلى الرمادى شيئًا فشيئًا، بدأ كلبٌ فى النباح، فردت عليه الكلاب البرية. أطلقت صرخات طويلة حادة، ورءوسها مقلوبة إلى الوراء. كان ذلك غريبًا، ويجعل البشرة ترتعش.

حينها توقفت أصوات الحشرات. ولم تعد الصخور تطقطق. كان الضباب يصّاعد من البحر، متبعًا المجرى الجاف للسيول. يمر ببطء فوق الكثبان، ويتمدد كالدخان.

www.ibtesama.com

وكانت النجوم تُمحى من السماء. والضوء يصنع بقعة، إلى الشرق، فوق الصحراء. بدأت الأرض تتجلى، غير جميلة بالمرة، بل رمادية وباهتة، لأنها كانت لا تزال نائمة. وكانت الكلاب البرية هائمة على وجهها بين الكثبان، بحثًا عن الطعام. كلاب صغيرة نحيفة بظهور مقوسة وأرجل طويلة. وآذانها مدببة كآذان الثعالب.

تزايد الضوء، فأصبح ممكنًا تمييز الأشكال. كان ثمة سهل، تنتشر عليه صخور محروقة، وبعض أكواخ الآجر بأسقف من سعف النخيل. كانت الأكواخ متهدمة، وعلى الأرجح مهجورة منذ شهور، باستثناء كوخ واحد يسكنه الأطفال. وكان سهل الصخور الكبيرة والكثبان يحيط بالمنازل. وخلف الكثبان، البحر. وبعض الممرات الضيقة تعبر السهل؛ وقد رسمتها أقدام الأطفال وحوافر الماعز.

حين أشرقت الشمس فوق الأرض، بعيدًا، ناحية الشرق، تألق السهل فجأةً بضوئها. وتلألأت رمال الكثبان كغبار النحاس. كانت السماء ناعمة وشفافة كالماء. فاقتربت الكلاب البرية من المنازل وقطيع الماعز.

كان هذا عالمها، فوق السهل الكبير للصخور والرمال.

كان شخصٌ ما قادمًا على طول الممرات الضيقة، بين الكثبان. كان فتًى يلبس كأهل المدينة. ويحمل على كتفه سترة من الكتان مجعدةً قليلاً، وحذاؤه من خيوط

www.ibtesama.com

الكتان مغطى بالغبار. يتوقف أحيانًا مترددًا، لأن الممرات كانت تتفرع. ميز صوت البحر، عن يساره، فاستأنف السير. كانت الشمس فوق الأفق عاليًا، لكنه لم يكن يشعر بحرارتها. لكن الضوء الذى كان ينعكس على الرمال أجبره على إغماض عينيه. لم يكن وجهه معتادًا على الشمس؛ فاحمرَّ فى بعض الأماكن، فى جبينه، وبالأخص فى أنفه، حيث بدأت بشرته تزول. لم يكن الفتى معتادًا أيضًا على المشى فى الرمال؛ وكان ذلك واضحًا من الطريقة التى كان يعقف بها كاحليه وهو يمشى فوق منحدرات الكثبان.

حين وصل أمام جدار الحجارة الجافة، توقف الفتى. كان جدارًا طويلاً يقطع الطريق إلى السهل. عند طرفيه، كان الجدار يختفى تحت الكثبان. وكان لابد من القيام بدورة كبيرة للعثور على ممر. تردد الفتى. نظر إلى الوراء، وهو يفكر أنه ربما عليه أن يعود أدراجه.

عندئذ سمع ضوضاء أصوات. كانت قادمة من الناحية الأخرى للجدار، صرخات مخنوقة، ونداءات. كانت أصوات أطفال. حملتها الرياح فوق السور، خيالية نوعًا ما، ممتزجة بزمجرة البحر. بدأت الكلاب البرية فى النباح بشكل أقوى، لأنها أحست بحضور الوافد الجديد.

تسلق الفتى السور ونظر من الناحية الأخرى. لكنه لم ير الأطفال. وفى تلك الناحية من الجدار، كان لا يزال سهل الصخور نفسه، الشجيرات نفسها، وفى البعيد، الخط الناعم للكثبان.

www.ibtesama.com

كان الفتى يهفو بشدة إلى الذهاب إلى هناك. كان ثمة العديد من الآثار على الأرض، والممرات، وصخور وسط الأجمات تشير إلى ممر العبور. وفوق الصخور، كانت جزيئات الميكا تلتمع فى الشمس.

أغرى ذلك المكان الفتى. فقفز من الجدار وأحس بانه أكثر خفة، وأكثر حرية. سمع ضوضاء البحر والرياح، ورأى التجاويف التى كانت تعيش فيها العظايات، والأدغال التى تبنى الطيور فيها أعشاشها.

راح يمشى فوق سهل الصخور. هنا، كانت الشجيرات أعلى. وبعضها كان يحمل ثمرات عنبية حمراء.

فجأةً، توقف، لأنه سمع بالقرب منه:

"فررت ت! فررت ت!"

صوتٌ غريب، كأن أحدًا كان يرمى بحصيات صغيرة على الأرض. لكن لم يظهر أحد.

استأنف الفتى السير. اتبع ممرًا صغيرًا ضيقًا كان يؤدى إلى مجموعة من الصخور، فى قلب منطقة الحجارة الجافة.

سمع، مرةً ثانيةً، بالقرب منه:

"فررت ت! فررت ت!"

كان ذلك يأتى الآن، من الوراء. لكنه لم ير سوى السور، والأدغال، والكثبان. ولا أحد.

لكن الفتى أحس بأن أحدًا ما ينظر إليه. وكان ذلك يأتى من كل الاتجاهات فى آن واحد، كانت نظرة

www.ibtesama.com

مُلحة ترقبه، وتتبع كل حركة من حركاته. كان يُنظر إليه هكذا منذ مدة طويلة، لكن الفتى لم ينتبه لذلك إلا لتوه. لم يكن خائفًا؛ لأنه كان فى عز النهار، فضلاً عن أنه لم يكن فى تلك النظرة ما يخيف.

ولكى يرى ما سيحدث، قرفص الفتى قرب دغل وانتظر، كأنه يبحث عن شىءٍ ما فى الأرض. بعد دقيقة واحدة، سمع صوت ركضٍ. وقف، فرأى ظلالاً مختبئة بين الشجيرات، وسمع ضحكات مخنوقة.

عندئذ أخرج من جيبه مرآة صغيرة، ووجه الانعكاس نحو الشجيرات. حلقت الدائرة البيضاء الصغيرة، وبدت كأنها تُشعل أوراق الأشجار الجافة.

فجأةً، وسط الأغصان، أضاءت الحلقة البيضاء وجهًا، وجعلت زوج عيون يلتمع. أبقى الفتى انعكاس الشمس على الوجه، إلى أن نهض المجهول، مبهورًا بالضوء.

نهض أربعتهم معًا: كانوا أطفالاً. نظر إليهم الفتى باستغراب. كانوا صغارًا، حفاة، ويرتدون ثيابًا من الكتان البالى. كان لوجوههم لون النحاس، وشعورهم أيضًا كانت بلون النحاس تنزل فى خصل دائرية عريضة. فى الوسط، كانت هناك فتاة لها مظهر شرس، تلبس قميصًا أزرق واسعًا للغاية عليها. كان أكبر الأطفال الأربعة يحمل فى يده اليمنى حزامًا أخضر، كان يبدو أنه مصنوع من القش المضفور.

ولأن الفتى بقى ساكنًا، اقترب الأطفال. كانوا يكلمون بعضهم البعض بصوت خفيض ويضحكون،

www.ibtesama.com

لكن الفتى لم يفهم ما كانوا يقولون. سألهم من أين أتوا، ومن هم، لكن الأطفال هزوا رءوسهم وواصلوا الضحك.

قال الفتى، بصوت مبحوح قليلاً:

"اسمى - جاسبار".

نظر الأطفال إلى بعضهم البعض وانفجروا بالضحك. كانوا يكررون:

"جش با! جش با!"

هكذا، بأصوات مرتفعة. كانوا يضحكون كأنهم لم يسمعوا أبدًا شيئًا مضحكًا أكثر من هذا.

"ما هذا؟"، قال جاسبار. أخذ الحزام الأخضر الذى كان يحمله أكبر الأطفال. انحنى الولد وتناول حجرًا صغيرًا من الأرض. وضعه فى تجويف الحزام وقام بتدويره فوق رأسه. فتح يده، فاسترخى الحزام وانطلق الحجر بسرعة عاليًا فى السماء وهو يصفر. حاول جاسبار أن يتبعه بعينيه، لكن الحجر اختفى فى الهواء. وحين سقط على الأرض، على بُعد عشرين مترًا، كشفت سحابة صغيرة من الغبار عن المكان الذى ضربه.

صرخ بقية الأطفال وضربوا بأيديهم. مد أكبرهم الحزام إلى جاسبار، وقال:

"جوم!"

اختار الفتى بدوره حجرًا من الأرض ووضعه فى حلقة المقلاع. لكنه لم يعرف كيف يمسك بالحزام. أراه

www.ibtesama.com

الطفل ذو الشعر نحاسى اللون كيف يُدخل طرف الحزام حول معصمه وثنى أصابع جاسبار على الطرف الثانى. ثم تراجع إلى الوراء قليلاً وقال ثانيةً:

"جوم! جوم!"

بدأ جاسبار فى تدوير ذراعه فوق رأسه. لكن الحزام كان ثقيلاً وطويلاً، وكان ذلك أقل سهولة مما كان يتصور. أدار الحزام عدة مرات، بسرعة أكبر فأكبر، وفى اللحظة التى كان يستعد فيها لفتح يده، قام بحركة خاطئة. صفرت الضفيرة وجلدت ظهره، بقوة كبيرة إلى حد أنها مزقت قميصه.

شعر جاسبار بالألم والغضب أيضًا، لكن من فرط ضحك الأطفال لم يستطع الامتناع عن الضحك، هو أيضًا. فيما كان الأطفال يضربون بأيديهم ويصرخون:

"جاش با! جاش باااا!"

بعد ذلك جلسوا على الأرض. أخرج جاسبار مرآته الصغيرة. أخذ أكبر الأطفال يلهو بانعكاس الشمس برهة، ثم نظر فى المرآة.

كان جاسبار يود معرفة أسمائهم. لكن الأطفال لم يكونوا يتكلمون لغته. كانوا يتحدثون بلغة غريبة، ذلقة ومبحوحة قليلاً، تصدر موسيقى كانت تتلاءم تمامًا مع المنظر الطبيعى للحجارة والكثبان. كانت كطقطقة الحجارة فى الليل، وفرقعة الأوراق الجافة، وصوت الرياح على الرمال.

www.ibtesama.com

وحدها الفتاة الصغيرة بقيت بعيدة. كانت تجلس على كعبيها، ركبتاها وقدماها مغطون بقميصها الأزرق الكبير. كان شعرها بلون النحاس الوردى وينزل على كتفيها فى خصل دائرية كثيفة. وكان لها عينان شديدتا السواد، مثل الأولاد، لكن أكثر لمعانًا. كان فى عينيها ضوء غريب، كابتسامة لا تريد أن تتكشف كثيرًا. أشار أكبر الأطفال إلى الفتاة الصغيرة وكرر عدة مرات:

"خاف...خاف...خاف..."

فأسماها جاسبار هكذا: "خاف". كان اسمًا يلائمها تمامًا.

كانت الشمس تسطع بقوة، الآن. أشعلت كل شراراتها على الصخور المدببة، ومضات صغيرة وامضة، كما لو كان ثمة مرايا.

كانت ضوضاء البحر قد توقفت، لأن الرياح أصبحت تهب من الأراضى، من الصحراء. بقى الأطفال جالسين. كانوا ينظرون صوب الكثبان وهم يقطبون أعينهم. وبدا أنهم كانوا ينتظرون.

تساءل جاسبار كيف يمكنهم العيش هنا، بعيدًا عن المدينة. كان يود أن يطرح أسئلة على أكبر الأولاد، لكن ذلك لم يكن ممكنًا. وحتى لو كانوا يتكلمون اللغة نفسها، فلم يكن جاسبار ليجرؤ على طرح أسئلة عليه. هكذا هو الأمر. فقد كان مكانًا لا ينبغى فيه طرح الأسئلة.

www.ibtesama.com

حين أصبحت الشمس فى أعلى السماء، ذهب الأطفال للالتحاق بالقطيع. دون أن يقولوا شيئًا لجاسبار، مضوا باتجاه الصخور الكبيرة المحروقة، إلى هناك، شرقًا، وهم يسيرون فى صف الواحد خلف الآخر على طول الممر الضيق.

كان جاسبار ينظر إليهم وهم يذهبون، وهو جالس فوق كومة من الحجارة. كان يتساءل عما يجب أن يفعل. ربما كان يجب العودة إلى الوراء، والاتجاه نحو الطريق، نحو منازل المدينة، نحو الناس الذين كانوا ينتظرونه، هناك، على الناحية الأخرى للسور والكثبان.

حين ابتعد الأطفال، وأصبحوا بحجم حشرات سوداء فوق سهل الصخور، التفت أكبرهم نحو جاسبار. وقام بتدوير مقلاعه العشبى فوق رأسه. لم ير جاسبار أى شىء قادم، لكنه سمع حفيفًا قرب أذنه، ثم ضرب الحجر خلفه. اعتدل، أخرج مرآته الصغيرة وأرسل انعكاسًا ضوئيًا نحو الأطفال.

"هاا-هوو-هاا!"

صرخ الأطفال بأصواتهم الحادة. كانوا يقومون بإشارات بأيديهم. وحدها الصغيرة "خاف" واصلت السير على طول الممر دون أن تلتفت.

قفز جاسبار وراح يركض بكل قواه عبر السهل، وهو يقفز فوق الحجارة والأدغال. وفى ثوان قليلة لحق بالأطفال، وواصلوا طريقهم معًا.

www.ibtesama.com

كان الجو شديد الحرارة. فتح جاسبار قميصه وشمر كُميه. وليحمى نفسه من الشمس، وضع سترة الكتان فوق رأسه. كانت أسراب البعوض الصغير تجتاز الهواء الحارق وتطن حول شعر الأطفال. وكانت الشمس تُمدد الحجر وتجعل أغصان الشجيرات تفرقع. كانت السماء فى منتهى الصفاء، لكن كان لها اللون الشاحب لغاز مفرط السخونة.

كان جاسبار يمشى خلف أكبر الأطفال، وعيناه شبه مغمضتين بسبب الضوء. لم يكن أحد يتكلم. فالحرارة جففت الحلوق. وكان جاسبار يتنفس من فمه، وحلقه مؤلم إلى حد أنه اختنق. توقف وقال للكبير:

"آنا عطشان..."

كرر ذلك عدة مرات وهو يشير إلى حلقه. هز الولد رأسه. ربما لم يفهمه. لاحظ جاسبار أن الأطفال لم يعودوا كما كانوا منذ قليل. الآن أصبحت وجوههم مكفهرة. وبشرة خدودهم حمراء داكنة، بلون يشبه التراب. أعينهم أيضًا كانت داكنة، وتلتمع ببريق معدنى قاس.

اقتربت الصغيرة "خاف". فتشت فى جيوب قميصها الأزرق، وأخرجت منها بذورًا مدتها لجاسبار. كانت بذورًا تشبه الفول، خضراء ومغبرة. ما إن وضع جاسبار واحدة فى فمه، حتى حرقته كالفلفل، وفورا تبلل حلقه وأنفه.

أشار أكبر الأطفال إلى البذور وقال:

www.ibtesama.com

"لولا".

استأنفوا سيرهم، واجتازوا سلسلة أولى من التلال. من الناحية الأخرى، كان ثمة سهل مطابق تمامًا للسهل الذى انطلقوا منه. كان سهلاً كبيرًا من الصخور، نما العشب فى مركزه.

هنا كان القطيع يرعى.

كان هناك إجمالاً حوالى عشرة خرفان سوداء، وبضعة ماعز، وتيس كبير أسود يقف أبعد قليلاً. توقف جاسبار ليستريح، لكن الأطفال لم ينتظروه. نزلوا ركضًا المنحدر المؤدى إلى السهل. كانوا يطلقون صيحات غريبة،

"هَوا! ها هُوا!"

كالنباح. ثم صفروا بين أصابعهم.

نهضت الكلاب وردت عليهم:

"هَوا هَوا! هَوا! هَوا"

ارتج التيس الكبير وضرب الأرض بحافريه. ثم التحق بالقطيع، وابتعدت الحيوانات كلها. بدأت سحابة من الغبار تدور حول القطيع. كانت كلابًا برية ترسم حلقات سريعة. كان التيس يدور معها فى آن واحد. رأسه مطأطئة، وطرفا قرنيه الطويلين مشحوذان.

كان الأطفال يقتربون وهم ينبحون ويصفرون. أدار أكبرهم مقلاعه العشبى. وكل مرة كان يفتح فيها

www.ibtesama.com

يده، كان حجر يضرب حيوانًا من القطيع. كان الأطفال يركضون ويحركون أذرعهم، دون أن يتوقفوا عن الصراخ:

"ها! هاوا! هاواب!"

وحين تجمع القطيع حول التيس، أبعد الأطفال الكلاب بضربات حجارة. نزل جاسبار المنحدر بدوره. زمجر كلب برى، وكشر عن أنيابه، فراح جاسبار يدير سترته ويصرخ، هو أيضًا:

"ها! هاااا!"

لم يعد يشعر بالعطش الآن. وتلاشى تعبه. ركض فوق سهل الصخور وهو يلوح بسترته. كانت الشمس العالية فى السماء البيضاء تتوهج بعنف. وكان الهواء مترعًا بالغبار، ورائحة الخرفان والماعز تلف كل شىء، وتخترق كل شىء.

ببطء، تقدم القطيع فوق العشب الأصفر، باتجاه التلال. كانت الحيوانات ملتصقة ببعضها البعض وتصيح بأصواتها المتأوهة. فى مؤخرة القطيع، يمشى التيس بثقل، وهو يطأطئ أحيانًا قرنيه المدببين. كان أكبر الأطفال يراقبه. دون أن يتوقف، تناول حصاة وأطلق مقلاعه. نفخ التيس بغضب شديد، ثم قفز حين ضربت الحصاة ظهره.

بسيماء الجنون، واصلت الكلاب البرية الركض حول القطيع وهى تصرخ. كان الأطفال يردون عليها ويرمونها بالحجارة. وجاسبار يقلدهم؛ ووجهه رمادى

www.ibtesama.com

تمامًا من الغبار، وشعره مُلتصق من العرق. كان قد نسى حينها كل ما كان يعرفه قبل وصوله. شوارع المدينة، قاعات الدروس، المبانى الكبيرة البيضاء للمدرسة الداخلية، والمروج، اختفى كل هذا كالسراب فى الريح مفرطة السخونة للسهل الصحراوى.

كانت الشمس بالأخص السبب فى كل ما كان يحدث هنا. كانت فى منتصف السماء البيضاء، وتحتها تدور الحيوانات فى سحابتها من الغبار. وكانت الظلال السوداء للكلاب تجتاز السهل، تعود ثانيةً، وتذهب من جديد. والحوافر تدق الأرض الصلبة، فيصدر ذلك صوتًا قاصفًا ومزمجرًا كالبحر. لاتتوقف صرخات الكلاب، وأصوات الخرفان، ونداءات الأطفال وصفيرهم.

هكذا، وببطء، بدأ القطيع فى عبور السلسلة الثانية من التلال. متبعًا مجرى السيول. كانت الرمال تصعد فى الهواء محمولةً فى هبات الرياح، وتنزل نحو السهل فى زوابع.

أصبحت الوهاد أكثر ضيقًا، تحفها الأجمات الشائكة. كانت الخرفان تترك لدى مرورها كُبَّات من الصوف الأسود. وقميص جاسبار يتمزق على الأغصان. نزفت يداه، لكن الريح الساخنة أوقفت الدم على الفور. والأطفال يتسلقون التلال بلا كلل، لكن جاسبار سقط مرات عديدة وتدحرج فوق الحصى.

www.ibtesama.com

حين وصلوا إلى القمة، توقف الأطفال لينظروا. لم ير جاسبار أبدًا شيئًا بهذا الجمال. أمامهم، كان السهل والكثبان ينزلون ببطء، على دفعات، حتى حدود الأفق. كان امتدادًا كبيرًا للغاية متموجًا، بكتل كبيرة من الصخور الداكنة وكثيبات من الرمل الأحمر والأصفر. كان كل شيء بطيئًا جدًا، وهادئًا جدًا. إلى الشرق، كان جرف أبيض يمد ظله الأسود، ويشرف على السهل. بين التلال والكثبان، كان ثمة وادٍ يتعرج، نازلاً كل مستوى بدرجات. وفى أقصى الوادى، فى البعيد، بعيدًا جدًا إلى حد أنها أصبحت غير حقيقية، كانت الأرض تُرى بين التلال: تُرى بالكاد، رمادية، زرقاء، خضراء، خفيفة كالسحابة، الأرض البعيدة، سهل الماء والعشب؛ خفيفةً، ناعمةً، رهيفةً كالبحر مرئيّةً من بعيد.

هنا كانت السماء كبيرة، والضوء أجمل، وأكثر نقاء. لم يكن هناك غبار. كانت الرياح تهب بشكل متقطع، على طول الوادى، تلك الرياح المنعشة المهدئة.

كان جاسبار والأطفال ينظرون، بلا حراك، إلى السهل البعيد، وهم يشعرون بنوع من السعادة تغمر أجسادهم. كانوا يودون أن يطيروا بأسرع من النظرة وأن يحطوا هناك، فى قلب الوادى.

لم ينتظر القطيع الأطفال. نزل التيس الكبير ذو الرأس السوداء المنحدرات بسرعة واتبع الوَهْد. كفت الكلاب البرية عن النباح؛ كانت تركض خلف القطيع.

www.ibtesama.com

نظر جاسبار إلى الأطفال. واقفين فوق صخرة مائلة، كانوا يتأملون المنظر الطبيعى بلا كلام. كانت الرياح تهز ثيابهم. وأصبحت وجوههم أقل اكفهرارًا. يلتمع الضوء الأصفر على جباههم، وفى شعرهم. حتى الصغيرة "خاف" فقدت سيماءها الشرسة. وزعت على الأولاد حفنة من البذور الحريفة. مدت يدها، وأرت جاسبار الوادى الذى كان يتلألأ قرب الأفق، وقالت:

"جينًا".

واصل الأطفال الطريق، على آثار الخراف. كان جاسبار يمشى فى الخلف. وكلما كانوا ينزلون التلال، كان الوادى يختفى وراء الكثبان. لكنهم لم يعودوا بحاجة لرؤيته. كانوا يتبعون الوهد، باتجاه الشمس الطالعة.

قلَّت حرارة الجو. دون أن ينتبهوا، كان النهار قد مر. الآن أصبحت السماء ذهبية، ولم يعد الضوء ينعكس على جزيئات الميكا.

كان القطيع يتقدم الأطفال بنصف ساعة سير. وحين وصلوا إلى قمة كثيب، رأوه يصعد من الناحية الأخرى، والحجارة تنهار من خلفه.

غابت الشمس بسرعة. غسقٌ وجيز، ثم بدأ الظل يغطى الوهد. فجلس الأطفال فى تجويف وانتظروا الليل. جلس جاسبار بجانبهم. كان يشعر بعطش شديد وكان فمه متورمًا بسبب البذور الحريفة. نزع حذاءه فلاحظ أن قدميه كانتا تنزفان؛ لأن الرمل كان قد تسرب داخل الحذاء وانتزع بشرته.

www.ibtesama.com

أشعل الأطفال نارًا بالأغصان الصغيرة. ثم ذهب احد الأولاد الصغار إلى القطيع. مع حلول الليل، عاد حاملاً قربة مليئة بالحليب. شرب الأطفال، الواحد تلو الآخر. كانت الصغيرة "خاف" آخر من شرب، ثم حملت القربة إلى جاسبار. شرب جاسبار ثلاث رشفات طويلة. كان الحليب عذبًا ودافئًا، وهدأ ذلك التهاب فمه وحلقه.

حل البرد. كان يخرج من الأرض، كنفَس قبو. اقترب جاسبار من النار وتمدد على الرمال. بجانبه، كانت الصغيرة "خاف" قد نامت، فبسط جاسبار سترته الكتانية فوقها. ثم راح يستمع لأصوات الرياح، وعيناه مغمضتان. كانت تشكل مع طقطقة النار موسيقى مناسبة للنوم. في البعيد، كان يُسمع أيضًا ثغاء الماعز والخرفان.

أيقظ القلق الخفيف جاسبار. فتح عينيه، فرأى اولاً السماء السوداء المرصعة بالنجوم التى كانت تبدو قريبةً للغاية. كان البدر الأبيض يضيء كالمصباح. النار منطفئة، والأطفال نائمون. حين أدار رأسه، رأى جاسبار أكبر الأطفال واقفًا بجانبه. كان أبيل (سمع جاسبار اسمه عدة مرات أثناء أحاديث الأطفال مع بعضهم البعض) ساكنًا، ومقلاعه العشبى فى يده. وكان ضوء القمر يُنير وجهه ويلتمع فى عينيه. اعتدل جاسبار وهو يتساءل كم نام من الوقت. كانت نظرة أبيل هى ما أيقظه. كانت نظرة أبيل تقول:

"تعال معى".

www.ibtesama.com

نهض جاسبار وسار خلف الولد. كان برد الليل قارسًا، وقد أكمل ذلك إيقاظه. بعد بضع خطوات، تذكر أنه نسى حذاءه؛ لكن قدميه المتسلختين كانتا أفضل بدونه، فاستمر.

معًا، تسلقا منحدر الوهد. كانت الصخور، فى ضوء القمر، بيضاء، فاتحة الزرقة. كان جاسبار يتبع أبيل نحو قمة التل، وقلبه يخفق. لم يتساءل حتى إلى أين يأخذه. شىءٌ ما غامض كان يجتذبه، شىءٌ فى نظرة أبيل ربما، غريزةٌ كانت تقوده، وتساعده على السير حافى القدمين فوق الحجر القاطع، بلا أى صوت. أمامه، كان الطيف الممشوق لأبيل يقفز من صخرة إلى أخرى، صامتًا ومرنًا كالقط.

فى أعلى الوهد، فاجأتهما الرياح، رياح باردة تقطع الأنفاس. توقف أبيل وتفحص المنطقة. كانا فوق شىء كهضبة من الحجر. وكانت بعض الجنبات السوداء تتحرك فى الرياح. تتلألأ البلاطات الناعمة فى الضوء القمرى، تفصل بينها الشقوق.

بلا صوت، لحق جاسبار بأبيل. كان الولد الصغير يترصد. لا شىء كان يتحرك فى وجهه، عدا عينيه. ورغم الرياح التى كانت تهب، بدا لجاسبار أنه كان يسمع قلب أبيل يدق فى صدره. كان يرى السحابة الصغيرة للبخار أمام وجهه، كل مرة كان يتنفس فيها أبيل.

دون أن يشيح عينيه عن الهضبة المضاءة، تناول أبيل حصاة ووضعها فى مقلاعه العشبى. ثم، فجأةً، راح يدير الحزام فوق رأسه. كان المقلاع يدور أسرع

www.ibtesama.com

فأسرع، كمروحة طائرة. ابتعد جاسبار. كان هو أيضًا يُحدق بالهضبة، متفحصًا كل حصاة، كل شق، وكل دغل أسود. كان المقلاع يدور وهو يصدر صفيرًا متواصلاً، فى البداية خفيضًا كصراخ الرياح، ثم حادًا كصوت صفارة.

بدا أن موسيقى المقلاع كانت تملأ كل الفضاء. كانت السماء كلها تردد الصدى، والأرض، والصخور، والشجيرات، والأعشاب. وكان ذلك يصل حتى الأفق، كان صوتًا ما ينادى. ماذا كان يريد؟ لم يخفض جاسبار عينيه، ظل ينظر إلى النقطة نفسها، مباشرةً أمامه، فوق الهضبة الخيالية، وكانت عيناه تحرقانه من التعب والرغبة. كان جسد أبيل يرتعش. كأن صفير المقلاع العشبى كان يخرج منه، من فمه ومن عينيه، ليغطى الأرض ويذهب حتى السماء السوداء.

فجأةً، ظهر شخصٌ ما فوق الهضبة الحجرية. كان أرنبًا بريًا كبيرًا، بلون الرمل. كان واقفًا على رجليه، وأذناه الطويلتان منتصبتان. كانت عيناه تلتمعان كمرآتين صغيرتين وهو ينظر نحو الطفلين. ظل الأرنب البرى ساكنًا، متسمرًا على حافة بلاطة الحجر، وهو يستمع لموسيقى المقلاع العشبى.

فرقع الحزام فتمدد الأرنب البرى على الجنب، لأن الحصاة كانت قد ضربته بين عينيه تمامًا.

التفت أبيل نحو رفيقه ونظر إليه. كان وجهه منيرًا من الرضا. ركض الطفلان معًا لالتقاط الأرنب

www.ibtesama.com

البرى. أخرج أبيل سكينًا صغيرةً من جيبه، وبلا تردد قطع حلق الحيوان، ثم أمسكه من رجليه الخلفيتين ليَفرغ من دمه. أعطى الأرنب البرى لجاسبار، وبيديه الاثنتين نزع الجلد حتى الرأس. ثم شق بطنه وانتزع الأحشاء التى ألقى بها داخل أحد الشقوق.

نزلا مرةً ثانيةً باتجاه الوهد. لدى مرورهما قرب شجيرة، اختار أبيل غصنًا طويلاً قلَّمه بسكينه.

حين وصلا إلى المخيم، أيقظ أبيل الأطفال. أعادوا إشعال النار بأغصان جديدة. غرس أبيل غصنًا فى الأرنب البرى بطوله وقرفص قرب النار ليشويه. حين نضج الأرنب، قسمه أبيل بأصابعه. مد فخذًا لجاسبار واحتفظ بالأخرى لنفسه.

أكل الأطفال بسرعة، وألقوا بالعظام إلى الكلاب البرية. ثم تمددوا مرةً ثانيةً حول الجمر وناموا من جديد. بقى جاسبار بضع دقائق. عيناه مفتوحتان وهو ينظر إلى القمر الأبيض الذى كان يشبه منارة فوق الأفق.

www.ibtesama.com

ـ ٢ ـ

مرت أيام عديدة الآن والأطفال يعيشون فى جنًا. كانوا قد وصلوا إلى هنا قبيل غروب الشمس. دخلوا الوادى مع القطيع فى الوقت نفسه. فجأةً، عند منعطف الدرب، رأوا السهل الأخضر الكبير الذى كان يتألق بهدوء، فتوقفوا للحظات، دون أن يتمكنوا من الحركة، من فرط جماله.

كان جميلاً جدًا! أمامهم، كان فضاء الأعشاب العالية يتماوج فى الرياح، والأشجار تتأرجح، أشجار كثيرة فارعة، بجذوع سوداء وقواعد عريضة خضراء؛ أشجار اللوز والحور، والغار العملاق؛ كان هناك أيضًا نخيل سامق يهتز سعفه. حول السهل، كانت تلال الحجارة تمد ظلالها، وبجوار البحر، كانت كثبان الرمل بلون الذهب والنحاس. هنا وصل القطيع، وتلك كانت أرضهم.

كان الأطفال ينظرون بلا حراك إلى العشب، كأنهم لا يجرؤون على المشى فوقه. فى قلب السهل،

www.ibtesama.com

كانت بحيرة محاطة بالنخيل تلتمع كالمرآة، وأحس جاسبار باهتزاز يسرى فى جسده. التفت ونظر إلى الأطفال. كانت وجوههم مضاءة بالنور الخفيف القادم من سهل الأعشاب. لم تعد عينا الصغيرة "خاف" داكنتين؛ أصبحتا شفافتين، بلون العشب والماء.

كانت هى من انطلق أولاً. رمت صُرتها، وهى تصرخ بكل قواها بكلمة غريبة،

"مْوِيا ـ ا ـ ا ـ اا..."

وراحت تركض عبر العشب.

"إنه الماء! إنه الماء!"، فكر جاسبار. لكنه صرخ مع الآخرين الكلمة الغريبة، وبدأ يركض نحو البحيرة.

"مْوِيا! مْوِيا ـ ا ـ اا"

كان جاسبار يركض بسرعة. وكانت الأعشاب الطويلة تصفع يديه ووجهه، وتنفتح أمام جسده وهى تَصر. كان جاسبار يجرى عبر السهل، وقدماه الحافيتان تضربان الأرض المبلولة، وذراعاه تلامسان أوراق العشب القاطعة. يسمع صوت قلبه، وصرير الحشائش التى تنثنى خلفه. على بعد بضعة أمتار إلى يساره، كان أبيل أيضًا يركض بسرعة، مطلقًا صيحات. أحيانًا كان يختفى تحت الأعشاب، ثم يظهر من جديد، وهو يقفز فوق الأحجار. كان طريقاهما يتقاطعان، ويتباعدان، فيما كان بقية الأطفال يركضون خلفهما، وهم يتقافزون ليروا إلى أين يتجهان. كانوا ينادون، فيرد جاسبار:

www.ibtesama.com

"مُويا- ا- ا - اا..."

كانوا يشمون رائحة التراب المبلول، والرائحة الحريفة للعشب المهروس، ورائحة الأشجار. وكانت أنصال العشب تقطع وجوههم كالسياط، لكنهم واصلوا الركض دون التقاط أنفاسهم، وهم يصرخون دون رؤية بعضهم البعض، كانوا ينادون، فيوجهون بعضهم البعض نحو الماء.

"مُويا! مُويا!"

كان جاسبار يرى أمامه طبقة الماء، متلألئة وسط الأعشاب. كان يفكر بأنه سيصل أولاً، فيركض بسرعة أكبر. لكنه سمع صوت "خاف" خلفه. كانت تصرخ باستغاثة، كشخص تائه:

"مُويا - ا - ا - اا"

فعاد جاسبار إلى الوراء، وأخذ يبحث وسط الأعشاب. كانت صغيرةً إلى حد أنه لم يرها. وهو يسير في شكل دوائر، كان ينادى:

"مُويا!"

عثر عليها بعيدًا خلف بقية الأطفال. كانت تركض بخطى صغيرة، وهى تحمى وجهها بساعديها. لابد أنها سقطت عدة مرات، لأن قميصها وفخذيها كانوا مغطين بالتراب. حملها جاسبار ووضعها على كتفيه، وسار من جديد إلى الأمام. أصبحت هى الآن مَن يدله إلى الطريق. متشبثة بشعره، كانت تدفعه باتجاه الماء، وهى تصرخ:

www.ibtesama.com

"مُويا! مُويا ـ ا ـ ا!..."

بضع خطوات واسعة، عوض جاسبار تأخره. تجاوز الولدين الصغيرين. وصل إلى حافة الماء فى الوقت نفسه مع أبيل. سقط ثلاثتهم فى الماء البارد، لاهثين، وراحوا يشربون وهم يضحكون.

قبل حلول الليل، بنى الأطفال بيتًا. كان أبيل هو المهندس المعمارى. قطع أعواد قصب طويلة وأغصانًا. وبمساعدة بقية الأولاد، شكل الهيكل بثَنى أعواد القصب فى أقواس وربطها فى القمة بالأعشاب. ثم سد الفجوات بأغصان صغيرة. فى تلك الأثناء، كانت الصغيرة "خاف" وأوغستين، أحد الولدين الصغيرين، مقرفصين عند حافة البحيرة، ويصنعان طينًا.

حين أصبحت العجينة جاهزة، بسطوها فوق جدران البيت وهم يطبطبون براحات الأيدى. كان العمل يتقدم بسرعة، ومع غروب الشمس، كان البيت قد اكتمل. كان ككوخ الاسكيمو الثلجى على اليابسة، بجانب مفتوح للدخول. لم يستطع أبيل وجاسبار الدخول إليه إلا على أيديهم وأرجلهم، لكن الصغيرة "خاف" دخلته منتصبة. كان البيت على حافة البحيرة، فى منتصف شاطئ رملى. حول البيت، كانت الأعشاب الطويلة تشكل سورًا أخضر. من الناحية الأخرى للبحيرة كان يعيش النخل العالى. وهو الذى أمدهم بالسعف لسقف المنزل.

بعد أن شرب، ابتعد القطيع عبر سهل الأعشاب. لكن الأطفال لم يبدوا قلقين عليه. من حين إلى آخر،

www.ibtesama.com

كانوا يسمعون الثغاء القادم فى الرياح، من الناحية الأخرى للعشب.

حين حل المساء، ذهب أصغر الأولاد لحلب الماعز. شربوا جميعًا الحليب العذب والدافئ، ثم ناموا، محشورين بجانب بعضهم البعض داخل البيت. كان ضباب خفيف يصَّاعد من البحيرة، وتوقفت الرياح. كان جاسبار يشم رائحة الطين المبلول على جدران البيت. ويسمع صوت الضفادع وحشرات الليل.

هنا كانوا يعيشون منذ أيام، وهنا كان بيتهم. كانت النهارات طويلة للغاية، والسماء دائمًا شاسعة وصافية، فيما كانت الشمس تقطع فى مدة طويلة طريقها من أفق إلى آخر.

كل صباح، عند استيقاظه، كان جاسبار يرى سهل الأعشاب يرشح بقطرات صغيرة تلتمع فى الضوء. وفوق السهل، كان لتلال الحجر لون النحاس. وتبرز الصخور المدببة بوضوح فى ضوء السماء الصافية. فى جِنًّا، لم يكن هناك سُحب أبدًا باستثناء الأثر الأبيض لطائرة نفاثة- الستراتوسفير ـ تعبر، أحيانًا، ببطء. كان يمكن النظر إلى السماء لساعات، دون القيام بأى شىء. اجتاز جاسبار سهل الأعشاب، وذهب للجلوس قرب أوغستين، بجانب القطيع. كانا ينظران للتيس الأسود الكبير الذى ينتزع باقات العشب. يمشى خلفه الماعز والخرفان. للماعز رءوس طويلة كرأس الظبى، وعيون مائلة صفراء ذهبية. والذباب يطن فى الهواء بلا انتهاء.

www.ibtesama.com

علَّم أبيل جاسبار كيفية صناعة مقلاع. اختار عدة أنصال من عشبة خاصة، خضراء قاتمة، كان يسميها جوم. صنع منها ضفيرة، وهو يمسك بها بأصابع قدميه. كان ذلك صعبًا، لأن العشبة كانت قاسية وزلقة. كانت ضفيرة جاسبار تنفتح كل مرة، وكان عليه أن يعيد ضفرها من البداية. وكانت حواف قش العشبة قاطعة، فنزفت يداه. وتنزل الضفيرة فى اتساع ليتشكل الجيب الذى يوضع فيه الحجر. فى كلا طرفيها، عرض أبيل لجاسبار كيفية إغلاق الضفيرة بعقدة متينة، عززها بقشة عشب أضيق.

حين انتهت الضفيرة، تفحصها أبيل بعناية. شد على كل طرف ليختبر متانة السير. كان طويلاً ومرنًا، لكنه أقصر من سير أبيل. جربه أبيل فورًا. اختار حصاة مستديرة من الأرض ووضعها فى مركز السير. ثم أراه من جديد كيفية الإمساك بالطرفين: الأول فى حلَقة حول المعصم، والآخر بين أصابع اليد وراحتها.

بدأ يُدير المقلاع. سمع جاسبار الصفير المعتاد للسير. لكن أبيل لم يطلق الحصاة. بحركة مفاجئة ودقيقة، أوقف السير وأعطاه لجاسبار. ثم أشار له إلى جذع نخلة فى البعيد.

دوَّر جاسبار المقلاع بدوره. لكنه كان يُسرع وثقل الحجر كان يجذب جذعه. أعاد الكرَّة عدة مرات، وهو يزيد من السرعة تدريجيًا. حين سمع السير يئز فوق رأسه كمحرك طائرة، أدرك أنه وصل إلى السرعة

www.ibtesama.com

المناسبة. ببطء دار جسده على نفسه، واتجه نحو النخلة الواقفة فى الطرف الآخر للسهل. أصبح حينها واثقًا من نفسه، وأصبح المقلاع جزءًا منه. بدا له أنه يرى قوسًا كبيرًا لدائرة كان يوحده بجذع الشجرة. وفى اللحظة التى صرخ فيها أبيل:

"جيِّا!"

فتح جاسبار يده فساط سير العشب الهواء. قفزت الحصاة غير المرئية نحو السماء، وبعد ثانيتين سمع جاسبار وقع الارتطام بجذع النخلة.

ابتداءً من تلك اللحظة، أدرك جاسبار أنه لم يعد نفس الشخص. الآن، صار يرافق أكبر الأطفال لإعادة القطيع إلى منتصف السهل. كانا يذهبان معًا فى الفجر، ويعبران الأعشاب العالية. وكان أبيل يوجهه بجعل مقلاعه يصفر فوق رأسه، وجاسبار يرد بمقلاعه الخاص.

فى البعيد، فوق الكثبان الأولى، اكتشفت الكلاب البرية عنزة ضالة. كان نباحها الحاد يمزق الصمت. ركض أبيل فوق الأحجار. كان أكبر الكلاب قد هاجم العنزة. بشعره الأسود المنتفش، كان يحوم حولها، ومن حين إلى آخر، يهاجمها وهو يزمجر. تراجعت العنزة إلى الوراء وهى تقدم قرنيها؛ لكن قليلاً من الدم كان يسيل من عنقها.

حين وصل أبيل وجاسبار، فرت بقية الكلاب. لكن الكلب ذا الشعر الأسود انقلب عليهما. كان لعاب

www.ibtesama.com

شدقيه يسيل وعيناه تلتمعان بالغضب. بسرعة، عبأ أبيل مقلاعه بحجر قاطع ودوره. لكن الكلب البرى كان يعرف صوت المقلاع، وحين انطلق الحجر، قام بالقفز جانبًا وتفاداه. ضرب الحجر الأرض. فهاجم الكلب. بخطوة واحدة قفز فوق الولد الصغير. صرخ أبيل بشىء ما فهمه جاسبار على الفور. بدوره عبأ مقلاعه بحجر مدبب وأداره بكل قواه. توقف الكلب الأسود والتفت نحو جاسبار وهو يزمجر. ضربه الحجر المدبب فى رأسه وكسر جمجمته. ركض جاسبار نحو أبيل وساعده على المشى، لأنه كان يرتجف فوق ساقيه. شد أبيل بقوة على ذراع جاسبار، ومعًا أعادا العنزة إلى القطيع. وفيما كانا يبتعدان، التفت جاسبار فرأى الكلاب البرية وهى تلتهم جسد الكلب الأسود.

كانت النهارات تمر هكذا، نهارات كان يمكن من طولها أن تكون شهورًا. لم يعد جاسبار يتذكر جيدًا ما عرفه قبل أن يصلوا إلى هنا، إلى جِنًّا. أحيانًا كان يفكر بشوارع المدينة، ذات الأسماء الغريبة، وبالسيارات والشاحنات. كانت الصغيرة "خاف" تحب كثيرًا أن يقلد لها صوت السيارات، خاصة السيارات الأمريكية الكبيرة التى تسير بسرعة فائقة على الطرقات وهى تفجر أبواقها:

إيييييااااااووووو!

كانت تضحك كثيرًا أيضًا بسبب أنف جاسبار. كانت الشمس قد أحرقته، فتقشرت بشرته فى قشور صغيرة. وحين كان جاسبار يجلس أمام المنزل ويُخرج

www.ibtesama.com

مرآته الصغيرة من جيبه، كانت تجلس بجانبه وتضحك مكررة كلمة غريبة:

"زيزاى! زيزاى!"

فكان بقية الأطفال يضحكون ويكررون، هم أيضًا:

"زيزاى!"

انتهى جاسبار بفهم الكلمة. ذات يوم، أومأت له الصغيرة "خاف" بأن يتبعها. بلا صوت، مشت حتى صخرة مسطحة، فى الرمال، قرب النخيل. توقفت وأرت شيئًا لجاسبار، فوق الصخرة. عظاية طويلة رمادية كان جلدها يتقشر فى الشمس.

"زيزاى!"، قالت. ولمست أنف جاسبار وهى تضحك.

الآن لم تعد الفتاة الصغيرة تشعر أبدًا بالخوف. أصبحت تحب جاسبار، ربما لأنه لم يكن يعرف الكلام، أو بسبب أنفه شديد الاحمرار.

فى الليل، حين كان البرد يصعد من الأرض والبحيرة، كانت تعبر فوق أجساد بقية الأطفال النائمين وتذهب لتتكور قرب جاسبار. كان جاسبار يتظاهر بأنه لم يستيقظ، ويبقى مدة طويلة بلا حراك، إلى أن يصبح نفس الفتاة الصغيرة منتظمًا لأنها غطت فى النوم. عندئذ كان يغطيها بسترته الكتانية وينام هو أيضًا.

www.ibtesama.com

الآن، وقد أصبح اثنان يقومان بالصيد، أصبح الأطفال يأكلون حتى الشبع. كان الطعام أرانب الصحراء البرية التى يصطادانها عند حدود الكثبان، أو التى تغامر بالمجىء عند حافة البحيرة. أو حجل رمادى يذهبان بحثًا عنه مع حلول الليل وسط الأعشاب العالية. كان يطير فى أسراب فوق السهل، ثم ينتشر فوق الصخور المصفرة. هناك أيضا طيور السَّمان التى تحلق بارتفاع العشب، وكان يجب وضع حجرين أو ثلاثة فى المقلاع للإطاحة بها. كان جاسبار يحب الطيور، ويأسف لقتلها. وكان يفضل تلك الطيور الرمادية الصغيرة ذات الأرجل الطويلة التى تفر راكضة فى الرمال، وهى تطلق صيحات غريبة حادة:

"كورلييييى! كورلييييى! كورلييييى!"

كانا يأتيان بالطيور إلى الصغيرة "خاف" التى كانت تنتف ريشها. ثم تغطيها بالطين وتضعها لتنضج فى النار.

كان أبيل وجاسبار يصطادان معًا دائمًا. أحيانًا كان أبيل يوقظ صديقه، دون أن يصدر أى صوت، كما فى المرة الأولى، بالنظر إليه فقط. ويفتح جاسبار عينيه، ينهض بدوره ويشد مقلاع العشب فى قبضته. يذهبان واحدًا وراء الآخر عبر العشب العالى، فى الضوء الرمادى للشفق. يتوقف أبيل بين الحين والحين لينصت. والرياح تمر فوق العشب حاملة الأصوات الرقيقة للحياة، والروائح. ينصت أبيل ثم يغير الاتجاه قليلاً. لأن الأصوات أصبحت أكثر وضوحًا. الأصوات

www.ibtesama.com

الصاخبة لطيور الزرزور فى السماء، هديل طيور الوَرشان، التى كان يجب تمييزها عن أصوات الحشرات وصرير الأعشاب. يتسلل الولدان عبر الأعشاب العالية كثعبانين، بلا صوت. كلٌّ منهما يمسك بمقلاعه المعبأ، وبحجر فى يده اليسرى. وحين يصلان إلى المكان الذى تقبع فيه الطيور، يبتعدان عن بعضهما، ويقفان وهما يُدوِّران سيريهما. فجأةً، كانت طيور الزرزور تطير، تنبثق فى السماء. ويفتح الولدان، الواحد تلو الآخر، اليد اليمنَى، فيقتل الحجر المُصَفر الطيور.

حين يعودان إلى البيت، يكون الأطفال قد أشعلوا النار، وتكون الصغيرة "خاف" قد أعدت أحواض الماء. كانوا يأكلون الطيور معًا، فيما تظهر الشمس فوق التلال، فى الطرف الآخر لجنًّا.

فى الصباح، يكون ماء البحيرة بلون المعدن. ويجرى البعوض وعناكب الماء على السطح. كان جاسبار يرافق الفتاة الصغيرة وهى ذاهبة لحلب الماعِز. يساعدها بإمساك الحيوانات، فيما تُفرغ هى ضروعها فى قِرب كبيرة. كانت تقوم بذلك بهدوء، دون أن ترفع رأسها، وهى تدندن أغنية بلغتها الغريبة نوعًا ما. ثم يعودان إلى المنزل حاملين الحليب الدافئ لبقية الأطفال.

كان الأخوان الصغيران (كان جاسبار يظن أن اسميهما أوغستين وأنطوان، لكنه لم يكن متأكدًا تمامًا

www.ibtesama.com

من ذلك) يصطحبانه لرؤية الفخاخ. كانت على الجانب الآخر للبحيرة، فى المكان الذى تبدأ عنده السبخة. على طريق الأرانب البرية، كان أنطوان قد نصب فخاخًا مصنوعة من قش العشب المضفور، مربوطة إلى أغصان صغيرة منحنية. أحيانًا كانوا يعثرون على أرنب مخنوق، لكن فى معظم الأحيان، تكون الأربطة منزوعة. أو يعثرون على جرذان كان لابد من رميها بعيدًا. أحيانًا أيضًا تكون الكلاب البرية قد مرت قبلهم والتهمت الصيد.

بمساعدة أنطوان، كان جاسبار قد حفر حفرة للإمساك بثعلب. غطى الحفرة بالأغصان الصغيرة والتراب. ثم دعك الطريق المؤدى إلى الحفرة بجلد طازج لأرنب برى. بقى الفخ كما هو عدة ليال، لكنه ذات صباح، عاد حاملاً شيئًا فى قميصه. حين فتح صُرته، رأى الأطفال ثعلبًا صغيرًا كان يطرف بعينيه فى ضوء الشمس. حمله جاسبار من جلد رقبته كالقط وأعطاه للصغيرة "خاف". فى البداية، خافا قليلاً من بعضهما البعض، لكنها أعطته يشرب حليب الماعز فى راحة يدها فأصبحا صديقين حميمين. كان الثعلب يُدعى ميم.

فى جِنًا، لم يكن الوقت يمر بنفس الطريقة التى يمر بها فى أماكن أخرى. ربما حتى الأيام لم تكن تمر بالمرة. كان ثمة الليالى، والنهارات، والشمس التى تصعد ببطء فى السماء الزرقاء، والظلال التى تصغر، ثم تتمدد فوق الأرض، لكن لم يكن لذلك أهمية. لم

www.ibtesama.com

يكن جاسبار يهتم بذلك. كان لديه انطباع أن نفس النهار كان يبدأ دائمًا من جديد، نهار طويل جدًا جدًا ولن ينتهى أبدًا.

لم تكن لوادى جنًّا نهاية، ولا هى أيضًا. لا نهاية لاستكشافها. وكان يُعثر فيها باستمرار على أماكن جديدة لم تطأها قدم من قبل. فى الجانب الآخر للبحيرة، مثلاً، كانت هناك منطقة للعشب الأصفر القصير، ومكان كالسبخة حيث ينمو البردى. كان الأطفال يذهبون إلى هناك لقطع أعواد القصب للصغيرة "خاف" لأنها تريد ضفر سلال.

توقفوا على حافة السبخة، ونظر جاسبار إلى الماء الذى كان يتلألأ بين أعواد القصب. كانت بعض اليعاسيب تطير على مستوى الماء، راسمة آثارًا خفيفة. والشمس تنعكس بقوة، والهواء ثقيل. والبعوض يتراقص فى الضوء حول شعر الأطفال. وفيما كان أوغستين وأنطوان يقطعان أعواد القصب، كان جاسبار يتقدم داخل السبخة. كان يمشى ببطء وهو يُبعد النباتات، ويتحسس الوحل بقدميه العاريتين. بعد فترة قصيرة وصل الماء حتى خصره. كان ماءً باردًا وهادئًا، فأحس جاسبار بإحساس جميل. واصل السير داخل السبخة مدة طويلة، ثم فجأةً، بعيدًا أمامه، رأى ذلك الطائر الأبيض الكبير الذى كان يعوم على سطح الماء. كان ريشه يشكل بقعة مبهرة فوق الماء الرمادى للسبخة. حين اقترب جاسبار منه، وقف الطائر، رفرف وابتعد بضعة أمتار.

www.ibtesama.com

لم يكن جاسبار قد رأى أبدًا طائرًا بذلك الجمال. كان يلتمع كزبَد البحر، وسط الأعشاب وأعواد القصب الرمادية. لكن جاسبار كان يود أن يناديه، أن يكلمه، لكنه لم يرد إخافته. من حين إلى آخر، كان الطائر الأبيض يتوقف وينظر إلى جاسبار. ثم يطير قليلاً، غير مبال، لأن السبخة كانت ملكه وكان يريد البقاء على انفراد.

ظل جاسبار مدة طويلة ساكنًا فى الماء وهو ينظر إلى الطائر الأبيض. كان الوحل الناعم يغطى قدميه، والضوء يومض على سطح الماء. ثم، عند لحظة ما، اقترب الطائر من جاسبار. لم يكن خائفًا، لأن السبخة كانت فعلاً ملكه، له وحده. وكان يريد فقط رؤية الغريب الذى يظل ساكنًا فى الماء.

بعد ذلك، راح يرقص. كان يضرب بأجنحته، فيرتفع جسده الأبيض قليلاً فوق الماء الذى يضطرب ويحرك أعواد القصب. ثم يسقط ثانيةً، ويعوم راسمًا دوائر حول الفتى. لكم كان جاسبار يرغب فى أن يكلمه، بلغته، ليقول له إنه معجب به، وإنه لا يريد إيذاءه، ويود فقط أن يكون صديقه. لكنه لم يجرؤ على إحداث أية ضجة بصوته.

كان كل شىء صامتًا فى ذلك المكان. لم تعد تُسمع صرخات الأطفال على الضفة، ولا نباح الكلاب الحاد. لا تُسمع سوى الرياح الخفيفة التى كانت تأتى فوق أعواد القصب وتجعل أوراق البردى ترتعش. لم يعد هناك تلال من حجر، ولا كثبان، ولا عشب. لم

www.ibtesama.com

يكن هناك سوى الماء بلون المعدن، والسماء، والبقعة المبهرة للطائر الذى كان ينساب فوق السبخة.

لم يعد الآن مشغولاً بجاسبار. كان يعوم ويصيد فى الوحل، بحركات رشيقة لعنقه الطويل. ثم حط مبعدًا جناحيه الأبيضين الواسعين، وكان يبدو فعلاً كملِك، متعال ولا مبال، يحكم منطقة نفوذه المائية.

فجأةً، رفرف، فرأى الفتى جسده بلون الزبد يرتفع ببطء، فيما كانت أرجله الطويلة تتسحب على سطح السبخة كعوامات طائرة مائية. أقلع الطائر الأبيض وقام بانعطافة كبيرة فى السماء. مر أمام الشمس واختفى، ممتزجًا بالضوء.

بقى جاسبار مدة طويلة ساكنًا فى الماء، على أمل أن يعود الطائر. بعد ذلك، وفيما كان عائدًا إلى الوراء نحو أصوات الأطفال، كان ثمة بقعة غريبة أمام عينيه، بقعة مبهرة كالزبد كانت تتنقل مع نظرته ثم فرت وسط أعواد القصب الرمادية.

لكن جاسبار كان سعيدًا لأنه أدرك أنه قد التقى بملك جنًّا.

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

ـ ٣ ـ

أتروس، كان اسم التيس الأسود الكبير. كان يعيش فى الناحية الأخرى من سهل الأعشاب، عند حدود الكثبان، محاطًا بالماعز والخرفان. كان أوغستين هو المسئول عن أتروس. أحيانًا، كان جاسبار يذهب بحثًا عنه. كان يقترب عبر الأعشاب العالية، وهو يصفر ويصرخ لتنبيهه، هكذا:

"يا ـ ها ـ هوا"

فكان يسمع صوت أوغستين يرد عليه من بعيد.

كانا يجلسان على الأرض، وينظران إلى التيس والماعز، بلا كلام. كان أوغستين أصغر من أبيل، لكنه كان أكثر جدية. له وجه جميل ناعم لا يبتسم كثيرًا، وعينان داكنتان عميقتان تبدوان كأنهما تريان بعيدًا خلفك، باتجاه الأفق. وكان جاسبار يحب نظرته المفعمة بالغموض.

www.ibtesama.com

كان أوغستين الوحيد القادر على الاقتراب من التيس. كان يمشى نحوه ببطء، ويقول له بضع كلمات بصوت خفيض، كلمات رقيقة وعذبة، فيتوقف التيس عن الأكل لينظر إليه ويمد أذنيه. كان للتيس نظرة كنظرة أوغستين، نفس العينين الواسعتين لوزيتى الشكل، الداكنتين والذهبيتين، وتبدوان كأنهما تريانك شفافًا.

كان جاسبار يبقى جالسًا بعيدًا كى لا يزعجهما. كان يود لو يستطيع الاقتراب من أتروس، ليلمس قرنيه والصوف الكثيف على جبينه. وكان أتروس يعرف أشياء كثيرة، لا تلك الأشياء التى نجدها فى الكتب، والتى يحب البشر الحديث عنها، إنما أشياء صامتة وقوية، أشياء مفعمة بالجمال والغموض.

كان أوغستين يقف مدة طويلة، مستندًا على التيس. كان يعطيه أعشابًا وجذورًا ليأكلها، ويكلمه فى أذنه طوال الوقت. وكان التيس يتوقف عن لَوك الأعشاب ليسمع صوت الولد الصغير، ثم يقوم ببضع خطوات وهو يهز رأسه وأوغستين يمشى معه.

كان أتروس قد رأى الأرض بأكملها، فيما وراء الكثبان وتلال الحجر. كان يعرف المروج، وحقول القمح، والبحيرات، والشجيرات والممرات. كان يعرف آثار الثعالب والأفاعى أفضل من أى أحد آخر. هذا ما كان يُعلمه لأوغستين، كل أشياء البرارى والسهول التى كان المرء يتعلمها فى حياة بأكملها.

www.ibtesama.com

كان يقبع قرب الولد الصغير، وهو يأكل فى يده الأعشاب والجذور. كان يسمع الكلمات الرقيقة والعذبة، فيرتعش صوف ظهره قليلاً. ثم يهز رأسه، بحركتين أو ثلاث عنيفة لقرنيه. ثم يذهب للالتحاق بالقطيع.

عندئذ كان أوغستين يعود للجلوس بجوار جاسبار، وينظران معًا إلى التيس الأسود وهو يتقدم ببطء وسط الماعز المتراقص. كان يقوده إلى مرعى آخر، أبعد قليلاً، حيث يكون العشب بكرًا.

كان هناك أيضًا كلب أوغستين. لم يكن حقًا كلبه، إنما كلبًا بريًا كالآخرين، لكنه كان يبقى بالقرب من أتروس والقطيع، فأصبح أوغستين صديقه. كان قد أسماه نُون. كان سلوقيًا بشعر طويل بلون الرمال، وأنف مسلول وأذنين قصيرتين. من وقت إلى آخر، كان أوغستين يلعب معه. كان يصفر بين أصابعه ويصرخ اسمه:

"نُون! نُون!"

عندئذ كان العشب العالى ينفتح ويأتى نُون بأقصى سرعة، وهو يطلق صيحات قصيرة. كان يتوقف، منتصبًا فوق ساقيه الطويلتين، وبطنه تخفق. يتظاهر أوغستين برمى حجر له، ثم يصرخ مرةً أخرى باسمه:

"نُون! نُون!"

فينطلق راكضًا وسط الأعشاب. كان السلوقى يقفز خلفه وهو ينبح، سريعًا كالسهم. ولأنه كان يجرى

www.ibtesama.com

أسرع من الطفل، كان يقوم بدورات كبيرة فى السهل، يقفز فوق الصخور، يتوقف، وخطمه منتصب، ثم يكمن. ثم يسمع صوت أوغستين من جديد فينطلق مرةً ثانية. ببضع قفزات، كان يلحق به وسط الأعشاب، ويتظاهر بأنه يهاجمه وهو يزمجر. كان أوغستين يرمى له الحجارة، ويهرب من جديد، فيما يدور السلوقى حول نفسه. فى النهاية، كان الاثنان يخرجان من سهل الأعشاب، لاهثين.

لم يكن أتروس يحب ذلك الصخب. كان ينفخ ويراوح مكانه بغضب. ثم يقود قطيعه إلى مكان أبعد قليلاً. وحين كان أوغستين يعود للجلوس بجوار جاسبار، كان السلوقى يتمدد على الأرض، رجلاه الخلفيتان مثنيتان إلى الجنب، والأماميتان مستقيمتان تمامًا، ورأسه عالية. كان يغمض عينيه ويبقى بلا حراك، شبيهًا تمامًا بتمثال. لا يتحرك سوى الأذنين، تترصدان الأصوات.

هو أيضًا، كان أوغستين يكلمه. لم يكن يكلمه بكلمات، مثل التيس الأسود، إنما بالتصفير الخفيف بين أسنانه، وبهدوء شديد. لكن السلوقى لم يكن يحب أن يقترب منه أحد. فما إن ينهض أوغستين، حتى كان ينهض هو أيضًا، ويبقى بعيدًا.

وحين كان يتوفر لحم، كان أوغستين يعبر سهل الأعشاب ويحمل العظام إلى نُون. كان يضعها على الأرض، ويبتعد بضع خطوات وهو يصفر. فكان نُون

www.ibtesama.com

يأتى ليأكل. ولم يكن يحق لأحد أن يأتى نحوه فى تلك اللحظة؛ إذ كانت الكلاب الأخرى تحوم حوله، فكان نُون يزمجر دون أن يرفع رأسه.

كان جميلاً أن يكون لديهم أولئك الأصدقاء، فى جنًّا. فلم يكن المرء يشعر بالوحدة أبدًا.

فى المساء، حين أوقف الهواء المثقل بالشمس الرياح، أشعلت الصغيرة "خاف" النار لتطرد البعوض الصغير الذى كان يتراقص قرب الأعين والآذان. ثم ذهبت مع جاسبار لتحلب الماعز. وأثناء عبورهما للأعشاب العالية، توقفت الطفلة الصغيرة. فهم جاسبار ما كانت تريد، فوضعها فوق كتفيه، مثل المرة الأولى التى وصلوا فيها إلى البحيرة. كانت خفيفة جدًا وبالكاد كان جاسبار يحس بها على كتفيه. ركض بها، والتحقا بالمنطقة التى كان يعيش فيها أتروس مع قطيعه. كان أوغستين يجلس دائمًا فى المكان نفسه، وهو ينظر إلى التيس الأسود، والتلال البعيدة.

عادت الصغيرة "خاف" بمفردها إلى البيت وهى تحمل القربة المنتفخة بالحليب. أما جاسبار فبقى مع أوغستين حتى حلول الليل. حين حل الظل، اجتاحت رعشة غريبة كل الأشياء. كان التوقيت الذى يفضله جاسبار وأوغستين. كان الضوء يأفل شيئًا فشيئًا، وتصبح الأرض والعشب رماديين فيما تكون قمم الكثبان لا تزال مضاءة. فى تلك اللحظة، تكون السماء شفافة للغاية إلى حد أن يبدو للمرء أنه محلق، عاليًا

www.ibtesama.com

راسمًا دوائر بطيئة كالعُقاب. لم تعد هناك رياح، ولا أية حركة على الأرض، وكانت الأصوات تأتى من بعيد، رقيقة جدًا وهادئة جدًا. كانت الكلاب تُسمع وهى تنادى بعضها البعض من تل إلى آخر، والماعز والخرفان وهى تتجمع حول التيس الأسود الكبير مطلقةً ثغاءها المتأوه قليلاً. كان الظل يملأ السماء كلها كالدخان، ثم ظهرت النجوم، واحدةً واحدة. كان أوغستين يشير إلى أضوائها، ويعطى لكل واحد اسمًا غريبًا كان جاسبار يحاول حفظه. كانت أسماء نجوم جينًّا، الأسماء التى لابد من حفظها، والتى تلتمع بقوة فى الفضاء الأزرق القاتم.

"ألتيير...إلتانين...كوشاب... ميراك..."

كان يقول أسماءها، هكذا، ببطء، بصوته الرخيم، فتظهر فى السماء داكنة الزرقة نقطةً من الضوء المرتعش، واهيةً فى البداية، تارةً حمراء، وتارةً زرقاء. ثم ثابتة وقوية، كبيرة، راشقة أشعتها الحادة، ومتوهجة كالجمرات وسط الفراغ. كان جاسبار ينصت بقوة لأسمائها السحرية، وكانت أجمل أسماء سمعها فى حياته،

"فيكْدا...أليوث...ميزار...ألكايد..."

ورأسه مقلوبة إلى الوراء، كان أوغستين ينادى النجوم. كان ينتظر بين كل اسم وآخر، وكأن الأضواء تطيع نظرته فتكبر، تعبر فراغ السماء، وتصل عنده، فوق جينًّا. أصبح الآن بينها نجوم جديدة، أصغر، بالكاد مرئية، كغبار رمل كان يُمحى لثوان، ثم يعود،

www.ibtesama.com

"الديرامين... دينيب... شيدير... ميراش..."

كانت الأضواء تشبه أسطولاً على حافة الأفق. كانت تتوحد فيما بينها وترسم أشكالاً غريبة تغطى السماء. على الأرض، لم يعد هناك شىء، تقريبًا لاشىء. كانت الكثبان الرملية مغطاة بالظل، والأعشاب مغمورة. حول التيس الأسود الكبير، كان قطيع الماعز والخرفان يمشى بلا صوت باتجاه أعلى الوادى. وأعينهما مفتوحة عن آخرها، كان جاسبار وأوغستين ينظران إلى السماء. ففى الأعلى كان ثمة حشود كثيرة، شعوب كثيرة مشتعلة، طيور، أفاعٍ، دروب تتعرج بين مدن الأضواء، أنهار، جسور؛ كانت هناك أيضًا حيوانات مجهولة متوقفة، وثيران، وكلاب بأعين لامعة، وخيول،

"إنيف..."

وغربان بأجنحة منبسطة ريشها براق، وعماليق متوجون بالماس، ساكنين، وينظرون إلى الأرض،

"النّيلام، جوويرا..."

سكاكين، رماح وسيوف سوداء، طائرة ورق مشتعلة معلقة فى رياح الفراغ. كان هناك بالأخص، فى مركز الرموز السحرية، وببريق يتلألأ عند طرف قرنه الطويل المشحوذ، التيس الأسود الكبير أتروس منتصبًا فى الليل، يحكم كونه،

"راس الحاج..."

www.ibtesama.com

استلقى أوغستين على ظهره وراح يتأمل كل النجوم التى تلتمع من أجله فى السماء. لم يعد يناديها، ولم يعد يتحرك. ارتعش جاسبار، وحبس أنفاسه. كان ينصت بكل قواه، ليسمع ما كانت تقوله النجوم. كان كأنه ينظر بكل جسده، ووجهه، ويديه، ليسمع الهمس الخفيف الذى يتردد صداه فى عمق السماء، وصوت الماء والنار للأضواء البعيدة.

كان يمكن البقاء هناك طوال الليل، وسط سهل جينًا. كان يُسمع غناء الحشرات وهو يبدأ، غير قوى فى البداية، ثم يكبر، يملأ كل شىء. وكانت رمال الكثبان لا تزال ساخنة، فحفر الولدان حفرتين للنوم. وحده التيس الأسود الكبير لم يكن ينام. كان يسهر أمام القطيع، وعيناه تلتمعان كشعلات خضراء. ربما كان يبقى مستيقظًا ليتعلم أشياء جديدة عن النجوم وعن السماء. أحيانًا كان يهز جزته الصوفية الثقيلة، وينفخ بمنخريه، لأنه سمع انسلال ثعبان، أو لأن كلبًا بريًا كان يحوم. كان الماعز يهرب راكضًا، وحوافره تضرب الأرض دون أن يدرى إلى أين يمضى. ثم يعود الصمت من جديد.

حين طلع القمر فوق تلال الحجر، استيقظ جاسبار. كان يرتجف بفعل هواء الليل. نظر حوله، فلاحظ أن أوغستين قد رحل. على بُعد بضعة أمتار، كان الولد جالسًا بجانب أتروس. كان يكلمه بصوت خفيض، ودائمًا بنفس الكلمات العذبة.

www.ibtesama.com

كان أتروس يحرك فكيه، وينحنى على أوغستين ثم ينفخ على وجهه. أدرك جاسبار أنه يُعلمه أشياء جديدة. يعلمه ما عرفه فى الصحراء، أثناء النهارات تحت الشمس الحارقة، وأشياء عن الضوء والليل. ربما كان يكلمه عن الهلال المعلق فوق الأفق، أو عن الحية الكبيرة للمجرة التى تزحف عبر السماء.

بقى جاسبار واقفًا، وهو ينظر بكل قواه إلى التيس الأسود الكبير ليحاول أن يفهم قليلاً من الأشياء الجميلة التى كان يعلمها لأوغستين. ثم اجتاز حقل الأعشاب وعاد إلى البيت حيث ينام الأطفال.

ظل واقفًا أمام باب المنزل لبرهة. وهو ينظر إلى الهلال النحيل المائل قليلاً فى السماء. جاء نَفسٌ خفيف خلف جاسبار. دون أن يلتفت، علم أنها الصغيرة "خاف" التى استيقظت. أحس بيدها الدافئة تحط داخل يده وتشد عليها بقوة.

حينها، صعد الاثنان معًا إلى السماء، خفيفين كالريش، يطفوان نحو الهلال. ورأساهما مرفوعتان إلى الأعلى، ذهبا لمدة طويلة، طويلة جدًا، دون أن يشيحا نظريهما عن الهلال الفضى، دون أن يفكرا فى شىء، وتقريبًا دون أن يتنفسا. كانا يطفوان فوق وادى جنًّا، أعلى من الصقور، أعلى من الطائرات النفاثة. كانا يريان القمر كله، الآن، والقرص الكبير المعتم لقوس الدائرة المبهر النائم فى السماء والذى يشبه الابتسامة. كانت الصغيرة "خاف" تشد على يد

www.ibtesama.com

جاسبار بكل قواها، كى لا تسقط. لكنها كانت الأخف، فكانت هى من يقود الفتى نحو الهلال.

بعد أن نظرا إلى القمر طويلاً، ووصلا قريبًا للغاية منه، قريبًا إلى حد الإحساس بالإشعاع البارد للضوء على وجهيهما، عادا إلى داخل البيت. بقيا مدةً طويلة بلا نوم، وهما ينظران عبر فتحة الباب الضيقة إلى الضوء الشاحب، ويستمعان للأزيز الصَّار للجراد. كانت الليالى جميلة وطويلة فى جينًّا.

www.ibtesama.com

ـ ٤ ـ

أصبح الأطفال يذهبون أبعد فأبعد فى الوادى.
رحل جاسبار فى الصباح الباكر، وقت أن كانت الأعشاب العالية لا تزال مغطاة بالندى، والشمس غير قادرة بعد على تدفئة كل الصخور ورمال الكثبان.

كانت قدماه العاريتان تحطان فوق آثار الأمس، وتتبعان الممرات الضيقة. كان لابد من الحذر من الأشواك المختبئة فى الرمل، والصوّان القاطع. يتسلق جاسبار، أحيانًا، صخرة كبيرة، فى آخر الوادى، وينظر حوله. رأى الدخان النحيل يصّاعد مباشرةً إلى السماء. فتخيل الصغيرة "خاف" مقرفصة أمام النار وتقوم بطهو اللحم والجذور.

أبعد قليلاً، رأى سحابة الغبار التى كان يُثيرها القطيع أثناء سيره. كان الماعز، بقيادة التيس الكبير أتروس، يتجه نحو البحيرة. وفيما يتفحص كل شبر

www.ibtesama.com

فى الوادى، لمح جاسبار بقية الأطفال. حياهم بالتماعة من مرآته الصغيرة. فرد الأطفال عليه وهم يصيحون:

"ها ـ هوها!"

كلما كان المرء يبتعد عن مركز الوادى، تصبح الأرض أكثر جفافًا. كانت متشققة ومتصلبة من الشمس، وتدوى تحت الأقدام كجلد طبل. هناك كانت تعيش حشرات غريبة لها أشكال عساليج، وجعارين، وحشرات أم أربع وأربعين، وعقارب. بحذر، كان جاسبار يقلب الحجر القديم، ليرى العقارب تفر، وذيولها منتصبة. لم يكن جاسبار يخافها. كان نوعًا ما كأنه شبيهها، نحيفًا وجافًا فوق الأرض الترابية. كان يحب الرسوم التى تتركها على التراب، ممرات صغيرة متعرجة ودقيقة كأهداب ريش الطيور. كان هناك أيضًا النمل الأحمر، الذى يركض بسرعة فوق بلاطات الحجر، هربًا من الأشعة القاتلة للشمس. كان جاسبار يتبعه بنظره، وهو يفكر أنه هو أيضًا لديه أشياء ليعلمها. مؤكد أنها كانت أشياء صغيرة جدًا وعجيبة، على اعتبار أن الحصى كبير كالجبال وباقات العشب عالية كالأشجار. فلدى رؤية الحشرات، يتم فقدان الإحساس بالحجم ويبدأ إدراك ما يموج بلا انتهاء فى الهواء وفوق الأرض. ويتم نسيان الباقى كله. ربما لهذا السبب كانت الأيام طويلة جدًا فى جنًّا. كانت الشمس لا تنتهى من التدحرج فى السماء البيضاء، والرياح تهب لشهور، لسنوات.

www.ibtesama.com

أبعد قليلاً، بعد عبور التلة الأولى، نصل إلى بلاد الأرَض(*) كان جاسبار وأبيل قد وصلا إلى هناك، ذات يوم، وكادا أن يتجمدا من الرعب. كانت هضبة كبيرة من التراب الأحمر محفورة بمجارى سيول جافة، حيث لا شىء كان ينمو، ولا أية شجيرة، ولا أية عشبة. كانت هناك فقط مدينة الأرَض.

مئات من الأبراج المصفوفة، مجبولة من التراب الأحمر، بأسقف مدببة وأجزاء جدار مهدمة. كان بعضها عاليًا جدًا، جديدًا ومتينًا كناطحات السحاب؛ وأخرى كانت تبدو غير مكتملة، أو مكسورة، بحيطان مبقعة بالأسود كأنها محترقة.

لم يكن هناك أى صوت فى هذه المدينة. كان أبيل ينظر، منحنيًا إلى الوراء، مستعدًا للفرار: لكن جاسبار كان قد بدأ يتقدم على طول الشوارع، وسط الأبراج العالية، وهو يؤرجح مقلاعه على طول ساقه. ركض أبيل للانضمام إليه. ثم سارا، معًا، عبر المدينة. حول الأبنية، كان التراب صلبًا ومتماسكًا كأنما قد تم تكثيفه. لم تكن للأبراج نوافذ. كانت عمارات كبيرة عمياء، منتصبة فى ضوء الشمس العنيف، متآكلة بالمطر والرياح. وكانت القلاع صلبة كالصخر. ضرب جاسبار على الجدران بقبضة يده. ثم حاول اختراقها بحجر. لكنه لم يتمكن إلا من تفتيت قليل من التراب الأحمر.

(*) جمع «أرضة»، وهى حشرة بيضاء تشبه النملة وتعيش بكثرة فى المناطق الحارة، حيث تقوم ببناء أوكار مليئة بالممرات الداخلية، تُسمى «المَأوضَة»، ويصل طولها إلى عدة أمتار. (المترجمة).

www.ibtesama.com

كان الطفلان يسيران بين الأبراج، وهما ينظران إلى الأسوار السميكة. كانا يسمعان الدم يضرب فى أصداغهما والنفَس يصفر من فميهما لأنهما أحسا أنهما غريبان، وأحسا بالخوف. لم يجرؤا على التوقف. وفى وسط المدينة، كانت هناك "مأرضة" أعلى بكثير من الأخريات. كانت قاعدتها عريضة كجذع نخلة، ولم يكن الطفلان واحدًا فوق كتفى الآخر ليبلغا قمتها. توقف جاسبار وراح يتأمل المأرضة. كان يفكر فيما هو موجود داخل البرج، فى أولئك الناس الذين يعيشون فى الأعلى تمامًا، معلقين فى السماء، ولا يرون الضوء أبدًا. تلفهم الحرارة، لكنهم لا يعلمون أين هى الشمس. كان يفكر فى هذا، وأيضًا فى النمل، والعقارب، والجعارين الذين كانوا يتركون آثارهم على التراب. كان لديهم الكثير ليعلموه، أشياء غريبة وشديدة الصغر، بما أن الأيام كانت بطول حياة. حينئذ اتكأ على الحائط الأحمر، وراح ينصت. صفر كى ينادى مَن كانوا فى الداخل؛ لكن ما رد أحد. لم يكن هناك سوى صوت الرياح التى كانت تدندن وهى تمر بين أبراج المدينة، وصوت قلبه الذى كان يردد الصدى. وحين ضرب جاسبار السور العالى بقبضتى يديه، خاف أبيل وهرب. لكن المأرضة بقيت صامتة. ربما كان سكانها نائمين، محاطين بالرياح والضوء، محتمين داخل قلعتهم. تناول جاسبار حجرًا كبيرًا ورماه بكل قوته على البرج. كسر الحجر قطعة من المأرضة مصدرًا صوت الزجاج المكسور. فى بقايا السور، رأى

www.ibtesama.com

جاسبار حشرات غريبة كانت تتخبط، فى التراب الأحمر، وتشبه قطرات من العسل. لكن الصمت لم يتوقف فى المدينة، صمت كان يثقُل ويهدد من أعلى كل برج. شعر جاسبار بالخوف، مثل أبيل. فبدأ يركض فى شوارع المدينة، بأقصى سرعة ممكنة. حين لحق بأبيل، نزلا معًا نحو سهل الأعشاب ركضًا، دون أن يلتفتا.

فى المساء، حين غربت الشمس، جلس الأطفال قرب البيت لرؤية الصغيرة "خاف" ترقص. صنع أنطوان وأوغستين نايات صغيرة من قصب المستنقع. نحتا عدة قصبات بأطوال مختلفة، وربطاها معًا بأعشاب. حين بدآ ينفخان فى عيدان القصب، راحت الصغيرة "خاف" ترقص. لم يسمع جاسبار أبدًا موسيقى كتلك. كانت مجرد ألحان موسيقية تنساب، صاعدة، هابطة، بأصوات حادة كصيحات الطيور. كان الولدان يتناوبان فى العزف، يردان على بعضهما، يكلمان بعضهما، بالألحان الموسيقية المنسابة ذاتها. أمامهم، ورأسها منحنية قليلاً، كانت الصغيرة "خاف" تحرك فخذيها بإيقاع منتظم، جذعها مستقيم تمامًا، ويداها مبتعدتان عن جسمها. ثم ضربت الأرض بقدميها الحافيتين، بحركة سريعة من إخمص قدمها والكعبين، فصدر قرعٌ كان يردد الصدى داخل الأرض، كقرع الطبول. بدورهما نهض الولدان، واستمرا فى العزف على الناى وهما يضربان الأرض بأقدامهما الحافية. عزفا ورقصت الصغيرة "خاف" هكذا، حتى

www.ibtesama.com

غربت الشمس عن الوادى. ثم جلسوا جميعًا قرب النار المشتعلة. لكن أوغستين ذهب إلى الجهة الأخرى للأعشاب العالية، إلى حيث كان يعيش التيس الأسود الكبير والقطيع. وواصل العزف بمفرده هناك، فيما كانت الرياح تحمل من حين إلى آخر النغمات الخفيفة للموسيقى، والألحان الموسيقية المنسابة والعابرة كصيحات الطيور.

فى السماء السوداء تقريبًا، رأى الأطفال طائرة نفاثة تمر. كانت تلتمع عاليًا جدًا كذبابة صغيرة من القصدير، وخلفها كان أثرها الأبيض يتسع، ويشق السماء إلى اثنتين.

ربما كان للطائرة أيضا أشياء تُعلمها، أشياء لاتعرفها الطيور.

كانت هناك أشياء كثيرة لتعَلمها، هنا فى جنًّا. لم تكن تُلقن بكلمات، كما فى مدارس المدن؛ ولا تلقن كرهًا، بقراءة الكتب أو بالمشى فى الشوارع المليئة بالصخب والحروف اللامعة. كان يتعلمها المرء دون أن يدرك ذلك، أحيانًا بسرعة كبيرة، كحجر يصفر فى الهواء، وأحيانًا ببطء شديد، نهارًا بعد نهار. كانت أشياء جميلة جدًا، تدوم أمدًا طويلاً، ولا تبقى أبدًا على نفس الحال، تتغير، تتحرك طوال الوقت. يتعلمها المرء، ثم ينساها، ثم يتعلمها من جديد. لم يكن معروفًا كيف أتت: كانت موجودة هنا، فى الضوء، وفى السماء، وعلى الأرض، وفى أحجار الصوان وجزيئات الميكا،

www.ibtesama.com

والرمل الأحمر للكثبان. كان يكفى رؤيتها، وسماعها. لكن جاسبار كان يعلم جيدًا أن الناس فى الأماكن الأخرى لا يستطيعون تعلمها. فلِتعلمها، كان لابد أن يكون المرء فى جنًّا، مع الرعاة، مع التيس الكبير أتروس، والكلب نون، والثعلب ميم، وكل النجوم التى فوقه، والطائر الكبير بالريش ذى لون الزبد، فى مكان ما فى السبخة الرمادية.

الشمس بالأخص هى من كان يُعلم، هنا فى جنًّا. عالية جدًا فى السماء، كانت تسطع وتمنح حرارتها للحجر، وترسم كل تل، وتضع لكل شىء ظله. لها، كانت الصغيرة "خاف" تصنع بالطين صحونًا وأطباقًا كانت تضعها لتجف فوق الأوراق. كانت تصنع أيضًا دُمى بالطين، تضع لها شعرًا من أنصال الأعشاب وتُلبسها مزقًا من الخرق. كانت تجلس وتنظر إلى الشمس وهى تُنضج أوانى الفخار والدُّمى، فتصبح بشرتها أيضًا بلون الطين، وشعرها شبيهًا بالأعشاب.

أما الرياح، فكانت كثيرًا ما تتكلم. لم يكن لما كانت تُعلِّمه نهاية. كانت تأتى من إحدى نواحى الوادى، تعبرك، وتذهب إلى الناحية الأخرى، تمر كنَفَس عبر حلقك وصدرك. خفية وخفيفة، تملؤك، تترعك، دون أن تشبعك أبدًا. أحيانًا، كان أبيل وجاسبار يلهوان بحبس أنفاسهما، بسد أنفيهما. كانا يتظاهران بأنهما يغطسان تحت البحر، ويغوصان عميقًا جدًا، بحثًا عن المرجان. كانا يصمدان لثوان، هكذا، وفماهما وأنفاهما مسدودان. ثم، بضربة كعب،

www.ibtesama.com

كانا يصعدان إلى السطح، فتدخل الرياح من جديد إلى مناخيرهما، الرياح العنيفة المدوخة. كانت الصغيرة "خاف" تحاول قليلاً، هى أيضًا، لكن ذلك كان يسبب لها الحازوقة.

كان جاسبار يظن أنه إن تمكن من فهم كل الدروس فسيصبح مثل التيس الكبير أتروس، كبيرًا جدًا ومفعمًا بالقوة فوق الأرض الترابية، بعينيه اللتين كانتا تطلقان ومضات خضراء. أنه سيكون كالحشرات أيضًا، يستطيع بناء منازل كبيرة من الطين، عالية كالفنارات، بنافذة واحدة فقط فى القمة، يُرى منها وادى جنًّا بأكمله.

أصبحوا يعرفون جيدًا هذا البلد، الآن. فبإخمص أقدامهم فقط، كان يمكنهم معرفة المكان الذى يوجدون فيه. كانوا يعرفون كل الأصوات، تلك التى تذهب مع ضوء النهار، وتلك التى تولد فى الليل. كانوا يعرفون أين يعثرون على الجذور والأعشاب الصالحة للأكل، وفواكه الشجيرات الحامضة، والأزهار المُسَكرة، والبذور، والتمر، واللوز البرى. كانوا يعرفون ممرات الأرانب البرية، والأماكن التى تجلس فيها الطيور، والبيض فى الأعشاش. حين كان أبيل يعود، مع حلول الليل، كانت الكلاب البرية تنبح لتطالب بنصيبها من الأحشاء. وكانت الصغيرة "خاف" ترميها بجذوات مشتعلة لتبعدها. وكانت تخبئ الثعلب ميم فى قميصها. وحده الكلب نون كان يحق له الاقتراب، لأنه كان صديق أوغستين.

www.ibtesama.com

حين وصل سرب الجراد، كان ذلك فى الصباح، والشمس عالية فى السماء. كان ميم أول من سمعه، حتى قبل أن يظهر الجراد فوق الوادى. توقف أمام باب المنزل، الأذنان ممدودتان، والجسد مرتعش. ثم وصل الصوت، وبدورهم تجمد الأطفال.

كانت سحابة خفيضة، بلون الدخان الأصفر، تتقدم طافية فوق الأعشاب. فجأةً راح كل الأطفال يصرخون، ويركضون عبر الوادى، فيما كانت السحابة تتأرجح، تتردد، تدور كالزوبعة مراوحة مكانها فوق الأعشاب، وملأ الصوت الصَّار لآلاف الحشرات الفضاء. كان أبيل وجاسبار يركضان فى مواجهة السرب، وهما يُدوران سيرا مقلاعيهما. أما بقية الأطفال فكانوا يلقون بأغصان جافة فى النار. وما هو إلا وقت قصير حتى اندلعت ألسنة نار كبيرة ومضيئة. فى ثوان، أعتمت السماء. مرت سحابة الحشرات أمام الشمس ببطء، مغطية الأرض بالظل. كانت الحشرات تضرب وجوه الأطفال، وتخدش بشراتهم بأرجلها المسننة. فى الطرف الآخر لحقل الأعشاب، فر القطيع نحو الكثبان، فيما كان التيس الأسود الكبير يتراجع إلى الوراء ويدعس الأرض بحنق. كان جاسبار يركض بلا توقف، والمقلاع يدور فوق رأسه كمروحة طائرة. والأزيز المتواصل لأجنحة الحشرات يدوى فى أذنيه وهو يواصل الركض دون أن يرى إلى أين كان يتجه، ضاربًا سيره فى الهواء. كانت السحابة تدور، بلا انتهاء، حول سهل الأعشاب، كأنها تبحث عن مكان

www.ibtesama.com

تسقط فيه. وكانت الطبقات السمراء للحشرات تنفتح، تتأرجح، وتنطبق من جديد. فى بعض الأماكن، كانت الحشرات تسقط على الأرض، ثم تعاود الطيران من جديد بثقل، دائخة بأزيزها نفسه. وكانت يدا أبيل وخديه مخططين بجروح دامية، وهو يركض دون التقاط أنفاسه، مسحوبًا بحركة مقلاعه. وكل مرة كان يضرب فيها السير فى السحابة الحية، كان يطلق صيحة، فيرد عليه جاسبار.

لكن سرب الجراد لم يتوقف. شيئًا فشيئًا، ابتعد فوق المستنقع، وهو لا يزال يتأرجح، ويتردد، ثم فر نحو تلال الحجر. صعدت آخر الحشرات فى الهواء وخلت السماء. قَل الصخب الصًار، ثم اختفى. وحين ظهر ضوء الشمس من جديد، عاد الأطفال إلى البيت، منهكين. تمددوا على الأرض، حلوقهم جافة، ووجوههم متورمة.

بعد ذلك ذهب الطفلان الصغيران وهما يصيحان باتجاه الأعشاب العالية، لجمع الجراد المقتول. عادا حاملين حفنات من الحشرات. جالسين حول النار المشتعلة، أكل الأطفال الجراد حتى المساء. فى ذلك اليوم، كانت هناك للكلاب البرية أيضًا وليمة كبيرة وسط الأعشاب العالية.

www.ibtesama.com

ـ ٥ ـ

كم مر من الأيام؟ كان القمر قد كبُر، ثم أصبح هلالاً نحيلاً نائمًا أعلى التلال. اختفى بعض الوقت من السماء السوداء، وحين عاد من جديد، حياه الأطفال بطريقتهم الخاصة، بإطلاق صيحات والانحناء احترامًا. الآن، أصبح من جديد مستديرًا وناعمًا فى السماء الليلية، وأغرق وادى جنًّا بضوئه الخافت، المائل للزرقة. رغم ذلك كان فى ضوئه شىءٌ غريب. شىء كالبرد والصمت. كان الأطفال ينامون باكرًا داخل المنزل، لكن جاسبار كان يبقى مدة طويلة جالسًا عند العتبة، متأملاً القمر الذى يطفو فى السماء. أبيل أيضًا كان قلقًا. فى النهار، كان يغادر بمفرده بعيدًا جدًا، ولم يكن أحد يعرف إلى أين كان يذهب. كان يمضى وهو يؤرجح مقلاعه العشبى على طول فخذه، ولا يعود إلا مع حلول الليل. لم يعد يأتى بلحم، بل فحسب ـ ومن حين إلى آخر ـ بطيور

www.ibtesama.com

صغيرة نحيفة ذات ريش قذر لم تكن تُسكت الجوع. فى الليل، كان يتمدد مع بقية الأطفال داخل البيت، لكن جاسبار كان يعلم أنه لا ينام؛ كان يستمع إلى أصوات الحشرات وصياح الضفادع حول البيت.

كانت الليالى باردة. يلتمع فيها القمر بقوة، فيما كان ضوؤه كالجليد. كانت الرياح الباردة تحرق وجه جاسبار وهو يتأمل الوادى المضاء. ومع كل زفير، كان البخار يخرج من منخاريه كالدخان. كان كل شىء جافًا وباردًا، قاسيًا، وبلا ظل. رأى جاسبار بوضوح كل الرسوم التى يحملها وجه القمر، والبقع الداكنة، والشقوق، وكل الحروف.

لم تكن الكلاب البرية تنام. كانت تتسكع طول الوقت فى السهل المضاء، مطلقة النباح والنخير. والجوع ينخر بطونها، وتبحث بلا جدوى عن بقايا طعام. وحين تقترب كثيرًا من البيت، كان جاسبار يرميها بالحجارة. كانت تقفز إلى الوراء وهى تزمجر، ثم تعود من جديد.

هذه الليلة، قرر أبيل مطاردة الثعبان ناش. حوالى منتصف الليل، نهض والتحق بجاسبار. واقفًا بجواره، نظر إلى الوادى المضاء بالقمر. كان البرد قارسًا، وصخور الميكا تتوهج والأعشاب العالية تتلألأ كالنصال. لم تكن هناك رياح. وبدا القمر قريبًا للغاية، كأن لا شىء بين الأرض والسماء، وكأننا نلمس الفراغ. وحول القمر، لم تكن النجوم تلتمع.

www.ibtesama.com

خطا أبيل بضع خطوات، ثم التفت ونظر إلى جاسبار ليطلب منه مرافقته. كان ضوء القمر يلون وجهه بالأبيض، وعيناه مشتعلتين فى ظل حاجبيهما. أخذ جاسبار مقلاعه العشبى وسارا معًا. لكنهما لم يعبرا حقل الأعشاب. تمشيا على طول السبخة، فى اتجاه التلال الصخرية.

أثناء مرورهما أمام الشجيرات، عقد أبيل سيره حول عنقه. وبسكينه الصغيرة، قطع غصنين طويلين شذبهما بعناية. أعطى عودًا لجاسبار واحتفظ بالآخر فى يده اليمنى.

ثم انطلق بسرعة فوق الأرض المغطاة بالحصى. كان يسير منحنيًا إلى الأمام، بلا صوت، ووجهه ساكن. تبعه جاسبار وهو يقلد حركاته. فى البداية، لم يدرك أنهما قد بدآ مطاردة ناش. فربما كان أبيل قد لمح آثار أرنب برى، وسيقوم بتدوير مقلاعه بعد قليل. لكن فى تلك الليلة، كان كل شىء مختلفًا. كان الضوء خافتًا وباردًا، والطفل يمشى بصمت، والعود الطويل فى يده اليمنى. وحده الثعبان ناش، الذى يتسلل ببطء فى التراب وهو يفرد التفافاته، الشبيهة بجذور الأشجار، يسكن فى هذه الناحية من جينًّا.

لم ير جاسبار ناش أبدًا. سمعه فقط، فى الليل، حين كان يمر أحيانًا قرب القطيع. كان نفس الصوت الذى سمعه أول مرة، حين اجتاز الجدار الحجرى على طريق جينًّا. وكانت الصغيرة "خاف" قد أرته كيف يرقص الثعبان، بأرجحة رأسه، وكيف يزحف ببطء

www.ibtesama.com

فوق الأرض. وهى تقول، فى نفس الوقت: "ناش! ناش! ناش! ناش! ناش!"، وتقلد بفمها صوت الخشخشة الذى يصدره ذيله على الحجارة والأغصان الميتة.

كانت تلك الليلة حقًا ليلة ناش. كان كل شىء مثله، باردًا وجافًا، وملتمعًا بالحراشف. فى مكانٍ ما عند سفح التلال الصخرية، فوق البلاطات الباردة، كان ناش يتسلل بجسده الطويل ويتذوق التراب بطرف لسانه المزدوج، بحثًا عن فريسة. كان ينزل، ببطء، نحو قطيع الماعز والخرفان، متوقفًا من حين إلى آخر، ساكنًا كجذر، ثم ينطلق من جديد.

تفرق جاسبار وأبيل. أصبحا يمشيان فى خط واحد، على بُعد بضعة أمتار عن بعضهما البعض. منحنيين إلى الأمام، ثنيا ركبتيهما، وراحا يقومان بحركات بطيئة بالجذع والذراعين، كأنهما يسبحان. كانت أعينهما قد اعتادت على ضوء القمر، وأصبحت باردة وشاحبة مثله، وترى كل تفصيلة على الأرض، وكل حجر، وكل شق.

كان ذلك كما على سطح القمر نوعًا ما. تقدما ببطء فوق الأرض العارية، بين الصخور المكسورة والصدوع السوداء. فى البعيد، كانت التلال المسننة كحواف بركان تومض فى السماء السوداء. فى كل شىء حولهما، كانا يريان ومضات الميكا، والجبس، والملح الصخرى. كان الطفلان يمشيان بحركات بطيئة، وسط بلاد الحجر والتراب. وكانت أيديهما شديدة البياض، وثيابهما فسفورية، ملونة بالأزرق.

www.ibtesama.com

هنا، كان بلد ناش.

بحث عنه الطفلان، متفحصين الأرض شبرًا شبرًا، منصتين إلى كل الأصوات. ابتعد أبيل أكثر عن جاسبار، قاطعًا دائرة كبيرة حول الهضبة الكلسية. وحتى حين كان بعيدًا جدًا، كان جاسبار يرى البخار يلتمع أمام وجهه، ويسمع نَفسه؛ فكل شىء كان واضحًا ومحددًا، بسبب البرد.

تقدم جاسبار عبر الأجمات، على طول أحد الوهاد. فجأةً، وفيما كان يمر أمام شجرة بلا أوراق، شجرة أكاسيا أحرقها الجفاف والبرد، ارتجف الفتى. توقف، وقلبه يخفق، لأنه سمع الحفيف نفسه، "فررت ت ـ فررت ت" الذى كان قد تردد صداه يوم أن اجتاز الجدار القديم للحجارة الجافة. مباشرةً فوق رأسه، رأى ناش الثعبان يفك التفافات جسده الطويل عن أحد الأغصان. نزل ناش ببطء من الأكاسيا، وكل حرشفة من جلده تومض كالمعدن.

أصبح جاسبار عاجزًا عن الحركة. كان يحدق فى الثعبان الذى لم ينته من التسلل على طول الغصن، والالتفاف على الجذع والنزول إلى الأرض. كان كل رسم على جلد الثعبان يلتمع بوضوح. وجسده ينزل نحو الأسفل دون أن يلمس تقريبًا جذع الشجرة، وفى آخر جسده رأس مثلثة الشكل وعينان شبيهتان بالمعدن. نزل ناش مدةً طويلة، بلا صوت. لم يكن جاسبار يسمع سوى دقات قلبه تضرب بقوة فى

www.ibtesama.com

صمت. وضوء القمر يومض على حراشف ناش، وعلى حدقتيه القاسيتين.

على الأرجح قام جاسبار بحركةٍ ما، لأن ناش توقف وانتصبت رأسه. نظر إلى الفتى، فشعر جاسبار بجسده يتجمد. كان يريد أن يصرخ، أن ينادى أبيل، لكن حلقه لم يدع أية نبرة تمر. لم يعد يتنفس. بعد وقت طويل، عاود ناش حركته. حين لمس الأرض، أصبح كماء يجرى فى التراب، كجدول طويل ماؤه شاحب يخرج ببطء من جذع الشجرة. سمع جاسبار صوت جلده يحف على الأرض، حفيف خفيف، كهربائى، شبيه بصوت الريح فى أوراق الشجر الميتة.

ظل جاسبار بلا حراك إلى أن اختفى ناش. عندئذ بدأ يرتجف، بعنف إلى حد أنه اضطر للجلوس على الأرض كى لا يقع. كان لا يزال يحس بنظرة ناش على وجهه، ويرى حركة الماء البارد للجسد المنسل على طول الشجرة. بقى جاسبار طويلاً ساكنًا كالصخرة، وهو يسمع ضربات قلبه فى صدره. وفوق الأرض، كان القمر مستديرًا تمامًا يضىء الوهد الخالى.

سمع جاسبار أبيل يناديه. صفر بهدوء شديد بين أسنانه، لكن الهواء الصاخب حبس الصوت فى مكان قريب. ثم سمع جاسبار وقع خطواته. كان الطفل يقترب بسرعة كبيرة فبدت قدماه كأنهما بالكاد تلامسان الأرض. نهض جاسبار والتحق بأبيل. معًا اتبعا الوهد، بحثًا عن ناش.

www.ibtesama.com

بدأ أبيل فى التصفير، فأدرك جاسبار أنه يصفر لناش؛ كان يناديه، هكذا، بهدوء، بصوت متواصل ورتيب. فى المخابئ بين جذور الأكاسيا، سمع ناش الصفير، فمد عنقه وهو يؤرجح رأسه مثلثة الشكل. انساب جسده على نفسه والتف. قلقًا، حاول ناش أن يعرف من أين يأتى الصفير، لكن الذبذبة الحادة احاطت به، وبدت قادمة من كل النواحى فى آن واحد. كانت موجة غريبة منعته من الفرار، وأجبرته على عَقد جسده.

حين ظهر الطفلان، خيالين عاليين أبيضين فى ضوء القمر، ضرب ناش ذيله بغضب على الحجارة، فصدرت فرقعة شرارات. بدا جلد ناش فسفوريًا. كان بالكاد يتحرك، كرعشة، على الأرض الترابية. انفرد الجسد فى مكانه، متسللاً فوق الحصى، متمددًا، منحلاً، ورأى جاسبار من جديد الرأس مثلثة الشكل ذات العينين بلا جفنين. أحس بنفس البرودة التى كان قد أحس بها فى السابق والتى خدرت أعضاءه وأوقفت عقله. انحنى أبيل إلى الأمام وراح يصفر بقوة أكبر، فقلده جاسبار. معًا، بدآ يرقصان رقصة ناش، فى حركات بطيئة لسباحين. كانت أقدامهما تنساب فوق الأرض، إلى الأمام، وإلى الخلف، ضاربةً بالكعوب. وكانت أذرعهما الممدودة ترسم دوائر، والعصا تصفر أيضًا فى الهواء، فواصل ناش تقدمه نحو الطفلين، مطلقًا التفافاته إلى الجنب، وفى أعلى رقبته المنتصبة، كانت رأسه تتأرجح متبعة الرقصة.

www.ibtesama.com

حين أصبح ناش على بعد بضعة أمتار فحسب عن الطفلين، أسرعا بإيقاع رقصتهما. بدأ أبيل يتكلم. كان يتكلم وفى نفس الوقت يصفر بين أسنانه، فأحدث ذلك أصواتًا غريبة وموزونة، بانفجارات عنيفة وصرير، كموسيقى رياح دوت عبر الهضبة الصخرية وصولاً إلى التلال البعيدة والكثبان. كانت كلمات كطقطقة الصخور فى البرد، كأزيز الحشرات، كضوء القمر، كلمات قوية وقاسية بدت كأنها تغطى الأرض بأكملها.

كان ناش يتبع الكلمات ووقع الأقدام الحافية الضاربة على الأرض، وجسده يتأرجح بلا توقف. فى قمة رقبته، كانت رأسه مثلثة الشكل ترتعش. ببطء، انسحب ناش إلى الوراء، منحرفًا قليلا إلى الجانب. كان الطفلان يرقصان على بعد أقل من مترين عنه. قبع هكذا مدةً طويلة، مشدودًا ومهتزًا. ثم، فجأةً، كالسوط، استرخى وضرب. رأى أبيل الحركة، فقفز جانبًا. فى نفس الوقت، أطلق عصاه فلمس الثعبان قرب عنقه. التف ناش على نفسه ثانيةً وهو ينفخ، فيما استمر الطفلان فى الرقص حوله. حينها لم يعد جاسبار يشعر بالخوف. حين ضرب ناش باتجاهه، قام فقط بخطوة جانبًا، وحاول بدوره صفق الثعبان فى رأسه. لكن ناش عاود الالتفاف على نفسه فورًا، فأثارت العصا قليلاً من الغبار.

كان عليهما ألا يكفا عن الصفير والكلام، حتى وهما يتنفسان، كى يدوى الليل كله. كانت موسيقى

www.ibtesama.com

كالنظرة، موسيقى بلا وهن، استبقت ناش على الأرض ومنعته من الرحيل. كانت تتسرب بداخله عبر جلده، وتعطيه الأوامر، موسيقى باردة وقاتلة أبطأت قلبه وحرفت مسار حركاته. كان السم جاهزًا، فى فمه، نفخ غدده؛ لكن موسيقى الأطفال، ورقصتهم المتموجة كانتا أكثر قوة، وجعلتهما فى مأمن.

لف ناش جسده حول صخرة، كى يسوط الهواء بشكل أفضل. أمامه، كان الخيالان الأبيضان للطفلين يتحركان بلا توقف، فأحس بالتعب. أطلق رأسه، مرات عديدة، كى يعض، لكن جسده المحجوز بالصخرة كان قصيرًا ويضرب فحسب الغبار غير المحسوس. وكل مرة كانت العصاتان تصفران فتكسرا فقارات عنقه.

فى النهاية، ترك ناش قاعدته. انفرد جسده الطويل فوق الأرض، امتد بكل جماله، متلألئًا كدرع معدنية ملتمعًا كالزنك. بدت الرسوم المنتظمة على ظهره كأنها عيون. كانت العظام المحتضرة لرقبته تهتز مصدرة موسيقى حادة بلا صدى امتزجت بصفير الطفلين وإيقاعات أقدامهما. رفع شيئًا فشيئًا رأسه، أعلى عنقه العمودى. توقف أبيل عن الصفير وتقدم نحوه، رافعًا عاليًا عصاته الرفيعة، لكن ناش لم يتحرك. بقيت رأسه، التى كانت تشكل زاوية قائمة مع عنقه، موجهة نحو الصورة البيضاء لذلك الذى كان يقترب، الذى وصل. بضربة واحدة قاصمة، ضرب أبيل الثعبان وكسر عنقه.

www.ibtesama.com

بعد ذلك خلت الهضبة الكلسية من الأصوات ليس سوى مرور ريح باردة فى الأجمات وعبر أغصان الأكاسيا، من حين لآخر. كان القمر عاليًا فى السماء السوداء، ولم تكن النجوم تلتمع.

نظر جاسبار وأبيل برهة لجسد الثعبان الممدد على الأرض، ثم رميا عصاتيهما وعادا نحو جينًّا.

www.ibtesama.com

- ٦ -

فيما بعد تغير كل شىء بسرعة كبيرة فى جينًّا. اصبحت الشمس تسطع بقوة فى سماء بلا سُحب. والحرارة لا تطاق فى الظهيرة. كان كل شىء مكهربًا. كانت تُرى طول الوقت شرارات فوق الحجارة، وتُسمع خشخشة الرمال، وأوراق الأعشاب، والأشواك. تغير ماء البحيرة، هو أيضًا. أصبح كثيفًا وثقيلاً، بلون المعدن، ويعكس ضوء السماء. لم تعد هناك حيوانات فى الوادى، ليس سوى النمل والعقارب التى كانت تعيش تحت الأحجار. حل الغبار؛ وكان يصَّاعد فى الهواء، أثناء المشى، غبار حاد ولاذع يسبب الألم.

كان الأطفال ينامون فى النهار، منهكين من الضوء والجفاف. أحيانًا، كانوا يستيقظون، بسبب قلق جديد يجتاحهم. كانوا يشعرون بالكهرباء فى أجسادهم، وفى شعورهم. كانوا يركضون ككلاب برية، بلا هدف، بحثًا ربما عن فريسة. لكن لم تعد هناك

www.ibtesama.com

أرانب برية ولا طيور. كانت الحيوانات قد غادرت جينًا دون أن ينتبهوا. لإسكات جوعهم، كانوا يقطعون الأعشاب ذات الأوراق العريضة والمُرة، وينبشون الجذور. بدأت الصغيرة "خاف" تعد من جديد مؤونة من البذور الحريفة للرحيل. كان الزاد الوحيد حليب الماعز الذى كانوا يتقاسمونه مع الثعلب ميم. لكن القطيع أصبح عصبيًا. ويذهب نحو التلال، وكان عليهم الابتعاد أكثر فأكثر لحلب الماعز. ولم يعد أوغستين قادرًا على الاقتراب من التيس الأسود الكبير. كان أتروس يخمش الأرض بغضب، مفجرًا سحبًا من الغبار. وكل يوم، كان يقود القطيع إلى مكان أبعد، باتجاه أعلى الوادى، حيث كانت تبدأ التلال، كأنه يعطى إشارة الرحيل.

كانت الليالى شديدة البرودة إلى حد أن خارت قوى الأطفال. كان عليهم الالتصاق ببعضهم البعض، بلا حراك، وبلا نوم. لم تعد تُسمع صرخات الحشرات. ولا هبوب الريح، ولا صوت اندغام الحجارة.

كان جاسبار يفكر بأن شيئًا ما سيحدث، لكنه لم يعرف ما هو ذلك الشيء. كان يبقى ممددًا على ظهره طوال الليل، قرب الصغيرة "خاف" الملفوفة فى سترته الكتانية. لم تكن الطفلة الصغيرة تنام، هى أيضًا؛ كانت تنتظر، وهى تضم إليها الثعلب.

كانوا جميعًا ينتظرون. حتى أبيل لم يعد يذهب للصيد. كان يبقى ممددًا أمام باب البيت، ومقلاعه

www.ibtesama.com

العشبى حول رقبته، وعيناه تنظران نحو التلال المضاءة بالقمر. كان الأطفال وحيدين فى جيننًا، وحيدين مع القطيع والكلاب البرية المتأوهة بصوت خفيض فى جحورها الرملية.

فى النهار، كانت الشمس تحرق الأرض. وكان لماء البحيرة طعم الرمل والرماد. وحين يشرب منه الماعز، كان يشعر بوهن فى أعضائه، وتمتلئ أعينه الداكنة بالنعاس. لم يكن الماء يروى ظمأه.

ذات يوم، حوالى الثانية عشرة، غادر أبيل البيت بمقلاعه العشبى فى طرف ذراعه. كان وجهه مشدودًا، وعيناه تلتمعان بالحُمى. مضى جاسبار خلفه، مسلحًا بمقلاعه، رغم أنه لم يطلب منه ذلك، وتوجها نحو السبخة حيث كانت تنمو نباتات البردى. لاحظ جاسبار أن مستوى ماء السبخة قد انخفض، وأصبح لونه بلون الطين. كان البعوض يتراقص حول وجهى الطفلين، وكان ذلك نبض الحياة الوحيد فى ذلك المكان. دخل أبيل فى الماء وراح يمشى بسرعة. أضاعه جاسبار، فواصل بمفرده، وغاص فى طين السبخة. بين أعواد القصب، رأى سطح الماء كثيفًا وقاسيًا. كان الضوء يلقى بومضات مبهرة، والحرارة شديدة إلى حد أن أصبح يتنفس بصعوبة. كان العرق يتصبب على وجهه وظهره، وقلبه يضرب فى صدره. حث جاسبار الخطى، لأنه أدرك، فجأةً، ما كان يبحث عنه أبيل.

www.ibtesama.com

فجأةً، بين أعواد القصب، لمح الطائر الأبيض ملك جينًا. جناحاه مفتوحان، ساكنًا على سطح الماء، شاهق البياض كأنه بقعة من الزَّبَد. توقف جاسبار ونظر إلى الطائر، مفعمًا بسعادة ملأت جسده كله. كان الطائر كما رآه تمامًا أول مرة، مستحيل البلوغ ومحاطًا بالضوء كتجلٍ. فكر جاسبار أنه فى مركز السبخة كان يحكم ـ بصمت ـ الوادى، والأعشاب، والتلال والكثبان حتى الأفق؛ ربما ليتمكن من تبديد التعب والجفاف السائدين فى كل مكان، ربما ليصدر أوامره فيعود كل شىء كما كان.

حين ظهر أبيل، على بعد بضعة أمتار فقط، أدار الطائر رأسه ونظر باستغراب، لكنه بقى ساكنًا، جناحاه الأبيضان الكبيران مفتوحان فوق الماء المتألق. لم يكن خائفًا. توقف جاسبار عن النظر إلى الطائر. فقد رأى الطفل الصغير يرفع ذراعه فوق رأسه، وفى طرف ذراعه، بدأ السير الطويل الأخضر يدور، مطلقًا غناءه القاتل.

"سيقتله!"، فكر جاسبار. وارتمى فجأةً نحوه. ركض، بكل قواه، فى السبخة نحو أبيل، وهو يدفع بقوة سيقان نباتات البردى. وصل فوق أبيل فى اللحظة التى كان الحجر سينطلق فيها، وسقط الطفلان معًا فى الوحل، فيما ضرب طائر أبو منجل الأبيض الهواء بجناحيه ورفرف محلقًا.

ضغط جاسبار على عنق أبيل لإبقائه فى الوحل. كان الراعى الصغير أنحف منه، لكن أكثر خفة وقوة.

www.ibtesama.com

فى ثوانٍ، حرر نفسه من القبضة، وتراجع إلى الوراء بضع خطوات فى السبخة. توقف ونظر إلى جاسبار، دون أن يتفوه بكلمة. كان وجهه الداكن وعيناه مفعمين بالغضب. دوَّر مقلاعه فوق رأسه، وأطلق السير. طأطأ جاسبار، لكن الحجر ضرب كتفه اليسرى ورماه فى الماء كاللكمة. صفر حجر آخر قرب رأسه. كان جاسبار قد فقد مقلاعه وهو يتصارع فى السبخة فاضطر للفرار. أخذ يركض بين أعواد القصب. كان الغضب، والخوف والألم يصدرون صخبًا كبيرًا فى رأسه. ركض بأقصى سرعة ممكنة وهو يتعرج لينجو من أبيل.

حين وصل إلى اليابسة، لاهثًا، لاحظ أن أبيل لم يتبعه. جلس جاسبار على الأرض، مختبئًا وسط باقات القصب، وبقى مدة طويلة، إلى أن استعاد قلبه ورئتاه هدوءهما. أحس بالتعب والحزن، لأنه أدرك أنه لايمكنه بعد الآن العودة للعيش مع الأطفال. وحين أصبحت الشمس قرب الأفق، اتبع طريق التلال، وابتعد عن جيناً.

لم يلتفت سوى مرة واحدة، حين وصل إلى أعلى التل الأول. نظر طويلاً إلى الوادى، وسهل الأعشاب، والبقعة الناعمة للبحيرة. قرب الماء، رأى البيت الطينى الصغير وعمود الدخان الأزرق الذى يصّاعد مباشرة إلى السماء. حاول رؤية خيال الصغيرة "خاف" جالسة قرب النار، لكنه كان بعيدًا جدًا، ولم ير أحدًا. من هنا، من أعلى التل، كان المستنقع يبدو صغيرًا

www.ibtesama.com

جدًا. مرآة باهتة حيث كانت تنعكس السيقان السوداء لأعواد القصب ونباتات البردى. سمع جاسبار نباح الكلاب البرية، وصعدت سحابة رمادية من الغبار فى مكان ما فى آخر الوادى، حيث كان التيس الكبير أتروس يمشى أمام قطيعه.

فى تلك الليلة، نام جاسبار ثلاث ساعات، ملتفًا فى تجويف صخرة. خدر البرد القارس ألم جرحه، وجعل التعب جسده ثقيلاً وأفقده حساسيته كالحجر.

أيقظت الريح جاسبار، قبيل الفجر. لم تكن نفس الريح المعتادة. كانت ريحًا ساخنة، مكهربة، قادمة من بعيد، فيما أبعد من تلال الحجر. وصلت وهى تتبع الوديان والوهاد، صارخة داخل المغارات، وفوق الصخور الهوائية، رياح عنيفة ومليئة بالوعيد. نهض جاسبار على عجل، لكن الريح كانت تمنعه من السير. وهو يقاوم، منحنيًا إلى الأمام، اتبع جاسبار وهدًا ضيقًا مسدودًا بجدارن حجارة جافة متهدمة. دفعته الريح على طول الوهد، إلى أن وصل إلى طريق. راح جاسبار يركض على الطريق، دون أن يدرى إلى أين كان يتجه. طلع النهار الآن، لكن بضوء غريب، أحمر ورمادى، كان ينبثق من كل مكان فى آن واحد، كأن هناك حريقًا ما. لم تعد الأرض سوى طبقة من الغبار المنساب فى الرياح الأفقية. كانت خيالية، وتنحل كغاز. وكان الغبار ذو الحبيبات القاطعة يضرب الصخور، والأشجار، والأعشاب، ويقرض بملايين الجزيئات، يحك ويخدش البشرة. كان جاسبار يركض دون

www.ibtesama.com

التقاط أنفاسه، ويحرك، من حين لآخر، ذراعيه وهو يصرخ، مثلما فعل الأطفال لإبعاد سحابة الجراد. كان يجرى عارى القدمين على الطريق، وعيناه شبه مغمضتين، فيما كان الغبار الأحمر يركض أسرع منه. كانت أعمدة الرمل شبيهة بثعابين، تتسلل بين ساقيه، تلفه، تدور فى زوابع، تغطى الطريق بدفقات طويلة. لم يعد جاسبار يرى التلال، ولا السماء أيضًا. لم يكن يرى سوى ذلك الوميض المضطرب فى الفضاء، ذلك الضوء الغريب والأحمر الذى كان يلف الأرض. هبت الرياح وصرخت على طول الطريق، فدفعت جاسبار وجعلته يترنح بضرب ظهره وكتفيه. دخل الغبار فمه ومنخريه، وخنقه. سقط جاسبار مرات عديدة فوق الطريق، سالخًا بشرة يديه وركبتيه. لكنه لم يشعر بالألم. فر راكضًا، وذراعاه مضمومتان أمامه، باحثًا بنظره عن مكان يحتمى به.

ركض هكذا عدة ساعات، تائهًا فى العاصفة الرملية. ثم، على حافة الطريق، رأى الشكل الملتبس لكوخ. دفع جاسبار الباب ودخل. كان الكوخ خاليًا. أغلق الباب، قرفص وظهره إلى الحائط ووضع رأسه داخل قميصه.

تواصلت الرياح مدة طويلة. كان الضوء الأحمر ينير داخل الكوخ. وكانت الحرارة تشع من الأرض، ومن السقف، ومن الجدران، كما فى داخل فرن. بقى جاسبار ساكنًا، بالكاد يتنفس، وقلبه يدق ببطء شديد كأنه سيموت.

www.ibtesama.com

حين توقفت الرياح، خيم صمت كبير، وبدأ الغبار يتساقط مرة ثانية على الأرض. وانطفأ الضوء الأحمر شيئًا فشيئًا.

خرج جاسبار من الكوخ. نظر حوله، دون أن يعى. فى الخارج، كان كل شىء قد تغير. كانت كثبان الرمال منتصبة فوق الطريق، شبيهة بأمواج ساكنة. وكانت الأرض، والحجر، والشجر يتغطون بالغبار الأحمر. بعيدًا، قرب الأفق، كانت هناك بقعة غريبة غامضة فى السماء، كدخان يتسرب. نظر جاسبار حوله فرأى وادى جينًّا قد اختفى. أصبح متواريًا الآن، فى مكانٍ ما من الجانب الآخر للتلال، مستحيل البلوغ، كأنه لم يكن موجودًا ذات يوم.

ظهرت الشمس. سطعت، فاخترقت حرارتها اللطيفة جسد جاسبار. مشى بضع خطوات على الطريق، وهو ينفض الغبار من شعره وثيابه. فى آخر الطريق، كانت هناك قرية من القرميد الأحمر مضاءة بنور النهار.

بعد ذلك وصلت شاحنة، مصابيحها مشتعلة. ارتفعت زمجرة محركها، فابتعد جاسبار. مرت الشاحنة بجانبه دون أن تتوقف، وسط سحابة غبار أحمر، باتجاه القرية. مشى جاسبار فوق الرمل الساخن، على طول الطريق. كان يفكر بالأطفال الذين يتبعون التيس أتروس عبر التلال والسهول المغطاة بالحصى. لابد أن التيس الأسود الكبير غاضب بسبب الرياح والغبار، ولأن الأطفال تأخروا كثيرًا فى الرحيل.

www.ibtesama.com

ولابد أن أبيل يتقدم القطيع، وسيره الطويل الأخضر يتأرجح فى طرف ذراعه. ومن حين لآخر، يصرخ: "يا! ياه!"، فيرد عليه بقية الأطفال. والكلاب البرية تركض، صفراء تمامًا بالغبار، راسمة دوائرها الكبيرة، وهى تصرخ أيضًا. يمرون عبر الكثبان الحمراء، متجهين إلى الشمال، أو إلى الشرق، بحثًا عن الماء الجديد. ربما بعيدًا، لو تم اجتياز جدار حجرى، سيتم العثور على واد آخر، شبيه بجينًا، عين الماء الملتمعة وسط حقل الأعشاب. قد يكون فيه أيضًا نخيل يتأرجح فى الرياح، وهناك، يمكن بناء بيت بالأغصان والطين. ستكون فيه هضاب ووهاد تعيش فيها الأرانب البرية، وفرجات أعشاب تذهب الطيور للجلوس فيها قبل الفجر. فوق المستنقع، ربما سيكون طائر أبيض كبير يحلق منحنيًا فوق الأرض كطائرة تنعطف.

لم يكن جاسبار ينظر إلى المدينة التى كان يدخلها الآن. لم يكن يرى جدران القرميد، ولا النوافذ المغلقة بستائر معدنية. كان لا يزال فى جينًا، كان لا يزال مع الأطفال، مع الصغيرة "خاف" والثعلب ميم، مع أبيل، وأنطوان، وأوغستين، مع التيس الكبير أتروس والكلب نون. كان معهم بالفعل، دون الحاجة لكلمات، فى نفس اللحظة التى دخل فيها مكتب الدرك وأجاب فيها على أسئلة رجل جالس أمام آلة كاتبة قديمة:

"اسمى جاسبار... ضللت طريقى..."

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفهرس

مـونـدو.. ٩
لولابى ....
جـــبل الإله الحى..............................
السـاقية..
ذلك الذى لم ير البحـر أبدًا.......................
أزران...
شَعب السماء.....................................
الـرُّعَـاة..

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

www.ibtesama.com

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالڤينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «إسحق باشيفتس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

www.ibtesama.com

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالاموود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ إسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريجيتَّه كروناور» مختارات.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

www.ibtesama.com

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

www.ibtesama.com

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. ر واية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سيئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

www.ibtesama.com

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا .

٦٤ ـ رحلة العم مآ.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

www.ibtesama.com

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الإسكتلندية «أ. ل. كيندى»..
رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. لكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديفاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديفاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث»..
رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيفين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر»..
رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

www.ibtesama.com

٧٨ ـ حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ غدًا.. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ أن نُصبح أغرابًا.. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

٨٢ ـ المرأة المسكونة.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دى لاس أمير كاس.

٨٣ ـ بيتر كامينتسند.. للكاتب الألمانى «هِرمَن هيسّه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

٨٤ ـ بيت السيد بيسواس.. للكاتب من ترينداد «ف. س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

٨٥ ـ مدريد الأصيلة.. للكاتب الإسبانى «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

٨٦ ـ لافينيا.. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى لى جوين».. رواية جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

٨٧ ـ أشجار متحجرة.. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٨٨ ـ سنوات الهروب.. للكاتب الكولومبى «بلينيو أبوليو ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إي خانيس.

٨٩ ـ الباحث عن الذهب.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

www.ibtesama.com

٩٠ ـ جائزة أو. هنرى.. مجموعة من المؤلفين.. قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنرى لـ عام ٢٠٠٧.

٩١ ـ الحيوان المُحتضر.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة بن /نابوكوف.

٩٢ ـ أنشودة ألاباما.. للكاتب الفرنسى «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

٩٣ ـ إنجيل الابن.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٤ ـ الوصمة البشرية.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٩٥ ـ ليتنى لم أقابل نفسى اليوم.. للروائية الألمانية «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٦ ـ حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٧ ـ حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الثانى. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٨ـ وبنى لها معبدًا.. للكاتب الألمانى «سيجفريد أوبرماير».. رواية.. جائزة شيلزهايم.

٩٩ ـ جنون المتاهة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدر».. رواية.. جائزة صنداى تايمز لكاتب شاب.

١٠٠ ـ الملك ينحنى ليقتل.. للكاتبة الألمانية «هيرتا موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

www.ibtesama.com

١٠١ ـ العبد.. للكاتب البولندى «سمير أبو الفتوح».. رواية.. جائزة نوبل.

١٠٢ ـ الفراشة والدبابة.. للكاتب الأمريكى «إرنست همنجواى».. قصص.. جائزة نوبل.

١٠٣ ـ التجمع.. للكاتبة الأيرلندية «آن ريت».. رواية.. جائزة البوكر.

www.ibtesama.com

يصدر قريبًا من هذه السلسلة

١ ـ الكون فى راحة اليد.. چيوكوندا بيلى.. جائزة اتحاد الناشرين ١٩٩٢.

٢ ـ جزيرة صغيرة.. أندريا ليڤى.. جائزة الأورانج ٢٠٠٥.

٢ ـ الجولة وحوادث مؤثرة أخرى.. ج. م.ج. لوكليزيو.. جائزة نوبل ٢٠٠٨.

www.ibtesama.com

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

www.ibtesama.com

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

الكتاب

مجموعة من القصص لكاتب نوبل الشهير "لوكليزيو" يستطيع القارئ أن يلمس فى سطورها جمال أسلوبه الباذخ. وأن يشعر بالفعل بما أكده الكاتب فى أحد حواراته حول لحظة ميلاده الثانية فى اللغة. حين تتحول عبَر الكتابة الأشياء الصامتة إلى أشياء ناطقة. وأن الأشجار والأحجار والحيوانات والسحب والنجوم ليست غريبة عن الإنسان بل ليست غريبة فى حد ذاتها. وسيجد القارئ الجمال الذى أسر الكاتب طوال رحلته الإبداعية متجسدًا فى بلاد الشمس: حيث تتفتح الزهور. ويصبح للأخلاق قيمة ومعنى. وحيث تتميز شخوصه الكبير منها والصغير - على حد السواء - بالهدوء والحكمة والعمق. وينعكس جمال الوجود على أبطاله. كما ينعكس قلب أبطاله الشاخص دائمًا نحو الحرية والحق والجمال على الوجود كله.

الكاتب: ج.م.ج. لوكليزيو الروائى الفرنسى.
الجائزة: جائزة نوبل فى الآداب عام ٢٠٠٨.

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774219365

6 221149 023949

١٤ جنيهاً

www.ibtesama.com